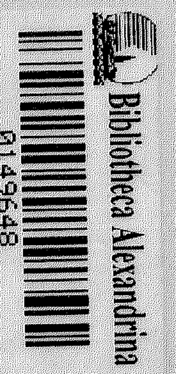
الدكتور فؤاد حيدر

الشخصيّة في الإسلام وفي الفكر الغربيّ







الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي



الدكتور فؤاد حيدر

الشخصية في الإسلام
وفي الفكر الغربي

دار الفكر العربي
بيروت

دار الفكر العربي
كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - ص.ب: ١٤/٥٠٧٠
هاتف ٨١٧٢٨٨ - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٠

مقدمة

إن النظريات والأبحاث والتجارب والإختبارات التي تحاول تفسير شخصية الـطفـل، من خـلال المـراحـل المتعـددة لنمـوه النفسي والجسـدي والفكـري والإجتماعي متعددة ومتشعبة. ولم تزل الآراء متعارضة ومتنـاقضة حـول أولويـة العنصر الأساسي الذي يتحكم في المسار العام لتحديد السمات المميزة لشخصية الطفل. فبعض هذه النظريات، يركز على عامل الوراثة (Héredite)والبعض الآخر يركز على مفهوم البيئة الطبيعية والإجتماعية والوسط. (milieu physique,social, environnement)البعض الآخر ينطلق في فهمه لشخصية الطفل ونموه، من خلال طبيعة التكوين والتنظيم العضوي والفيزيولوجي (حسي ـ حركي)، وبعض العلماء ينطلق في تحليله من خلال عملية التفاعل، بين العضوي والبيئة، وما ينتج عن هذا التفاعل من تكوين فكري ونفسي، وحالات الوعي واللاوعي.

لكي نفهم العـوامل الأسـاسية، التي تؤثـر في التكوين النفسي والفكـري والجسدي والإجتماعي لشخصية الطفل، علينا أن نكشف عن المسار العام لهذه الجوانب المتعددة. خلال المراحل المتعددة للنمو.

إن السمات الأساسية لشخصية الطفل، ونموه تتحدد ليس منذ اللحظة التي يخرج فيها الجنين من رحم الأم إلى العالم الخارجي، ولكن ذلك يتأثر بالسمات العامة للأهل، على المستويات (الجسدية والفكرية والنفسية)، يضاف حالة الأم النفسية والجسدية خلال مرحلة الحمل، حالة الأهل العامة فيما يتعلق بالعمر، الحـالة الصحيـة، الوضـع النفسي، التكافؤ العـام بين الزوجين أثنـاء الإتصـال

الجنسي، يؤثر بدوره على طبيعة الجين الذكري (chromosome)والجين الأنثوي (ovule)من حيث إنتقاء الأفضل والأصلح للتلقيح.

إن حالة الأم العامة خلال فترة الحمل، على الصعيد النفسي والفكري والجسدي والعاطفي والانفعالي، يؤثر على نمو الجنين، إن نمو الجنين داخل رحم الأم، يتأثر بحالة الأم العامة، إن المرأة الحامل التي تعاني من ضعف جسدي وبعض الأمراض، وتوترات نفسية، وقلق وخوف من الولادة، كل هذه العوامل تؤثر على نمو الجنين، وتترك آثارها على نمو الطفل في مرحلة ما بعد الولادة. إن بعض الأطفال يتميزون بعد الولادة بكثرة الحركات، والبكاء المستمر، وحالات المغص، وكثرة التوترات والانفعالات، مما يصعب معه التفسير العلمي لهذه المظاهر ولكن مما لا شك فيه أن غالبيتها ناتج إلى الأسباب الآنفة الذكر.

إن المناخ العام الذي يحصل فيه الولادة، من حيث حالة الأم النفسية والجسدية، الوضعية التي تتم فيها الولادة، (سهولة، صعوبة، طلق طبيعي، طلق اصطناعي) الآلام خلال الولادة، توترات الأم خلال عملية الولادة، كيفية سحب الجنين من داخل رحم الأم، هذه العوامل تدعى بصدمة الولادة، Traumatisme de naissanceوتؤثر تأثيراً قوياً على التكوين النفسي للطفل.

مرحلة ما بعد الولادة، يدخل الطفل إلى عالم جديد، عالم الأهل، طبيعة التفاعل بين الطفل والأهل، التنشئة والتربية، التفاعل بين الأب والأم والولد، السمات العامة للأهل، الأشخاص الذين يتفاعل الطفل معهم داخل الأسرة وخارجها، هذه العوامل تؤثر على التكوين النفسي والفكري والجسدي والإجتماعي للطفل خلال المراحل المتعددة للنمو.

إن العادات والتقاليد والقيم والمعايير والإتجاهات، التي يكتسبها الطفل خلال تفاعله مع الوسط الذي ينتمي إليه، تؤثر تأثيراً قوياً على تحديد السمات العامة لشخصيته. إن وضعية الطفل في المدرسة، من حيث التجهيزات، المناهج، التفاعل مع المعلمين. التفاعل مع الطلاب والمناهج والإدارة، يؤثر بدوره على التكوين النفسي والفكري والإجتماعي للطفل خلال مراحل التعلم المتعددة.

إذن إن شخصية الطفل، ونموه النفسي والفكري والجسدي والإجتماعي، تتأثر بمجموعة من العوامل المعقدة والمتشعبة والمتشابكة، لكي نستطيع فهم شخصية الطفل، علينا الإحاطة والكشف وتتبع كل مرحلة من المراحل التي يمر بها الطفل، وكيف يحصل التفاعل والتعارض والتناقض بين هذه المستويات. خلال مراحل النمو المتعددة، في سبيل الكشف عن العوامل التي تساهم في النمو الإيجابي للشخصية، والكشف عن العناصر التي تعيق هذا النمو، في سبيل معالجتها والتخفيف من حدتها. والهدف في ذلك هو مساعدة الطفل أن ينمو نمواً طبيعياً بما ينسجم مع المقدرات والإستعدادات الفطرية لديه. بحيث تكون المقدرات الجسدية والبيولوجية، متوازنة مع الدوافع النفسية والإجتماعية، مما يسمح لشخصية الطفل أن تنمو نمواً متوازناً والتخفيف من توترات الصراع الداخلي والخوف والقلق من التفاعل مع العالم الخارجي.

إن النمو الطبيعي للشخصية، خلال المراحل المتعددة، يساعد الطفل على التكيف مع الوسط والبيئة بشكل أفضل، مما يزيد من قدرته على تحمل الصراع، وبالتالي زيادة الطاقة في السيطرة على البيئة والوسط، مما يساهم في التقدم والتطور على المستوى الإنساني والبيئوي والإجتماعي.

غالبية النظريات في علم النفس حاولت فهم وتفسير وتقييم الشخصية إنطلاقاً من معايير مادية: بيولوجية، حسية، حركية، فكرية، إجتماعية، ثقافية... حتى أنها اعتبرت الحالات النفسية الداخلية: الوعي، الشعور، الإنفعال، الإدراك، الغيرة، الحسد، الغضب، تعود في جذورها إلى عوامل بيولوجية تختلف باختلاف المراحل المتعددة للنمو، كما أنها تتغير تبعاً للتغير الإجتماعي والثقافي، أما الإسلام فإنه ينظر إلى الشخصية كوحدة متكاملة على الصعيد الجسدي والفكري والنفسي والإجتماعي والإنفعالي والروحي؛ الإسلام ركز على ركن أساسي من أركان الشخصية ألا وهو الجانب الروحي. تتميز الشخصية الإسلامية بالتوازن فلا يطغي جانب على جانب آخر، لقد جمع الإسلام بين الدنيا والآخرة في نظام الدين، وبين الروح والجسد في نظام الإنسان، وبين العبادة والعمل في نظام الحياة.

مفهوم الشخصية في الاسلام وفي الفكر الغربي

إن النظريات في علم النفس الغربي تهتم بدراسة أساس الدوافع للسلوك الإنساني وكيفية بناء الشخصية. وقد اختلفت هذه النظريات في تفسير تطور الشخصية خلال مراحل النمو المختلفة. ونجد أن ثمة تيارين مختلفين في دراسة الشخصية.

١ـ التيار الأول اتجه إلى النظرية.

٢ ـ التيار الثاني اتجه إلى التجريب.

من هنا تبدو الهوة الساحقة بين النظريات المختلفة في موضوع الشخصية.

فالاتجاه النفسي يعتمد في دراساته على العمليات النفسية التي تحدث داخل الشخصية، ودور المجتمع في هذه الدراسات لا أهمية له، أما الإتجاه الإجتماعي فقد أغفل دور الفرد واعتمد في تفسيره للشخصية على العوامل الإجتماعية البحتة، ويبدو أن كلا الإتجاهين في نظرنا قد أخفق في تفسير الشخصية الإنسانية تفسيراً موضوعياً.

أما الإسلام فإنه يتناول الشخصية من جوانبها المتعددة: الروحي والعقلي والوجداني والأخلاقي والإجتماعي والجسدي، ويعتبر أن بناء الشخصية السوي يتم وفق الإعتدال والإتزان دون إفراط في جانب على حساب جانب آخر. سوف نستعرض أهم ركائز الشخصية في الفكر الغربي. ومفهوم الشخصية حسب التربية الإسلامية.

الإتجاه النفسي لتفسير الشخصية: ويمكن تصنيفه إلى فئتين، فئة تجريبية بحتة

ويمثلها مدرسة التحليل النفسي وفئة نظرية بحتة يعبر عنها جوردون آليورث. الفئة الأولى يمثلها سيغموند فرويد الذي قام بأبحاثه في دراسة الشخصية من أجل فهم الإنسان المريض وإعادة توافقه مع البيئة ومع الآخرين.

وينطلق فرويد في دراسة الشخصية من التركيب العضوي للفرد حيث يرجع دوافع السلوك إلى عوامل بيولوجية. ويركز فرويد على أهمية العوامل الوراثية في تحديد سلوك الشخص، ويقلل من العوامل الإجتماعية التي تذوب في العناصر البيولوجية يقابل الإتجاه النفسي لدراسة الشخصية الإتجاه الإجتماعي حيث ينكر أصحاب هذا الإتجاه كل أثر للعوامل الوراثية البيولوجية في تشكيل السلوك الإنساني. ويؤكد أن العوامل الإجتماعية الخارجية عن الشخص هي العامل الهام في تكوين الشخصية وتركيبها. من أهم رواد هذا الإتجاه دوركايم، توماس، وكولي.

سوف نستعرض الإتجاهات الأساسية لبعض مدارس التحليل النفسي وبعض المدارس الإجتماعية في موضوع الشخصية وبنائها، وأخيراً نعرض تأثير التربية الإسلامية في بناء الشخصية.

علم النفس التحليلي: سيغموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٦).

يعتبر فرويد أن هدف السلوك هو البحث عن اللذة وتجنب الآلام وإن أساس الدافع للسلوك هو الغرائز. وهذه الغرائز لها أساس فطري موروث. إن مبدأ اللذة هو المبدأ الذي يسيطر على عمليات الجهاز النفسي منذ الميلاد. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يشبع دائماً حاجاته من حيث يعترضه مجموعة من الصراعات ويرجع فرويد أسباب الصراع إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ أسباب تعود إلى الجسد.

ب ـ أسباب خارجية ترتبط بالعالم الخارجي.

ج ـ أسباب ترجع إلى علاقة المرء مع الآخرين.

ويعتبر فرويد أن النوع الثالث هو أشد الأنواع فاعلية في حرمان الفرد من السعادة.

ويعتبر فرويد أن الجانب البدائي لم يزل موجوداً داخل الإنسان، وهو موجود في اللاشعور بصورة مكبوتة،وقد أعلى فرويد من قيمة هذا اللاشعور، ومدى سيطرته على سلوك الفرد. يرى فرويد أن الغرائز هي أساس الدافع لكل سلوك إنساني. ويعتبر أن الطاقة التي تدفع وتحرك السلوك هي «طاقة اللبيدو» وتكمن هذه الطاقة في اللاشعور، وتستمد قوتها من الغرائز البيولوجية التي تسعى إلى تحقيق السعادة ويرى فرويد أن اللبيدو يسعى إلى إشباع حاجاته في النشاط الجنسي. ولا يقصد بالجنس عملية الإتصال الجنسي بين الرجل والمرأة. بل الجنسي هو كل ما يحقق السعادة والحب. وقد أرجع فرويد جميع حالات المرض في مراحل النمو إلى تجارب السنوات الخمس الأولى. ولذا يجب على المحلل النفسي أن يتتبع الأعراض المرضية وأن يرجع إلى تجارب الطفولة، ويرى فرويد أن الشخصية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء : الهو، الأنا، والأنا الأعلى. وكل جزء من هذه الأجزاء له وظائفه وصفاته ومكوناته ومبادئه العامة، وتتفاعل هذه الأجزاء فيما بينها. والسلوك الناتج عن الشخص هو نتيجة التفاعل بين هذه التنظيمات.

مكونات التنظيم النفسي

١ - فرويد:

أ: الهو:

الهو هو جـــزء أساسي في تكـــوين شخصية الفـــرد، وهو مصـــــدر كل الطاقات الغريزية الضرورية لاستمرار بقاء الفرد. ولا يعرف الهو إلا مبدأ اللذة. وهو لا يعرف قانوناً. ولا تحكمه قوانين الفكر. ولا يعرف القيم الأخلاقية. إن الهو يستمد طاقاته من الغرائز. أي من أعضاء الجسد المختلفة. وهذه الغرائز هي القوة الدافعة للشخصية. والهو هو الذي يعطي الغرائز معنى نفسياً يتمثل في الليبدو، ويحول الحاجات البيولوجية إلى طاقة نفسية. فالهو هو المولد الذي يولـد القوة النفسية في الشخصية. ويؤلف الهو الجزء الأكبر من اللاشعور ولا يمكن معرفته إلا من خلال الأحلام وتحليل أعراض الأمراض العصابية وأن الهو هو المخزن لكل الآثار المتبقية من الحضارة البدائية الأولى في حين أن الأنا من الشخصية حسب فرويد هو واجهة الهو إلى العالم الخارجي. وما يميز الأنا عن الهو هو أن الأنـا يحاول تنظيم وضبط العمليات النفسية وإخضاعها إلى حكم العقل. فالأنا جزء من الهو. ذلك الجزء الذي تعدّل نتيجة التفاعل مع العالم الخارجي.

ب: الأنا:

أن الأنا هو الجانب الأساسي والرئيسي لشخصية الفرد. والأنا ليس فطرياً. بل يكتسب والأنا يلعب دور الوسيط بين الهو والعالم الخارجي.

. وقد بين فرويد أن وظيفة الأنا الأولى هي المحافظة على الكائن وحمايته من

المطالب الغريزية التي يفرضها عليه الهو. والعالم الخارجي والأنا الأعلى. إن الهو يسعى إلى إشباع الدوافع البيولوجية، أما الأنا الأعلى يهدف إلى السيطرة الكاملة على جميع هذه الدوافع التي قد تصل إلى درجة الكبت، فالأنا ينظم العمليات النفسية ويقف موقف الرقيب على كل فعل يصدر عن الشخصية. ليتحقق الإنسجام بين الأنا الأعلى والهو والعالم الخارجي. ويقيم التفاعل بين البيئة الخارجية والدوافع الداخلية بشكل هادىء.

يتضمن الأنا العمليات الفكرية والإدراكية، لإن وظيفته تنظيم حاجات الكائن من العالم الخارجي.

إذا كان الأنا جزء انشطر عن الهو، فإن الأنا الأعلى ينبلج عن الأنا. ويتميز الأنا الأعلى عن الأنا. ويعطي لنا تعبيراً عن تأثير الوالد والسلطة في شخصية الفرد.

ج: الأنا الأعلى:

يتضمن الأنا الأعلى كل المحرمات التي يجب على الشخص أن يخضع لها. ويتكون الأنا الأعلى في مرحلة متأخرة من الطفولة. وإن تكوين الأنا الأعلى يرتبط بعقدة أوديب. إذا كان الأنا يمثل العالم الخارجي. فالأنا الأعلى يمثل التصور الأخلاقي الداخلي لهذا العالم.

كيف تتكون عقدة أوديب حسب فرويد.

يرى فرويد أن عقدة أوديب تتكون في المرحلة الثالثة من مراحل نمو الشخصية. وهي المرحلة التي يحب الطفل فيها أحد والديه من الجنس الآخر ويكره الآخر من نفس الجنس. وعقدة أوديب هي قمة الجنسية الطفلية عند فرويد. وهذه العقدة لها منابع ثلاثة.

أ ـ نفسي وهو الخوف من الأب، وهذا الخوف هو الذي يدفع بالابن إلى التوحد مع الأب.

ب ـ بيولوجي، ويظهر نتيجة لاعتماد الطفل على أمه منذ الولادة وارتباطه بها. وتصبح الأم هي الموضوع الأول لحب الطفل دون وعي منه. وليس أساس هذا الحب أنها ترضعه وتربيه وتنظفه وتعطيه الكثير من الحب والحنان. ولكن الجانب الهام في هذه العلاقة هو كونها أنثى وكونه ذكراً.

ج ـ الجانب الثقافي للجنس البشري الذي يتدخل في تكوين عقدة أوديب.

مما تقدم نرى أن فرويد قسم بناء الشخصية إلى الهو والأنا والأنا الأعلى. ورأى أن هذه العناصر الثلاثة تؤثر في البناء النفسي وأن العلاقة بينها علاقة آلية وليست تفاعلية. ويمكن القول أن الهو عند فرويد يعبر عن المضمون البيولوجي للشخصية ويعبر الأنا عن المضمون الإدراكي كما يؤكد الأنا الأعلى المضمون الإجتماعي. إن الكائن عندما يولد لا يملك إلا الهو، ويتكون الأنا الأعلى خلال مراحل نمو الفرد. ويعتمد تكوينهما على ما يكتسبه الطفل أثناء تجاربه من البيئة وخلال علاقاته بالآخرين. إن الأنا الأعلى يتكون تبعاً لثقافة المجتمع.

٢ ـ إيريك فروم:

يرى فروم أن الإنسان يرتبط بالمجتمع من خلال نشاطه الإقتصادي. والعمل أساس هذه الرابطة. إن العمل يدفع الإنسان إلى تغيير ذاته وتحديد علاقته بالآخرين. إن فروم لم يهتم بالعمليات النفسية اللاشعورية والدوافع الجنسية. لكنه يسعى إلى تفسير الإنسان ومشكلاته في المجتمع الحديث. وأشار أن المشكلات التي يعاني منها الإنسان هي اقتصادية وإجتماعية وسياسية. التي تجعل الإنسان يفقد حريته. ويشعر بأنه أصبح مجرد آلة. ومن أسباب التوترات النفسية شعور الإنسان بالوحدة وعدم اهتمام الآخرين به. لقد بين فروم تأثير النظام الإجتماعي ـ والإقتصادي على طباع وسمات الشخصية. فالشخصية تتغير تبعاً لتغير الظروف الإجتماعية والإقتصادية. إن الشخصية تختلف في المجتمع الحرفي عن المجتمع الزراعي عن المجتمع الصناعي كما تختلف الشخصية في المجتمع الديمقراطي عن الشخصية في المجتمع الديكتاتوري، وتتميز الشخصية في المجتمع الرأسمالي عن الشخصية في المجتمع الإشتراكي.

بيَّن فروم أن الإنفعالات والدوافع تتشكل من خلال الظروف الإجتماعية والإقتصادية التي يعيش فيها الشخص.

وقد أكد فروم أهمية الوالد في تشكيل شخصية الطفل. كذلك فالجماعات التي ينتمي إليها المرء لها أثرها في نمو الشخصية. إن الدافع للسلوك عند فروم. ينبع من ظروف وجوده في الموقف. وإن الاحباط النفسي ينتج من الأنماط الثقافية والإقتصادية السائدة. وتتكون الشخصية عند فروم من عنصرين المزاج الطبيعي والطباع، ومزاج الشخص هو النسيج العضوي والعاطفي الأساسي الذي يولد به الإنسان. أما الطباع فهو العناصر الإجتماعية التي تتكون بتأثير الضبط الإجتماعي. وللشخصية عند فروم مظهران:

الأول: الشخصية الفردية وهي مجموعة العوامل البيولوجية الفطرية التي تأثرت بالتربية الأسرية.

الثاني: الشخصية الإجتماعية وهي تعبير عن تأثير المجتمع والثقافة على الشخص. إن التربية عامل هام في طبع الإنسان، بالمثل والمعايير الحضارية التي ترفع الإنسان من المستوى الحيواني إلى المستوى الإجتماعي.

٣ - النظرية الإجتماعية والشخصية

١٠٣ أميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧)

يرى دوركايم أن المجتمع يوجد في عقول الأفراد ويعبر عنها بالعقل الجمعي. إن المجتمع ليس مجموع الأفراد وإنما هو حقيقة مستقلة عن الأفراد، فإلى جانب الأفراد توجد مجموعة ظواهر إجتماعية مثل الدين. والقانون والأخلاق والأسرة، وتلعب دوراً هاماً في التأثير على سلوك الأفراد وعلى تنظيم العلاقات الإجتماعية. وهذه الظواهر الإجتماعية توجد قبل وجود الفرد الذي يخضع لها. ويرى دوركايم أن المساهمة في الحياة الإجتماعية وتقسيم العمل داخل التنظيم الإجتماعي هو تأكيد لوجود الإنسان الإجتماعي. الذي يلتزم بالمؤثرات الجماعية ويخضع للضغوط الإجتماعية. إن الضمير والقيم الأخلاقية حسب دوركايم لا تخص

الشخص وحده. ولكن الأخلاق تعبر عن ضمير المجتمع وتعكس العقل الجمعي. إن المجتمع عند دوركايم له قوة أخلاقية. ويضم المجتمع حسب دوركايم مجموعة من القواعد الأخلاقية والظواهر الإجتماعية التي تفرض على الأفراد من الخارج. لقهر رغبات الإنسان، التي لا يمكن السيطرة عليها إلا من خلال القهر الذي يمارسه المجتمع. إن سلوك الفرد حسب دوركايم يتشكل حسب الظواهر الإجتماعية السائدة فيه. وهو صانع التفكير. فالتفكير ليس سمة الفرد، ولكنه تعبير عن العقل الجمعي وانعكاس لظروف الجماعة الإجتماعية وهي ذات تأثير قوي على شعور الأفراد وتصوراتهم واتجاهاتهم. وهي تحاول إن تخضع الفرد للمجتمع وتخضع العقل الفردي للعقل الجمعي.

ما هو مفهوم الشخصية عند دوركايم؟ وما مفهومها؟

إن دوركايم يعترف بوجود الشخصية الإجتماعية فهي ما يميز الإنسان عن الحيوان إن الإنسان لا يوجد إلا في جماعة. ولا يعيش على مستوى الحاجات البيولوجية. لإن حياته تصبح مثل حياة الحيوان.

ينكر دوركايم في دراسته للشخصية قدرة الشخص على تكوين شخصيته المتميزة، لإن المجتمع عنده هو الذي يفرض نمط الشخصية، فكل مجتمع يخلق شخصية أعضائه حسب تركيبه الإجتماعي والمورفولوجي. إن دوركايم قد سلب الإنسان الحرية الكافية لتكوين شخصيته.

يرى دوركايم أن الشخصية تتكون من عنصرين: العنصر الأول هو الجسد، وهو مجموعة العناصر البيولوجية، وهذا العنصر محدود النشاط وهو ما يميز شخصاً عن آخر، ويعطيه فرديته.

والعنصر الثاني هو النفس، وهو العنصر الإجتماعي في الشخصية. وهو يعبر عن روح الجماعة. وهو مستقل عن الجسم، ولا تعبر عن نفس الفرد، ويمثل الحقيقة العليا للفكر. والنظام الخلقي والديني. فهي تعبير عن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. وتنقل الفرد من مستوى الكائن البيولوجي إلى مستوى الكائن

الإجتماعي. فالشخصية الإجتماعية والتي تعكسها النفس الإجتماعية لا توجد إلا في المجتمع.

٢٠٣ تشارلز كولي : (١٨٦٤ - ١٩٢٩)

يرى كولي أن الفرد والمجتمع يؤثر كلاهما في الآخر. فالبيئة الإجتماعية والسمات البيولوجية الوراثية عاملان يتفاعلان سوياً ويتحدان معاً ليكونا الإنسان الإجتماعي. إن الشخصية تتكون من خلال عملية التفاعل المتبادلة بين الفرد والمجتمع. إن المجتمع يعكس الجانب العام من الحقيقة الإنسانية، في حين أن دراسة الفرد تعكس الجانب الخاص من الطبيعة الإنسانية. إن الشخصية تتكون من خلال التفاعل. الشخص لا يوجد إلا في مواجهة شخص آخر. يعتبر كولي أن الشخصية جزء من المجتمع الذي نعيش فيه. إن البيئة الإجتماعية والبيئة البيولوجية الوراثية يساهمان في تكوين الإنسان الإجتماعي، وتحقيق الطبيعية الإنسانية... وقد اهتم كولي بدراسة التفاعل بين الفرد والبيئة، وأهم السمات التي درسها كولي حب الذات، الغرور، الكبرياء، والأنانية، واعتبرها سمات أساسية للطبيعة الإنسانية، وأكد كولي على أهمية الذات التي تنمو وتتكون تبعاً للنمو الإجتماعي للشخصية. إن ذات الفرد تنمو نتيجة الإرتباط والتفاعل مع ذات الجماعة. وذات لأسرة، وذوات أعضاء اللعب.

ولا يرى كولي أن الذات هي العنصر الوحيد المكون للشخصية، بل ثمة عنصر آخر هو الضمير. وهو محصله التنظيم النفسي للمجتمع. ويخضع في تكوينه لتأثيرات الأسرة وجماعات اللعب والمدرسة والجوار. ويتكون الضمير منذ الطفولة المبكرة.

٤ - مفهوم الشخصية في الإسلام.

جمع الإسلام بين الدنيا والآخرة في نظام الدين، وبين الروح والجسد في نظام الإنسان، وبين العبادة والعمل في نظام الحياة.

ينطلق الإسلام في فهمه للإنسان من النظرة الواقعية والأخلاقية.

ماذا نعني بالواقعية في الإسلام؟

يهدف الإسلام في أنظمته وقوانينه إلى تحديد الأهداف والغايات التي تنسجم مع واقع الإنسانية بطبيعتها وخصائصها. يحاول الإسلام أن لا يرهق السلوك الإنساني بالتشريع المعقّد. كما أنه لا يطلب من الإنسان أن يعيش في أجواء خيالية فوق طاقاته وإمكاناته. الإسلام لم ينظر إلى السلوك الإنساني نظرة خيالية كما فعلت مدرسة التحليل النفسي التي تنطلق في تفسير دوافع السلوك من مفاهيم وفرضيات وهمية غير واقعية، كمفهوم «عقدة أوديب» «والنظرية الجنسية»، كذلك لم ينظر الإسلام إلى السلوك نظرة مادية بحتة كما فعلت المدرسة السلوكية الواطسونية التي اعتبرت الشخصية حصيلة إستجابات الفرد للمثيرات (الداخلية والخارجية) المحيطة بالفرد. لقد ألغت السلوكية دور الوعي، الوراثة، الفروق الفردية، لقد إعتبرت الإنسان كآلة ميكانيكية يستجيب تبعاً لمثيرات الوسط، السلوكية الوطسونية جردّت الإنسان من إنسانيته.

الإسلام يرمي إلى تحقيق إنسانية جديدة، طاهرة من كل نوازغ المادية والأنانية، الإسلام لا يستند في تحقيق أهدافه وغايته النصح والتوجيه، التي يقدمها الوعاظ والمرشدون. وإنما يستند على ضمان تشريعي. ألسمة الأساسية للشخصية الإسلامية هي الصفة الأخلاقية، الإنسان المسلم لا يستمد غايته السلوكية التي يسعى إلى تحقيقها في المجتمع، من ظروف مادية وطبيعية مستقلة عن الإنسان نفسه، إنما ينظر إلى الغايات والأهداف بوصفها معبّرة عن قيم عملية. الإسلام يسعى إلى تحقيق غاية الدوافع والأهداف للسلوك بمزج العامل النفسي و الذاتي مع المصلحة الجماعية العامة. لقد إهتم الإسلام بالعامل النفسي. لإنه نظر إلى الإنسان نظرة روحية فكرية.

لطبيعة العوامل الذاتية التي تختلج في نفس الإنسان، أثرها الكبير في تكوين شخصيته، وتحديد المحتوى الروحي لهذه الشخصية، كما أن للعامل الذاتي (النفسي والروحي والفكري) أثره الكبير على الحياة الإجتماعية.

لقد بات واتضحاً أن العامل النفسي يلعب دوراً رئيسياً في تحديد السمات الأساسية للشخصية على المستوى: البيولوجي والإجتماعي والثقافي.

الإسلام لا يركز فقط في مذهبه وتعاليمه على تنظيم الوجه الخارجي للفرد والمجتمع، وإنما ينفذ إلى أعماق الإنسان الروحية والفكرية ليوازن بين المحتوى الداخلي للنفس البشرية وما يرسمه من تخطيط خارجي ينسجم ويتوافق مع البناء الداخلي للإنسان.

إن الشخصية الإسلامية ترتكز على مجموعة من العناصر:

١ ـ العقيدة: وهي القاعدة المركزية للإنسان المسلم، تحدد نظرة المسلم الرئيسية إلى الكون بصورة عامة.

٢ ـ إن الإسلام ينطلق في تكوينه للشخصية الإسلامية من مفاهيم إسلامية تعكس نظر الإسلام في تفسير الأشياء.

٣ ـ العواطف والأحاسيس التي يسعى الإسلام إلى تنميتها في الشخصية الإسلامية، هي وليدة المفاهيم الإسلامية، والمفاهيم الإسلامية بدورها موضوعة في ضؤ العقيدة الإسلامية. سوف نحاول أن نبين أوجه الترابط بين الشخصية الإسلامية وأوجه الإرتباط والتفاعل بين سائر ما يتصل بها من عناصر وخصائص إسلامية وذلك إستناداً على القرآن والسيرة والحديث، بهدف الكشف عن الجوانب التالية:

١ ـ إرتباط الإنسان المسلم بالعقيدة: هذا الإرتباط هو مصدر الغذاء الروحي للشخصية، العقيدة تدفع المسلم للتكيف وفقاً لمفاهيمها، مما يخلق في نفسه شعوراً بالإطمئنان النفسي والروحي.

٢ ـ الإسلام يربط الإنسان المسلم بمفاهيم إسلامية عن الكون والحياة، وطريقته الخاصة في تفسير الأشياء،

الإنسان المسلم لا يجوز له أن يعزل تأثير المفاهيم الإسلامية خلال التطبيق والتفاعل الإجتماعي.

٣ ـ إن الإسـلام يربط الإنسـان المسلم في البيئـة بمـا يبثـه من عـواطف وأحاسيس نابعة من مفاهيمه الخاصة، كعاطفة الأخوة والتعـاون بين المسلمين، التي تفجر في قلب المسلم ينبوعاً من الحب للآخـرين، والمشاركة لهم آلامهم وأفراحهم وانصهار الكيان الروحي للإنسان بالعواطف الإسلامية. هذه العواطف والمشاعر تلعب دوراً رئيسياً في تكيف الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية.



القسم الأول

الشخصية
في الفكر الغربي



موضوع علم النفس:

اختلف علماء النفس في تفسير ووصف وتحديد معنى السلوك الإنساني. منهم يعتبر السلوك محصوراً في النشاط الحركي الظاهر: كالمشي والكلام والأكل والإبتسام والهرب، أو نشاط باطن كالتفكير والتذكر والشعور بالإنفعال... النشاط ينتج من التفاعل مع البيئة ويحاول الفرد أن يتكيف معها. بعبارة أخرى، السلوك هو كل ما يصدر عن الفرد من استجابات مختلفة خلال المواقف التي يواجهها وتثيره.

هذه المثيرات أو المنبهات منها ما هو خارجي ومنها ما هو داخلي... المنبهات الخارجية إما فيزيائية كالضوء والصوت وتغيرات درجة الحرارة... أو إجتماعية كالتعلم والتنشئة والتربية. أما المثيرات الداخلية فقد تكون فسيولوجية كإنخفاض مستوى السكر في الدم، أو نتيجة إفرازات الغدد الهرمونية أو نفسية كالأفكار والذكريات والتخيلات الذهنية والمعتقدات، والأوهام والحالات الوجدانية، فالتفكير في الطعام قد يثير الجوع. وتصور الخطر قد يحملنا إلى اتخاذ الحذر والحيطة.

وعلى ذلك يشمل السلوك.

١ - كل ما يفعله الإنسان ويقوله.

٢ - كل ما يصدر عنه من نشاط عقلي كالإدراك والتفكير والتخيل.

٣ - كل ما يشعر به من تأثرات وجدانية وانفعالية، كالإحساس باللذة أو الألم، كالشعور بالضيق والإرتياح. بالحزن والفرح. بالخوف والغضب.... مع ما يصاحب ذلك من تغييرات في النشاط الفسيولوجي.

منهجية البحث في علم النفس.

إن علم النفس في تفسيره لمشكلة معينة نظرية أو عملية. يحاول أن يحصرها في صورة أسئلة ثم يحاول الإجابة عليها.

- ما هو التفكير؟ ما هو الذكاء؟ ما أثر الإنفعالات القوية من الخوف أو الغضب في تفكير الفرد وسلوكه الظاهر ووظائف جسمه.

- كيف نتعلم؟ كيف نتذكر؟ كيف نسمع؟

- لماذا ننسى؟ لماذا ننفعل؟ لماذا يتعلم بعض الناس أسرع من البعض؟

أما الأسئلة العملية فمن أمثالها:

- ماأسباب تخلف التلميذ عن مدرسته؟

- ما الذي يجعل بعض الأشخاص مجرمين؟

من هنا نرى أن علم النفس يحاول الإجابة عن ثلاثة أسئلة رئيسية:

١ - ما يصدر عن الفرد من سلوك؟

٢ - كيف يحدث هذا السلوك ويتم؟

٣ - لماذا يحدث هذا السلوك؟

إن علم النفس يسعى إلى الكشف عن المبادىء والقوانين التي تفسر السلوك الإنساني في مراحل نموه المختلفة، كما يهتم أيضاً إلى تحسين العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات كرفع مستوى الإنتاجية للعامل وللجماعة العاملة. وكالمحافظة على الصحة النفسية للفرد والجماعة، وكحل المشكلات المختلفة في ميدان الأسرة والتربية والتعليم.

هدف علم النفس:

إن علم النفس يهتم بكل ما يصدر عن الإنسان وهو يتفاعل مع البيئة والوسط، حركياً، أم عقلياً، أم إنفعالياً، النشاط يصدر عن الإنسان بكليته. فالإنسان حين يكتب لا يكتب بيديه فقط. وحين يأكل لا يأكل بفمه فقط، بل أن هذه الأوجه من

النشاط الجسمي والحركي تصحبها في الوقت نفسه مظاهر من النشاط العقلي كالإنتباه والإدراك.

وتصور الغاية في السلوك وأخرى من النشاط الوجداني كالشعور بالإرتياح أو الحزن أو الألم.

ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان حين يفكر، فإن هذا النشاط العقلي تصحبه في الوقت نفسه تغيرات جسمية وحالات وجدانية مختلفة.

كذلك الإنسان حين يشعر بانفعال الخوف أو القلق أو الحزن أو الغضب، فإن هذه التأثيرات الإنفعالية تصحبها تغيرات جسمية وفسيولوجية. فقد اتضح أن القلق المزمن قد يؤدي إلى أمراض في الجهاز الهضمي (كالقرحة) وأن الكراهية المكبوتة قد تؤدي إلى إرتفاع في ضغط الدم.

إذن ليس هناك نشاط جسمي خاص أو نشاط نفسي خالص. فكل نشاط جسمي يصحبه نشاط نفسي ويرتبط به. وكل نشاط نفسي هو في الوقت نفسه نشاط جسمي.

فالإنسان وحدة جسمية نفسية متكاملة لا تتجزأ.

الغائية في السلوك:

من خصائص السلوك إنه نشاط يصدرعن دافع ويهدف إلى غاية هي إرضاء ذلك الدافع. فالغائية من الخصائص الأساسية التي تميز سلوك الكائنات الحية، وهي التي تجعل سلوك هذه الكائنات يتسم بالمرونة والقابلية للتغير والتنوع والتكيف للظروف المتغيرة.

وقد تكون الغاية من السلوك شعورية واعية وأحياناً تكون الغاية غير واضحة. فالشخص المصاب بمرض الوسواس الذي يغسل يديه مائة مرة في اليوم لا يفطن على تفسير الغاية من سلوكه هذا.

من خلال فهم غاية السلوك نستطيع فهم سلوك الكائن الحي وتفسيره. إن الغاية تقوم بدور هام في فهم السلوك وتوجيهه فضلاً عن تفسيره.

إن غاية السلوك هي إرضاء الدافع وخفض التوتر الناتج عن نشاط الدافع .

السلوك والتكيف مع البيئة :

إن السلوك هو نشاط يقوم به الفرد للتكيف مع البيئة التي يتفاعل معها . والبيئة تكون إما مادية طبيعية جغرافية أو بيولوجية أو إجتماعية ، فالأولى تعني طبيعة المكان الجغرافي الذي يعيش فيه الفرد، البيئة البيولوجية يقصد بها وظائف الأعضاء الفسيولوجية ، أما البيئة الإجتماعية تشمل القيم والمعايير، والبيئة الإقتصادية كالأجر ونوع العمل، والبطالة ومستوى المعيشة ، والبيئة العاطفية أي الجو العاطفي الذي يحيط بالفرد .

يقابل هذه البيئة المادية، بيئة ثانية هي البيئة كما تبدو للفرد، كا يدركها ويتأثر بها فيستجيب لها . يطلق على هذه البيئة السيكولوجية إسم المجال أو الحقل النفسي .

الحقل النفسي أو المجال يتوقف على العمر، الجنس، الخبرة والقدرة والميول. أي يتوقف على الشخصية بأسرها. لذا فالمحيط الواحد يؤلف مجالات قد تكون مختلفة كل الإختلاف بين أشخاص يعيشون في بيئة فيزيائية واحدة، فالبيت الواحد ليس مجالاً واحداً لجميع من به من أخوة وأخوات وذلك لاختلافهم في السن والجنس والذكاء والإهتمامات والخبرة السابقة .

يتضح لنا أن المحيط قد يحتوي أشياء لا يحتويها المجال . . فالطعام لا يثير الشهية في الشبعان، والأم النائمة إلى جوار رضيعها لا يوقظها المطر أو الرعد. لكن حركة طفيفة من رضيعها كفيلة بأن توقظها على الفور. وعكس هذا صحيح ، قد يحتوي المجال على أشياء لا توجد في المحيط، فالألم الذي يشعر به شخص هو ألم يوجد في مجاله لا في محيطه .

المهم ليس ما يحيط بالفرد، بل كيفية إدراك الفرد له وشعوره به وتفسيره له .

السلوك وعملية التكيف :

التكيف على الصعيد البيولوجي هو كل تغير يحدث في بنية الكائن الحي أو وظائفه

يجعله أقدر على الإحتفاظ بحياته. ومن الأمثلة على هذا التكيف البيولوجي دفاع الجسم عن نفسه إن اقتحمه «جسم غريب». وازدياد عدد كريات الدم الحمراء عند من يسكنون قمم الجبال، وقيام بعض مناطق المخ السليمة بوظائف مناطق أخرى أصابها التلف، وقيام الكلية الصحيحة بوظيفة الكلية المريضة. وظاهر من هذا أن التكيف البيولوجي آلي يحدث على غير علم من الفرد أو إرادة منه.

أما التكيف النفسي، هو محاولة الفرد في إحداث نوع من التوازن بينه وبين البيئة المادية والإجتماعية التي ينتمي إليها ويكون ذلك عن طريق الخضوع والإمتثال للبيئة أو التحكم فيها. التكيف هو قدرة الفرد على تغيير سلوكه أو بيئته بما يناسب الظروف والمواقف الجديدة... تكيف (القروي لجو المدينة)، تكيف الطالب لجو الجامعة، (تكيف الطفل مع والدين أصمين البكاء من دون صوت).
إذا نجح الفرد في التكيف لبيئته المادية والإجتماعية قيل إنه «متوافق» وإن أخفق فهو «سيء التوافق».

هناك سوء التوافق الإجتماعي، سوء التوافق المهني والأسري، والتعليمي والديني.

١ ـ دور علم النفس في فهم الإنسان

إن الإنسان هو موضوع كل العلوم، سواء الإنسانية منها أو الطبيعية، فعالم البيولوجيا (الأحياء) يدرس تطور الكائنات الحية بما فيها الإنسان من ناحية الإستعدادت والقدرات العضوية وتفاعلها مع البيئة. كذلك فإن علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) يهتم بدراسة الأعضاء من حيث وظائفها وبناءها وانتظامها في حالة الصحة والمرض. أما الأنتروبولوجيا فإنها تدرس موقع الإنسان في البيئة، وتكيفه معها وما ينتج عن هذا التكيف من جوانب حضارية وثقافية، أما علم الإجتماع فإنه يهتم بالظواهر والمؤسسات الإجتماعية وآثارها على الإنسان، في النهاية العلوم جميعها تدرس جزءاً من الإنسان وموقع الإنسان في البيئة، والهدف بالنتيجة هو زيادة سيطرة الإنسان على بيئته (الطبيعية أو الإجتماعية أو المادية) أو على نفسه وجسمه.

أما علم النفس فيرى أن موضوعه هو فهم الإنسان بجوانبه الجسدية والفكرية والنفسية وتفاعله مع البيئة الإجتماعية ومن المواضيع التي يهتم بها علم النفس هي: كيف يتعلم الإنسان، كيف يفكر، كيف يدرك بيئته، ما هي المتغيرات التي تطرأ على الإنسان عندما يتصرف تبعاً لدوافعه الجسمية، الفكرية والنفسية. ما الذي يطرأ على سلوك الإنسان عندما يتفاعل مع جماعة معينة، كذلك فإن علم النفس يدرس السلوك المنحرف. إن موضوع علم النفس هو السلوك الإنساني، والسلوك هو كل ما يصدر عن الفرد من استجابات للمؤثرات التي تؤثر عليه من الخارج (أي من البيئة) ومن الداخل (أي التغيرات العضوية) هذه الإستجابات تتجسد في مستوى ظاهري حركي كما يحدث في حالة الإنفعال، أو النشاط الحركي، وبعضها يحدث على شكل تغيرات داخلية لا يمكن ملاحظتها وإنما يستدل على وجودها من مظاهر أخرى: كالتذكر والفهم، والتفكير والتخيل، والبعض الآخر من الإستجابات يأخذ تفاعلات إجتماعية، نفور، قبول، رفض، عداوة، سيطرة، خضوع،

إن علم النفس يهتم بشخصية الإنسان، باعتبارها دراسة النظم والعمليات النفسية التي تنظم الخبرات الإنسانية وتشكل أفعال الفرد واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها.

الإتجاهات النظرية لعلماء النفس في تحليل شخصية الإنسان وسلوكه: إن علماء النفس يطرحون عدة نظريات لتفسير السلوك من أهم هذه الإتجاهات:

١ ـ إتجاه يرى أن السلوك الإنساني محكوم من الخارج، أي من البيئة، ويمثل هذا الإتجاه «باڤلوف» و «واطسون» ويطلق على هذا الإتجاه اسم «السلوكية» «Behaviorisme»وغاية هذا الإتجاه هو الكشف عن تأثير البيئة على السلوك[1].

٢ ـ الإتجاه التحليلي النفسي :من أهم رواد هذا الإتجاه، فرويد، آدلر، يونغ.

---

(١) Pierre Naville:« La psychologir du comportement» Gallimard Paris p 12 — 35

يرى أصحاب هذا الإتجاه أن الذي يحكم السلوك الظاهري للفرد هي دوافع لا شعورية وغرائز بدائية. هذه الدوافع اللاشعورية المكبوتة يمكن الكشف عنها من خلال تحليل الأحلام والتداعيات الحرّة والأفعال المغلوطة.[1].

بالرغم من اتفاق علماء التخليل النفسي. أن مصادر السلوك والشخصية هي دوافع لا شعورية، وأن مرحلة الطفولة تلعب دوراً مهماً في تحديد السمات الأساسية للشخصية إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم في تحليل اللاشعور والكشف عنه.

ففرويد يعتبر أن الغريزة الجنسية التي تتعرض للكبت خلال مرحلة الطفولة هي التي تحرك السلوك.

أما آدلر فيعتبر أن محددات السلوك إجتماعية وليست غريزية وتتركز على رغبة الإنسان في توكيد الذات والتفوق. وفشل الإنسان في ذلك يثير لديه إحساساً بالنقص.

أما كارل يونغ فإنه يحاول أن يوفق بين فرويد وآدلر أي أن بعض الأشخاص يتصرفون حسب نظرية فرويد وهؤلاء يتحركون تبعاً لدوافعهم الجنسية والغريزية والبعض الآخر يتصرفون تبعاً لنظرية آدلر. أي أن سلوكهم تحدده القيم والإتجاهات الفكرية والإجتماعية وقد قسم يونغ الناس إلى فئتين: الشخص المنطوي وهو الذي يكون سلوكه موجهاً نحو الذات أما المنبسط فيكون موضوع حبه خارجي، وقد قال يونغ أيضاً أن هناك لا شعوراً جمعياً ولا شعوراً فردياً، وعلى الفرد أن يوافق بين اللاشعورين حتى يحقق لنفسه التكامل الفردي والإجتماعي.

٣ ـ الإتجاه الجشتالتي: هذا الإتجاه يرى أن إدراكنا للأشياء يتم ككل ثم يتميز إلى أجزاء. وقد نظر أصحاب هذا الإتجاه للسلوك ككل وليس كجزئيات أو وحدات مستقلة كما تفعل السلوكية[2].

---

(١) علي زيعور «مذاهب علم النفس» دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠٠ ص ٢١١ ـ ٢٢٠

(٢) Guillaume (P) «psychologie de la forme» Flammarion, Paris 1942

٤ ـ هناك اتجاه يمثله العالم السويسري المشهور «جان بياجيه»[٢]، الذي يرى أن علم النفس عليه أن يهتم بالعمليات المعرفية وهي جوانب لا تخضع للملاحظة المباشرة، ولكنها تلعب دوراً واضحاً في توجيه السلوك والشخصية، ويعارض هذا الإتجاه المعرفي الإتجاه السلوكي الذي يهتم بما يمكن ملاحظته مباشرة، يركز هذا الإتجاه السلوكي الذي يهتم بما يمكن ملاحظته مباشرة، يركز هذا الإتجاه على التفكير ، الذكاء ، الوعي ، القيم . حيث يرى بياجية أن تأثير البيئة على الإنسان محكوم بمدى وعيه بها، وهو وعي يمر بمراحل إرتقائية مختلفة. إن إدراك الشخص للبيئة يختلف باختلاف المراحل التي يمر بها الفرد خلال نموه ونضوجه.

٥ ـ وأخيراً وليس بآخر، هناك أيضاً الإتجاه الإنساني ويمثل هذا الإتجاه «الإنساني» «إبراهام ماسلو» يرى أصحاب هذا الإتجاه أن الإنسان مدفوع بطبيعته لفعل الخير. وإنه ينطوي على دافع رئيسي للنمو والإرتقاء والإبداع وتحقيق الذات. يرى علماء الإتجاه الإنساني أن وظيفة عالم النفس هي أن يساعد البشر على أن يكشف كل منهم إمكانياته الحقيقية وإعانته على تحقيقها من خلال التوجيه والإرشاد.

بعض الطروحات النظرية والتطبيقية لفهم شخصية الطفل.

لكي نفهم التطور الذي يطرأ على سلوك الطفل ويؤثر على نمو شخصيته علينا أن نفهم الجوانب الجسمية والفكرية والإنفعالية والإجتماعية عبر مراحل النمو المختلفة التي يمر بها الطفل.

سوف ندرس الجوانب المختلفة لنمو شخصية الطفل من خلال مدرسة التحليل النفسي، المدرسة الفيزيولوجية، الإتجاه المعرفي، والمدرسة الإجتماعية ـ الثقافية.

---

(١) Piaget (J), «Les mecanismes perceptifs» P.U.F, Paris 1961

٢ ـ التحليل النفسي ودوره في فهم شخصية الطفل

إن التحليل النفسي تفسر الظواهر والدوافع اللاواعية التي تنظم الحياة النفسية، ويسمح لنا بفهم تطور الإنسان في صراعه مع محيطه الداخلي والخارجي. وقد أشار فرويد أن الحياة النفسية تخضع لدافع أساسي هو الغريزة الجنسية التي تحركها طاقة اللبيدو والسلوك الإنساني يسعى إلى إشباع الغرائز مباشرة (مبدأ اللذة) وإمكانية إشباع الغريزة الجنسية تصطدم بالظروف والقيم التي يفرضها العالم الخارجي (مبدأ الواقع).

إن تفسير السلوك يتم من خلال العلاقة القائمة بين الدوافع الغريزية والقيم الإجتماعية وما ينتج عن هذا الصراع من جوانب لا واعية الناتجة عن الكبت[١].

إن فرويد في كتابه «Les troubles psychiques de l'enfant» يعتبر أن السلوك لا يتأثر فقط بالعوامل العضوية ولكنه يتأثر أيضاً بالجوانب العائلية والظروف الإجتماعية والتربوية. فالولد المنحرف حسب فرويد، ليس كائناً لا أخلاقياً ولكنه ضحية سوء التطور العاطفي والعقلي، لأن عدم التكيف العائلي أو المدرسي للولد يساهم في بروز الدوافع العدوانية، والهوامات النفسية، والتبول الليلي.

إن العصاب النفسي جسب فرويد ينتج عن استدخال «Introjection» دوافع مكبوتة بواسطة الأنا الأعلى، إن الإضطراب العصابي يرتبط بالدور الذي يلعبه الأهل في هوامات الولد النفسية وصراعاته الداخلية[٢].

إن التحليل النفسي قد ساهم في تطور وتكوين النظريات التربوية من خلال العلاج النفسي، إن هدف العيادات الطبية ـ النفسانية تهدف إلى جعل الولد يتكيف

---

(١) فرويد ترجمة إسحق رمزي «مقدمة في التحليل النفسي» دار المعارف بمصر ١٩٧٠

(٢) حسب فرويد إن من يفاجأ بحدث داهم خطير يفقد معه السيطرة على الموقف يغدو ضحية لعصاب الصدمة «Névrose traumatique»وذلك لإن الصدمة تولد كميات من التوتر تتصرف في صورة أعراض مرضية أهمها تعطيل وظائف الأنا المختلفة أو ضعفها.

راجع: فرويد «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية» ترجمة سامي علي دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ص ١٨٥ ـ ١٨٦

بشكل أفضل مع محيطه الإجتماعي ـ العائلي، وذلك من خلال التركيز على العلاقات العاطفية للولد. لقد أقام الطب العقلي في القرن التاسع عشر مقارنة جوهرية بين الأمراض النفسية ذات الأصل العضوي الجسمي والإضطرابات العقلية التي تنتج عن خلل عضوي والتي كانت تعتبر كنتيجة لثغرة عقلية موروثة أو فطرية(١).

إن عيادات العلاج النفسي تعتبر أن التربية الجنسية للأطفال تساهم في تماسك البناء النفسي والمناعة لدى بلوغ الطفل مرحلة المراهقة.

إن التحليل لنفسي يدعو إلى تزويد الأطفال بالتربية الجنسية التي تتلاءم مع نموهم وارتقائهم الجسدي والنفسي والفكري.

التحليل النفسي ينظر إلى التربية الجنسية كعامل أساسي في حماية الطفل وحفظه من عوامل الكبت والعوائق التي تعيق وتكبح النمو الطبيعي للشخصية(٢).

إن العلاج النفسي حسب التحليل النفسي ينطلق من المركبات الجنسية الطفولية المكبوتة لتفسير الاضطرابات النفسية، إن تحرير الطفل من الكبت يتم من خلال كشف أسرار اللغز الجنسي وما يحيط بهذا الطلسم من الزيف والكذب والرياء. إن تثقيف الطفل بالمعرفة والتربية الجنسية بما يتلاءم مع فضوله الجنسي خلال نموه النفسي والجسدي والفكري يساهم في حلّ المشكلة الجنسية لديه. إن رغبات الطفل وأفكاره ومشاعره تنمو نمواً متوازياً ومتناغماً بقدر ما نبعد الطفل عن الكبت وما ينتج عنه من معاناة وآلام(٣).

٣ ـ نظرية الإنماط والحتميات النفسية

لقد نادى أبقراط في القرن الخامس قبل الميلاد بأن الجسم يحتوي على

---

(١) ميشال فوكور تاريخ الجنون.

Michel Foucault «Histoire de la folie» Grallimard 1972

(٢) Hanry Pierre. L'information —´education sexuelle, Paris Armand Colin 1974

(٣) فرويد، ترجمة مصطفى زيعور حياتي والتحليل النفسي دار المعارف بمصر ١٩٧٢

سوائل أو أخلاط أربعة هي : الصفراء والسوداء والبلغم والدم، ذهب أبقراط إلى أن الشخصية تتوقف على أي من هذه الأخلاط يكون له السيادة في الشخص، وعلى ذلك فالصفراء صاحبت الشخص ذي المزاج السريع الغضب، والسوداء صاحب الشخص القلق، والبلغم صاحب الشخص الكسول «المتلبد» بينما صاحب الدم الشخص المرح النشيط[1].

كذلك تعتبر نظرية يونغ (١٩٣٣) من النظريات الواسعة الانتشار في أنماط الشخصية، وتتضمن الشخص المنبسط وهو الذي يتجه أساساً نحو الآخرين والعالم الخارجي، والمنطوي وهو الذي يكون أكثر إهتماماً بنفسه وبعالمه الذاتي. والإنبساط والإنطواء «Extrovertit, introvertit» يعبر عنهما بعديد من الوظائف هي التفكير والوجدان والحس والحدس.

وتبرز فئات الإنماط عند فرويد من خلال نظريته في النمو النفسي الجنسي، حسب هذه النظرية يمر الفرد بمراحل ثلاث نفسية ـ جنسية ـ طفلية تتميز تبعاً للوسائل الأولية للإشباع الجنسي المميز لكل مرحلة فيها.

ففي المرحلة الفمية، يتركز النشاط الجنسي حول الشفاه والفم، بينما يتركز في المرحلة الشرجية حول استثارة الشرج، على حين يكون التركيز في المرحلة القضيبية على الأعضاء التناسلية. وفي مجرى هذا النمو النفسي الجنسي يفشل بعض الأفراد في التقدم بصورة سوية نحو المرحلة التالية. ورغم بلوغ سن الرشد فإن الصراعات النفسية الجنسية الأولية غير الناضجة تظل مستمرة.

ولقد حدّد فرويد ثلاث أنماط من الشخصية، تقوم على تثبيت الطاقة النفسية الجنسية أو طاقة اللبيذو عند مرحلة معينة من مراحل النمو.

فالنمط الفمي يتميز بالاتجاهات السلبية والاتكالية تجاه الأخرين، والتي يواصل فيها الفرد البحث عن السند لدى الآخرين. ونتيجة لحدوث التثبيت

---

(١) إسماعيل محمد عماد الدين: «المنهج العلمي وتفسير السلوك» دار النهضة القاهرة ١٩٦٢ ص ٩٤

الليبدوي « Fixation libidinale »[1] خلال المرحلة الفمية، يكون النمط الفمي، إما متفائلاً، غير ناضج، يثق بالآخرين، أو يكون متشائماً، شكاكاً. والنمط الشرجي يتميز أيضاً بسمتين فرعيتين. السمة الأولى تتميز بانفجار العدوان والقذارة والمشاكسة. بينما تتميز الثانية بالعناد، والنظام وشدة البخل. أما النمط القضيبي فيتميز بعدم نضج المراهقة مع صراعات جنسية مع الجنس الآخر تصدر عن عقدة أوديب التي لم تحل.

٤ ـ نظرية الوراثة والاستعدادات الفطرية

تعرف الوراثة بأنها الانتقال التكويني لبعض سمات الأهل. الانتقال الوراثي للخصائص الجسدية، والفكرية أو النفسية يحدد نموذجاً معيناً يمكن لمظهره الخارجي أن يتغير (لون البشرة) ولكنه يخضع دائماً للانتقال الصبغي « Chromosomique »، إن تحديد السمات الوراثية المؤثرة في الشخصية أمر صعب التحديد، لذلك فقد فضل البعض دراسة عناصر الاستعدادات الفطرية والعضوية (الجبلة) وتأثيرها على نمو الشخصية[2].

إن العوامل الفطرية التي يتسلح بها الطفل عند ولادته تشمل العوامل الوراثية والعوامل المكتسبة خلال الحياة داخل الرحم. إن وضعية الجنين العائدة للوسط الرحمي الأمي تتأثر بالناحية الفيزيولوجية والجسمية والنفسانية للأم خلال مرحلة الحمل.

إن ما يحدث في رحم الأم خلال فترة الحمل له نتائج هامة على صحة الطفل العامة عند الولادة، فضلاً عن حالة الأم الصحية أثناء الحمل، إن إصابة الأم أثناء الحمل ببعض الأمراض الجسمية يؤثر على الطفل فيما بعد. مثلاً إصابة

---

(١) تثبت لبدى: إن التثبيت الليبدوي يعرض الفرد للإصابة بالمرض النفسي أو العقلي. ويختلف نوع المرض باختلاف المرحلة التي توقف عندها النمو النفسي والجنسي أي باختلاف نقط التثبت الليبدوي.

راجع فرويد، الموجز في التحليل النفسي، مرجع سابق ص ٩٠

(٢) راجع: حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو دار العودة ١٩٨٠

الأم بالحمى الألمانية من شأنه أن يؤدي أحياناً إلى تخلف الطفل العقلي أو العمى أو الصم. لذلك من المعتقد أن ميل بعض الأطفال بعد الولادة إلى الإكثار من الحركات العشوائية والصياح المستمر دون سبب ربما يكون مرتبطاً بحالات التوتر والتعصيب اللذين تعاني منهما بعض الأمهات أثناء فترة الحمل. إن بروز وظائف فطرية خلال النمو الجنيني تجد امتداداً لها بعد الولادة، لذلك نلاحظ أن الطفل ينتقل من عالم الرحم إلى العالم الخارجي بمجموعة من الإستعدادات الحسية والعصبية التي تساعد على إستمرارية بقائه. فمنذ الساعات الأولى تصدر عن الطفل جوانب من السلوك التلقائي منها مص الثدي أو الأشياء المماثلة إذا ما وضعت بالقرب من فمه.

إن السلوك الذي يصدر عن الطفل عند مص الثدي ليس بالبساطة التي يتصورها البعض، فهو عملية مركبة تتضمن التآزر بين استخدام الشفتين في حركات سريعة، والبلع بشكل متناسق مع حركات الشفتين ثم التنفس. إن استجابة الطفل للثدي لا تعتبر مجرد استجابة سلبية ميكانيكية. فقد تبين أن حركات الفم تتسارع ويتزايد النشاط في الجسم كله عندما تكون السوائل المعطاة حلوة المذاق. إن البعض يعتبر أن هذه التصرفات لا يمكن أن تظهر إلا عندما يبلغ التنظيم الفيزيولوجي والعصبي وتكامل قشرة الدماغ مستوى معيناً من النضج. فإن إكتساب المشي مثلاً الذي يبدأ حوالي الشهر الخامس عشر لا يمكن أن يتم قبل تغلف الأعصاب والتطور الحسي الحركي المؤدي للمشي. إن تعلم المشي لا فائدة منه قبل هذه الفترة. إن الوظيفة العائدة للتكيف العضوي تحتاج لكي تتحقق إلى الوسط الذي يحث الطفل على إكتساب المهارات والخبرات [1].

٥ ـ الإستعدادات العضوية وعوامل الوسط

إن الدور الذي يلعبه البلوغ في تكوين الشخصية ليس له تأثير إلا تبعاً للمحيط، إن مقابلة الطبيعة والوراثة كانت حقلاً لأبحاث متعددة.

---

(١) عاقل فاخر علم النفس دار العلم للملايين ١٩٦٦ الجزء الثاني

إن عائلة ماكس جوكس التي أجرى لها دوغدال عام ١٨٧٧ بحثاً مطولاً حيث أن غالبية أفراد هذه العائلة يعانون من الإدمان على المشروبات الكحولية وحياة التشرد والتسول، وقد أجرى ايستا بروك عـام ١٩١٦ بحثاً عن نفس العـائلة في انكلترة فلاحظ أن حوالي ٣٠٠ يتعاطون الدعارة. و٦٠٠ متخلفون عقلياً، و١٤٠ مجرماً، و٣١٠ متسولين. إن هذه الدراسات تبدو للوهلة الأولى إنها نـاتجة عن عوامل وراثية ولكنها في الواقع حجة ذات قيمة لصالح تأثير الوسط.

لقد بينت الدراسات أن الأولاد الآتين من أمهات متخلفات عقلياً ويعيشون مع عائلات طبيعية فإنهم يصلون إلى مستويات من الذكاء المتوسط. بينما الأولاد الذين يعيشون مع أهل متخلفين هناك إحتمال كبير لإن يصبحوا متخلفين بدورهم. إن الدراسات المتعلقة بالتوائم تعطينا مؤشرات قيمة لتأثير الوراثة والمحيط. لقد قام نيومان وفريمان (١٩٣٧) بتفحص تطور الذكاء لدى التوائم من نفس البويضة الذين يتربون إما سوية وإما منفصلين. فإذا كانوا في نفس الوسط العائلي يبـدو التوائم من نفس البويضة متشابهين كثيراً، بينما التوائم من بويضـات مختلفة لا يتشابهون إلا مشابهة الأخوة فيما بينهم. كذلك لقد تمت البرهنة أن التوائم من نفس البويضة والذين يربون منفصلين تظهر بينهم فوارق من الممكن أن تكـون عائدة للظروف الإجتماعية والتربوية المختلفة.

الباب الأول:

التحليل النفسي لشخصية الطفل



الفصل الأول

النمو النفسي للطفل

١ - فرويد والنمو النفسي - الجنسي

يعتبر فرويد أن موضوع الحب الأول للولد هو أمه، أو أي شخص آخر يقوم بهذا الدور، وإنه يسعى على الإستحواذ الكامل لحب الأم. ولكن هذا التملك يحبطه الوجود المنافس للأب. وتكون الإستجابة الطبيعية للولد في مثل هذا الموقف هو تنمية مشاعر العدوان اتجاه الأب. ولكن الولد يدرك من واقع الأمر أن الأب أكثر منه قوة، وإنه يمكنه بالمثل أن يقابل رغبات الطفل العدوانية بعدوان آخر من جانبه. وقد عبر فرويد عن هذا الإنتقام الذي يخشاه الطفل من جانب الأب باسم الخصاء «Castration»يقول فرويد: «إن عقدة الخصاء تدل على الخوف اللاشعوري من فقدان الأعضاء التناسلية أو ما يقابلها من الأعضاء، عقاباً على إتيان الفرد بعض الأفعال الجنسية المحرمة أو شعوره ببعض الدوافع الجنسية تجاه موضوع محرم. فالخوف من الخصاء ينشأ نتيجة لوجود الموقف الأوديبي».

يقول فرويد: «يرى التحليل النفسي في التوحد أول تعبير عن رابطة إنفعالية بشخص آخر. وهو يقوم بدور في التاريخ المبكر لعقدة أوديب فالصبي يبدي إهتماماً خاصاً بوالده، فهو يود أن يكبر مثله وأن يصبح مثله ويحل محله في كل مكانه. ويمكننا أن نقول ببساطة إنه يتخذ من والده مثلاً أعلى».

وفي نفس الزمن الذي يحدث فيه التوحد بالوالد أو بعده بقليل،يبدي الصبي اهتماماً حقيقياً بأمه، فهو يكشف إذ ذاك عن رابطتين مستقلتين من الناحية النفسية. إستثمار موضوعي جنسي صريح اتجاه أمه وتوحد أمثل بوالده. وهاتان الرابطتان

تلتقيان في النهاية نتيجة لتقدم الحياة النفسية نحو الوحدة تقدماً لا يقهر، وينشاء عن هذا الإلتقاء عقدة أوديب السوية. فالصبي يلحظ أن والده يقف في طريقه إلى أمه. وإذ ذاك يصطبغ توحده بوالده بصبغة عدوانية فيصبح مماثلاً للحلول محل الأب اتجاه الأم أيضاً. والواقع أن التوحد (ثنائي الميول Ambivalence) منذ البداية فهو قد يصبح تعبيراً عن الحب بنفس السهولة التي يتحول بها إلى الرغبة في إقصاء الآخر[1].

أما البنت فإنها تفتقر بالفعل إلى القضيب، وهي حقيقة تجعل الولد يعتقد أن ذلك هو نتيجة عقاب لها عن عدوان لآثام مماثلة. وعلى أي حال، فإن الولد يمر بخبره (قلق الخصاء) بما بتناسب وقوة دافعه الجنسي نحو الأم ودرجة العدوان المصاحبة له ناحية الأب.

أما مشكلة البنت والتي يشار إليها (بعقدة إلكترا). فهي تبدأ كما هو الحال عند الولد بالإرتباط بالأم في الطفولة المبكرة، . ولكن هذا الإرتباط يجب أن ينتقل بعد ذلك إلى الأب عندما يصبح الأب موضوع حب البنت فإنها تواجه بمنافسة من الأم على نحو مماثل لحالة الولد وأبيه. ثم هي تدرك أيضاً عدم وجود القضيب لديها، وتحسد الولد على إمتلاكه له، وتلوم إمها على فقدانها له.

خلال الفترة الممتدة من حوالى سن السادسة حتى المراهقة، فالذي يحدث هو إنه كحل للتوتر غير المحتمل الناتج عن خطر الإخصاء عند الولد (أو نتيجة لسابق حدوثه عند الفتاة). فالطفل يدخل خلال هذه الفترة فيما نسميه بأسم فترة الكمون والتي يكبت فيها الولد أو تكبت البنت المشاعر الجنسية تجاه الوالد من الجنس الآخر. ويعتقد فرويد إنه خلال هذه الفترة بالذات يتكون الأنا الأعلى خلال عملية (التوحد مع المعتدي) حيث يمتص الطفل القيم الخلقية والسلوكية للوالد من نفس الجنس.

ويعتبر فرويد أن التوحد «Idenlification»هو من المفاهيم الأساسية في

---

(١) راجع: فرويد «الموجز في التحليل النفسي مرجع سابق ص ١٠٠ ـ ١٠١

تفسير التحليل النفسي لنشأة الشخصية وتكونها. ويجب أن نميز بين المحاكاة «Imitation» والتوحد. فالمحاكاة عملية شعورية قصدية يضع بها الفرد نفسه مكان الآخر وضعاً مؤقتاً فيأتي بأفعاله ويردد أقواله دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهري في شخصيته. وعلى العكس فإن التوحد عملية لا شعورية يكتسب بها الشخص خصائص شخص آخر تربطه به روابط إنفعالية قوية. إن تشبه الطفل بالأب والبنت بالأم خلال عملية التوحد تجعل الولد يكسب رضا الأب وموافقته وبذلك لا يصبح مصدر خوف وقلق بالنسبة له. ويتم في النهاية حلٌّ هاتين العقدتين (عقدة الخصاء وعقدة الكترا) عن طريق التخلي عن الوالد من الجنس الآخر لموضوع حب جنسي، واختيار شريك للجنس من خارج الأسرة المباشرة وبذلك ينتقل الولد والبنت إلى المرحلة التناسلية الناضجة من مراحل النمو النفسي ـ الجنسي. أما العصابي وحده فهو الذي يظل ملتصقاً بمستوى قبل تناسلي، فمياً كان أم شرجياً أم قضيباً.

لقد نظر فرويد إلى مراحل النمو النفسي الجنسي باعتبارها إنعكاسات لقانون بيولوجي عام. ولكنه أعطى قليلاً من الإهتمام للطريقة التي قد تسهم بها الثقافة في كل مرحلة. فثمة إحتمال، مثلاً أن عقدة أوديب يمكن فهمها بصورة أحسن إذا نظر إليها في ضوء العلاقات الإجتماعية داخل الأسرة بدلاً من النظر إليها في ضوء مصطلحات جنسية.

فالطفل قد يخاف من الأب، ليس بسبب إنه يتوقع منه الخصاء أو بسبب الحوافز الجنسية نحو الأم. ولكن بسبب أن الأب يمثل قوى الضبط والتحكم داخل الأسرة، وبالمثل قد تحسد الفتاة الولد، لا بسبب امتلاكه قضيباً، ولكن بسبب أن الفتيات في معظم المجتمعات يخضعن للولد، فالقضيب قد يرمز فقط للقوة الإجتماعية الذكرية للطفل، وليس لكونه عضو الحب.

٢ ـ أريكسون والنمو النفسي للطفل:

يرى أريكسون أن التطور النفسي الإجتماعي يبدأ مبكراً في حياة الطفل.

ويأخذ في البداية شكل الصراع بين الثقة وعدم الثقة في العالم. فإشباع حاجات الطفل الرئيسية في هذه المرحلة بما في ذلك حاجته للأمن والراحة والغذاء يؤدي إلى انبثاق مشاعر الثقة بالعالم والبيئة. على أنه من الممكن أن تتكون مشاعر نفسية مضادة قائمة على الخوف والشك وعدم اليقين في العالم إن كانت إحتياجات الطفل في هذه المرحلة تواجه دائماً بالإحباط والتهديد والكف[1].

٣ ـ ميلاني كلاين والنمو النفسي للطفل:

تعتبر ميلاني كلاين أن ميول الطفل للمعرفة والتي تتعلق بالدوافع الجنسية تتشكل من خلال الفضول الجنسي للولد والتي تكوّن لديه الرغبة في المعرفة. هذا الفضول الجنسي يتحول فيما بعد إلى رغبة في التعلم واكتساب المعرفة، إن الكبت للميول الجنسية والفضول الجنسي عند الولد بسبب الممنوعات التي يفرضها الأهل. تؤدي إلى نشؤ الأزمات النفسية عند الولد مما يعيق عملية التربية وانكفاء الولد عن التعلم (٢).

٤ ـ دور الأبعاد التربوية في النمو النفسي الجنسي.

إن القدرة الفكرية عند الولد تزداد بقدر ما نعتمد على الصراحة في تربية الأولاد، الصدق في الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الولد لها تأثير عميق على نموه النفسي والفكري، إنها تحمي الفكر من الميل للكبت حيث يعتبر الخطر الحقيقي الذي يهدر الطاقة الفكرية، وتحميه أيضاً من العقد المكبوتة.

يعتبر فرنتزي «Ferentzi»أن الميول التي تكبت تحت ضغط التربية والتنشئة تؤدي إلى الألم في وعي الفرد، مما ينتج عنه التفكك في بنية التفكير وشرذمة الحس العلمي.

إن التبعية والضعف الفكري تنتج حسب فرويد عن الخضوع الدائم

Erikson, E.H. «Childhood and Society» N.Y. Norton 1963

(٢) Klein, Mélanie, L'Analyse des jeunes enfants

محاضرة ألقيت أمام الجمعية العامة للتحليل النفسي في برلين، مارس ١٩٢٢

للسلطة، وهي تنبع بالأساس من العلاقات القائمة بين الأهل والولد الصغير. هذه التبعية والخضوع تتركز من خلال المعايير الإجتماعية والقيم الموجهة إلى الطفل، والتي تؤدي بدورها إلى إعاقة حرية التفكير عند الطفل.

إن الإيمان بالأفكار المجردة والأشياء غير المنظورة والمعرفة الشاملة للوجود، تشكل حسب فرويد توتراً وإرهاقاً لفكر الطفل، حسب فرويد الغاية من ذلك هو حاجة الطفل الفطرية للخضوع للسلطة، إن الإنسان يجد في فكرة الإيمان غذاءً لحاجته من الخضوع للسلطة. إن الإحساس الفطري بالقوة والإعتقاد بقوة الفكر، هي حسب فرويد تشكل القاعدة الأساسية لجعل الطفل يتقبل فكرة وجود الله.[1]

إن العصاب النفسي يعود في أساسه إلى أسباب مرضية للطفولة. إن الصدمة النفسية تعود إلى حوادث طفولية مبكرة أي قبل عمر ٦ سنوات. إن الطفل منذ ولادته عنده مجموعة من الدوافع والإستعدادات الفطرية، غاية التربية وهدفها جعل الولد يعي هذه الدوافع والتسامي بها. هدف التربية هو جعل الطفل يشعر بالعاطفة اللازمة التي تجعله يعبّر عن رغباته ودوافعه بحرية.

إن تعرض الطفل للقصاص الجسدي والتهديد خلال مرحلة التربية تجعله يرفض الأساليب المتبعة ضده بوعي أو بدون وعي.

خلال هذه الفترة (٤ ـ ٦ سنوات) يمر الطفل بمرحلة حيث تبرز لديه الرغبة في طرح الأسئلة للتسلية ولا يقصد من طرحها أن يتلقى جواباً علمياً ويبدو وكأنه غير مهتم بالجواب، كمية الأسئلة تبدو هائلة، وهذا ما يزعج الأهل خصوصاً أن غالبية الأسئلة تخلو ظاهرياً من أي معنى. هذه الفترة تدوم حوالي الشهرين حيث تتميز بطرح الأسئلة السطحية والتي يغلب عليها طابع التكرار.

لا بد من الإشارة أن هذه المرحلة تأتي بعد مرحلة تكون فيها الأسئلة من النمط الذي يتميز بعمق التفكير والحس العلمي. حيث إنه يطرح أسئلة تتعلق بنمو

---

(١) Freud, Cinq lecons sur la psychanalyse», Paris P.U.F 1966

الجنين داخل جسم الأم، كيف تتم الولادة، كيف يتكون الرأس، الأطراف، البطن، كيف يتكون الجلد على سطح الجسم؟

أما نمط الأسئلة الذي نلاحظه بعد هذه الفترة والتي كما أسلفنا تطرح بهدف التسلية ودون تفكير مثلاً:

من يصنع الباب؟ مما يصنع السرير؟ كيف نصنع الخشب؟ كيف تنمو الغابات؟ كيف نصنع الزجاج؟ كيف نصنع الكرسي؟ بعض الأسئلة تكون خالية من أي معنى: هل تأتي الحجارة من حيث تأتي المياه؟

خلال هذه الفترة نلاحظ أن الطفل يميل إلى الهدوء والصمت، ويبدو لديه اشمئزازاً من اللعب. ولكن لديه ميلاً قوياً إلى الألعاب التي يغلب فيها طابع الحركة والتي يتفاعل فيها مع أولاد آخرين. الألعاب المفضلة لديه: سائق سيارة، لعبة القطار، يلهو لعدة ساعات بواسطة علبة، قلم وورقة، مجلة، مقعد، كرسي...

خلال هذه الفترة نلاحظ أن الطفل يشعر بالضجر خلال وجوده مع أمه في البيت. حتى القصص التي كانت ترويها له لم تعد تثير لديه إهتماماً مثل ذي قبل.

على الصعيد الصحي والنوم، نلاحظ أن حالة الطفل جيّدة خلال هذه الفترة، أما شهيته للطعام تتغير، يتناول الطعام بصعوبة. الطعام الذي يرغب فيه يتناوله بشهية. نلاحظ أحياناً تغييرات في حركات الطفل وسلوكه وإنفعاله، يصعب علينا غالباً إيجاد التفسير لها ونعتبرها أشياء عابرة وعادية.

ما يثير الدهشة خلال هذه الفترة هو نفور الطفل من سماع القصص التي كان

إن الطفل في عمر أربع سنوات وما فوق يسأل عدة أسئلة حول الولادة:

D'ou vient le bebe?
A quoi sert un papa?
A quoi sert une maman?

يحاول من خلال هذه الأسئلة أن يوجد علاقة بين ولادة طفل وبعض الهوامات الخيالية للعلاقة بين الأب والأم.

يرغب في سماعها سابقاً، إن التوقف عن طرح الأسئلة وسماع القصص هي من سمات المرحلة التي تسمى «مرحلة الكمون» حيث أن الطفل يمر بمرحلة الكبت، ونراه يميل غالباً إلى الإصغاء لإن ذلك يريحه من طرح الأسئلة.

إن الكبت له تأثير سيء على الذكاء والتفكير، لإن الطاقة الدافعة تبدو مكبوتة، العقد والحاجات المكبوتة تطفو على سطح اللاواعي.

إن الفضول الجنسي خلال «مرحلة الكمون» يجعله يطرح أسئلة أكثر عمقاً، يعود إلى طرح الأسئلة السابقة بشكل جديد، حيث نراه يتعمق في أسلوب طرحها وعرضها. إن التوقف عن طرح الأسئلة والإصغاء وعدم الإهتمام بالقصص تدل على دخول الطفل في مرحلة جديدة تتميز بالذكاء والتفكير.

إن كبت الفضول الجنسي عند الطفل هو من الأسباب الرئيسية لتغيير نمط أسلوب التفكير. إن التحليل النفسي يشير أنه علينا الإهتمام بالأسئلة الواعية والأسئلة التي تنطلق من الطفل بشكل غير واعي والإهتمام بالأحلام الطفولية، زلات اللسان، والأفعال المغلوطة والناقصة.

خلال هذه المرحلة يصبح الولد في وضع يسمح له في فهم المعلومات التي كبتت عنه في مرحلة سابقة وخبئت عنه. مثلاً خلال هذه الفترة يلاحظ الولد أن النباتات تنتج في غالبيتها من غرس البذار، هنا تبدو الفرصة سانحة لنشرح له أن الكائن الحي ينتج أيضاً عن بذار ونشرح له مفهوم التلقيح بما يتناسب مع نموه الفكري والنفسي والجسدي.

الولد يسأل أحياناً: هل من الضروري لكي تبيض الدجاجة أن يكون معها ديك؟ في هذه المرحلة نرى أن الطفل ينطلق من نكتة أو إشارة عابرة حتى يبدأ بسرد قصة خيالية، وغالباً ما تكون نقطة الإنطلاق من القصص التي سبق وسردت له. وغالباً ما يقلد الكبار في أسلوب السرد من حيث البداية والمفاجأة والنهاية.

بعد هذه المرحلة تبدأ مرحلة اللعب. اللعب مع الرفاق، الأخوة والأخوات، نراه يحب الألعاب التي يغلب عليها الطابع الخيالي، أحياناً يرغب باللعب لوحده،

الألعاب تأخذ الطابع الإنساني: رجال، نساء، جنود، ملك، العلاقات بين الأشخاص تتميز بالطابع المنطقي. اللص الذي يسرق يوضع في السجن، الألعاب تتميز بالعلاقات التي يشعر بها في الحياة اليومية، هناك الطيب، السيء، الحسن، القبيح، الخير، الشر، الألعاب غالباً ما تعكس عدوانية اتجاه الشخص الذي يمثل دور الأب، والعاطفة تجاه الأم، نراه يشعر بسعادة خلال اللعب عدة ساعات مع جماعة الرفاق دون ملل وتعب، يشعر بلذة كبيرة في إكتساب المعرفة وتعلم القراءة والكتابة والرسم والتلوين، يبدو وكأن لديه عطشاً لإكتساب القراءة.

خلال هذه الفترة من العمر (٤ ـ ٦ سنوات) يهتم الطفل كثيراً بالأمور التي تتعلق بموضوع الولادة، كيف يتغذى الطفل داخل الأم، كيف ومن أين يخرج الطفل؟ والسؤال الذي يلح عليه هو كيف يدخل الطفل جسم الأم وكيف يخرج؟

إبراهام في محاضرته حول «تفسير عقدة الخصي عند المرأة» يبين أن أساس تكوين المفاهيم الجنسية يعود إلى الدور الذي يلعبه الأهل في التمييز بين الجنسين على أساس جنسي.

الحلم عند الطفل في هذه الفترة يكشف رغبات عدوانية مكبوتة غير واعية، قصص الرعب الخيالية تثير لديه خوفاً في اللاوعي وتظهر في الأحلام بشكل كابوس، إن اللبيدو هنا يستثمر في غير محله فبدلاً أن يكون طاقة لتحقيق اللذة والسعادة يصبح دافعاً للقلق والكابوس.

صور الحلم تتضمن: لصوص، ضباط، جنود، قتلة، مساجين، حيوانات. مما يجعله يصحو من حلمه مذعوراً. الصور التي يراها الطفل في المسلسلات التلفزيونية، على غلاف الجرائد والمجلات، الصور لشخص وتبدو آثار الدماء تسيل على وجهه تثير لدى الطفل شعوراً بالخوف والرعب، إن الصور التي يراها الطفل في الكتب والمجلات تنتقل رموزها إلى الحلم وتصبح جزءاً من مضمون خياله وأحلامه.

إن التحليل النفسي يعتبر أن التفسير العلمي لحلم الولد المزعج يجعله يشعر

بالراحة، . ويخفف من القلق الذي يسببه مضمون الحلم. غالباً ما نرى الولد يظل خلال ساعات النهار أسيراً لأوهام الحلم. إن التفسير العلمي يخفف من التوترات الناتجة عن الأحلام المزعجة.

إن حرية التعبير لدى الطفل عن الأسئلة التي يرغب في طرحها، الأحلام، الخيال، حرية اللعب، تمثل لديه آليات دفاعية تخفف من الكبت الذي يعاني منه نتيجة كبح الرغبات.

إن العقد النفسية والكبت عند الطفل تبدأ في التكوين مع بداية مرحلة النطق. إن الجانب اللاواعي من شخصية الطفل خلال هذه الفترة يمكن كشف بعض جوانبه من خلال النشاطات الفنية (رسم، تلوين) والثقافية (اللعب، قراءة، كتابة). إن مساعدة الطفل على التحرر من العوائق والكوابح التي تعيق نموه النفسي والفكري يجعله يتخلص من الهوامات اللاواعية التي تثيرها لديه بعض الأطعمة، الأشخاص، الحيوانات، الحشرات، إن بعض المحللين النفسانيين يؤكد أن العصاب عند الفرد في مرحلة البلوغ يعود في الأساس إلى العصاب في مرحلة الطفولة.

إن الطفل في عمر خمس سنوات. لم تعد علاقته بالبيئة تنحصر بالغذاء والإخراج أو التقبل السلبي للطعام. إن العالم الخارجي يتسع نطاقه ومعه تتسع دائرة العلاقات الإجتماعية، ومن أهم جوانب التطور في هذه المرحلة هو أسلوبه في اللعب. فالميزة الأساسية لألعاب الأطفال في هذه المرحلة هي محاكاة الكبار، فنرى الطفل يمثل دور الأب أو شخص بالغ، بينما تمثل البنت دور الأم أو دور العروس. نلاحظ أيضاً في هذه المرحلة أن غالبية النشاطات التي يقوم بها الأطفال يغلب عليها طابع اللعب. إرتداؤه للملابس، ذهابه للنوم، حتى الذهاب للحمام وقضاء الحاجات، كل هذه الأنشطة تتحول إلى لعبة مما تسبب أحياناً إنزعاجاً للأهل ولكنها تبعث السرور في نفسية الطفل [1].

---

(١) غالباً ما يطلب من أخته الصغيرة أن تقوم ببعض الحماقات، لكي يبرر حماقاته أمام الأهل، كذلك إن

٥ ـ دور المدرسة في تنمية طاقة اللبيدو:

إن التحليل النفسي يبين أن القلق عند الطفل ينتقل من الإطار الجنسي إلى المستوى العقلي، سادغر في بحث منشور، يظهر أن الخوف من الإمتحانات هو في الأحلام كما في الواقع. إنه الخوف من الخصي. إن الولد في هذه الفترة يشعر بالخوف والقلق اتجاه المدرسة وخصوصاً في فترة الإمتحان. إن المدرسة والإمتحان تمثل بالنسبة للولد عالماً جديداً غالباً ما يتميز بالقسوة والصرامة، سادغر يعتبر أن الطريقة التي يتكيف فيها الولد خلال المرحلة الأولى من دخوله المدرسة غالباً ما تعكس أسلوب وإتجاهات وأنماط التكيف أمام مؤثرات الواقع بشكل عام خلال المراحل اللاحقة.

إن أهمية المدرسة بالنسبة للولد في هذه المرحلة تأتي بشكل عام من الفرضية التي تعتبر أن المتطلبات والواجبات المدرسية تفرض على الولد أن يتسامى بطاقة اللبيدو، أمام التكيف مع النظام الجديد، الذي يفرض عليه نشاطات جديدة ونظم مختلفة: المدرسة بحد ذاتها، المعلم والنشاطات المدرسية. إن شخصية المعلم في المدرسة تلعب دوراً أساسياً في تنمية شخصية الولد. إن المعلم الذي يظهر التعاطف والتفاهم مع الولد يحصل على نتائج جيّدة لإنه بذلك يختزل صورة «الشخص المنتقم» مما يخفف من الصراع الداخلي للولد. ويساعده على التكيف والتطبع أمام النظام والقانون والعادات الإجتماعية.

إرتكاب الأهل لبعض الحماقات (مشاجرة، صراخ) يثير لديه شعوراً بارتياح إذا انتهت الحماقات بسلامة.

(١) أحياناً يعبّر الولد خلال اللعب عن رغبة في قتل بعض الأشخاص الذين يثيرون لديه الغضب والألم والعذاب، مما ينمّي في نفسه «الشخص المنتقم» الرغبة لدى الطفل في رؤية ذبح العجل، أو الخروف، أو الدجاجة، هي تعبيراً عن رغبته في الإنتقام.

الفصل الثاني

مبادىء التحليل النفسي للولد

يعتبر فرويد أن الهوامات والتخيلات «Fantasmes»النفسية عند الولد ليست إلا تعبيراً عن رغبة، وغالباً ما يتجه الهوام إلى بالغ من الجنس الآخر، إن التعرف على الهوامات الأوديبية تظهر المشاكل التي تطرحها الحياة الجنسية للأولاد، من هنا تبرز أهمية تنظيم علاقات الطفل مع الغير، إن الأحداث التي يواجهها الطفل في السنوات الأولى كموت أحد الأهل أو الخلافات والإنفصالات العائلية أو وجود واحد من الأهل في المنزل عصابي أو سكير، تجعل الولد يعيش الحالة بشكل مأساوي. كذلك إن الأب الذي لا يستطيع أن يؤمن للولد تماهياً أبوياً. أو الأم التي تخفي رفضها العاطفي اللاواعي بمظهر من الحماية الزائدة، إن الأم الفائقة الحماية والأب الغائب عاطفياً والعلاقات الزوجية المتوترة تؤدي إلى العصاب النفسي عند الولد، إن إضطرابات العلاقات العائلية قد تؤدي إلى تشويش علاقات الطفل مع الغير، إن التجربة الطفيلية المعاشة يكون من نتائجها ليس فقط العصاب، وإنما مجمل البنية الشخصية عند الفرد.

---

(١) يميز التحليل النفسي بين التخيلات اللاشعورية التي نلقاها لدى الطفل الصغير الذي لم يتكون الأنا لديه بعد، وتتميز هذه التخيلات بغلبه الدوافع العدوانية الفمية والشرجية وبسيطرة نوع بدائي من العلاقات بالموضوعات الطيبة والشريرة. ومن ناحية أخرى هناك التخيلات الشعورية التي تعتبر دليل على وجود أنا على قدر كافٍ من النضج يسمح بظهورها والسيطرة عليها ويحصل بها على إشباع معين. التخيلات الشعورية توفق بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة. التحليل النفسي يدرس التخيلات من حيث إنها تعبير عن الدوافع اللاشعورية وهي عبارة عن حيل دفاعية يستعين بها الأنا للسيطرة على هذه الدوافع.

١ ـ التحليل النفسي عند ميلاني كلاين :

إن الولد كما نعلم عندما يقيم علاقة مع العالم الخارجي، فإنه يتجه نحو الأشياء التي تحقق له لذة الليبيدو، علاقة الولد بالأشياء هي علاقة نرجسية، والتي تحدد بدورها علاقة الولد بالواقع.

ميلاني كلاين في كتابها «التحليل النفسي للولد» أظهرت أن عقدة أوديب تبدأ بالظهور بعد إنتهاء العام الثاني من عمر الولد [١].

ريتا، طفلة لها من العمر عامان تظهر تعلقاً واضحاً بأمها، بعد هذا العمر تظهر تفضيلاً ملحوظاً نحو الأب.

عندما كان عمر ريتا سنة وثلاثة أشهر غالباً ما كانت تبقى مع أبيها تجلس على ركبتيه، تنظر وإياه إلى صور الكتب. في عمر السنة وستة أشهر، إتجاه الطفلة نحو الأب تغير، حيث بدأت بتفضيل الأم، في ذات الفترة تبدأ الطفلة تشعر بمخاوف التخيلات الليلية، والخوف من الحيوانات. التثبت مع الأم يزداد ويزداد أيضاً التماهي مع الأب.

في بداية عمر العام الثالث، تبرز لدى ريتا صراعات وجدانية، كانت تظهر رفضاً للألعاب، كان لديها إحساساً عميقاً وحزناً واضحاً إتجاه الألم.

التحليل النفسي حسب ميلاني كلاني كشف عن الأسباب الكامنة وراء هذه المظاهر من الصراع النفسي لدى الطفلة ريتا.

التحليل كشف أن الطفلة كانت تنام حتى بلوغها عمر العامين مع أهلها في غرفة واحدة. بمناسبة ولادة أخ أصغر، شعرت ريتا أنها أصبحت مهملة من قبل الأهل، ولم يعد يكترثون لها، فأخذت عندها تظهر لديها تصرفات من السلوك العصابي: الغضب، الصراخ، العناد، القرف والإشمئزاز.

التحليل النفسي أظهر أن هناك علاقة وثيقة بين العصاب والتأثيرات العميقة لعقدة أوديب.

---

(١) Klein. Melanie: «Essais de psychanalyse» Pagot Paris 1980 PP 57 — 88

استنتج التحليل النفسي أن القلق لدى الأولاد والذي يكون في الغالب مرافقاً لمخاوف التخيلات الليلية يبدأ منذ بداية عمر الثلاث سنوات. خلال هذه الفترة يوجد لدى الطفل إستعدادات عديدة تدلنا وتكشف على التأثيرات المهمة لعقدة أوديب. بين هذه الآليات والعمليات التي ترتبط بعقدة أوديب، الإحساس المفرط، عدم القدرة على تحمل الحرمان العاطفي، المواقف العاطفية والوجدانية والإنفعالية بمناسبة الأعياد وتقديم الهدايا. يضاف إلى ذلك الصعوبات التربوية التي تبرز غالباً خلال هذه الفترة من العمر المبكر، التحليل النفسي كشف أن من الأسباب التي تؤدي إلى بروز هذه الظواهر هو الشعور بالذنب.

من الأمثلة التي عالجتها ميلاني كلاين والتي تبرهن أن الشعور بالذنب يؤثر تأثيراً قوياً على تخيلات المخاوف الليلية، حادثة الطفلة ترود «Trude».

التحليل النفسي كشف أن الطفلة كان ينتابها بالليل عندما تذهب إلى غرفتها لتنام، هوامات خيالية ورغبة في ذبح المولود الجديد ورميه في الممر وحرقه حياً، أو إعطائه لرجل البوليس. التحليل أظهر أن قلق الفتاة ترود وتخيلاتها اللاشعورية ناتجة عن الغيرة الناجمة من ولادة طفل آخر [١].

التحليل النفسي نجح في إنقاذ الطفلة من العوارض العصابية التي كانت منها: ميول الكراهية والعدوان إتجاه الأخ الأصغر (المولود الجديد) التي كانت السبب في التشبيث مع الأم والسبب أيضاً من القلق والشعور بعقدة الذنب.

إن الألعاب التي يمارسها الأطفال تعتبر من الوسائل المهمة للكشف عن الشعور بالذنب خلال هذه الفترة من العمر.

الطفلة ريتا، في يوم من الأيام، بسبب الإحساس المفرط، أخذت تبكي لإن أباها هددها مازحاً بالدب الموجود في إحدى صور الكتاب. التماهي مع الدب كان تعبيراً عن الخوف من الأب الحقيقي.

---

(١) Klein— Mélanie OP. cit PP 179 — 210.

كذلك فقد رفضت ريتا اللعب بلعبتها، التحليل النفسي أظهر أن سبب رفضها للعبة يعود بدوره إلى الشعور بعقدة الذنب. إن ريتا عندما كانت تلعب باللعبة فإنها لم تتماهى معها بدور الأم، التحليل أظهر أنها لم تتجاسر على لعب دور الأم، لإن اللعبة بالنسبة لريتا، كانت تمثل الأخ الأصغر، والتي كانت تنتابها تخيلات لا واعية في نزعهِ من بطن الأم خلال فترة الحمل. لقد كانت ريتا تتماهي مع الأم من خلال دور سلطة الأم، كانت تمارس على اللعبة سلطة أكبر من سلطة الأم إتجاه ريتا.

من الآليات الأساسية في التحليل النفسي للعلاج، هو لعب الدور، لإنه يسمح بكشف آليات التماهي المتعددة عند الولد. إن لعب دور الأب أو دور الأم يكشف عن عقدة أوديب والصراع الداخلي اللاواعي، إنه يؤمن للولد نوعاً من الشعور باللذة والمؤاساة.

عقدة الذنب تظهر عند الطفل حسب ميلاني كلاين، منذ نعومة أظافره، هذه العقدة تشبه إلى حدّ كبير الضمير أو الأنا الأعلى عند البالغ، عقدة أوديب تبلغ ذروتها عند عمر الأربع سنوات، التحليل النفسي للأولاد أظهر أن الفترة التي تبدأ فيها عقدة أوديب بالظهور يبدأ الولد يتأثر وجدانياً بالأنا الأعلى.

إن تأثير الأنا الأعلى الطفولي على الأولاد. يشبه إلى حدٍّ ما تأثير الأنا الأعلى عند الشخص البالغ، ولكن يبدو تأثير الأنا الأعلى عند الطفل قوياً بسبب ضعف الأنا عنده.

خلال اللعب، يمثل الأولاد بشكل رمزي صوراً خيالية، تعبر عن رغباتهم وتجاربهم اللاواعية، يستعمل الأولاد في بلوغ ذلك، اللغة، نمط التعبير البدائي، لا نستطيع فهم هذا النمط من التعبير اللغوي والسلوك إذا لم نأخذ بطريقة فرويد لتحليل الأحلام، إن تحليل مضمون الرمزية في ألعاب الأطفال يشبه إلى حدٍ كبير مفهوم الرمزية في تفسير مضمون أحلام الكبار.

حسب ميلاني كلاين، إن النمو النفسي للولد يبدأ منذ اللحظة التي يبدأ فيها

التمييز بين الأم الخيالية والأم الحقيقية، التمييز بين اللعبة والأخ الحقيقي، الطفل يمر بمقاومة قوية وعنيفة في سبيل التغلب على الدوافع العدوانية. عندما يبدأ العدوان يتجه نحو الأشياء، فهم الطفل للواقع يبدأ بشكل تدريجي كذلك فإن المعرفة حول المواضيع الجنسية تحصل بأسلوب مشابه. لقد بينت ميلاني كلاين أن التحليل النفسي للطفل العصابي، يساعد على تحسين العلاقة العاطفية بين الطفل والأهل، فهم الواقع بشكل واعي يحصل في مرحلة لاحقة، هذا الفهم يتم ويتأثر بضبط الأنا الأعلى.

٢ ـ التحليل النفسي الفرويدي لدافعية السلوك

يعتبر فرويد أن هناك نوعان من الحوافز الدافعة للسلوك والمحركة له: تلك التي تكون فطرية بيولوجياً في الإنسان، وتلك التي تتطور وتنمو من الوسط وخبرات الحياة والواقع المعاش، وتنقسم الحوافز الأولية أو الغرائز في نظر فرويد إلى مجموعتين: «غرائز الحياة» [١]. التي تسهم في بقاء الفرد والنوع واستمراريته «وغرائز الموت» التي تتضمن قوى تدمير الذات التي قد تتحو ل خارجياً نحو الآخرين والتي تحدث العدوان والحرب.

وينتظم سلوك الطفل حسب فرويد، حول «مبدأ اللذة» الذي يخفض التوتر، إن أفعال الطفل تعكس النزعة المباشرة لديه للبحث عن اللذة التي تؤدي إلى التفريغ المباشر للطاقة الغريزية، لإن عدم إشباع الحوافز الغريزية (الليبدوية) عند الطفل تؤدي إلى التوتر والألم.

حسب فرويد، إن متطلبات التفريغ تختلف باختلاف مراحل النمو النفسي والجسدي عند الطفل (الفمية، الشرجية، التناسلية). يعتبر فرويد أن الأنا عند الطفل يتكون إنطلاقاً من الصراع بين الدوافع الغريزية والكف الإجتماعي، وقد يؤدي هذا الصراع إلى تحمل بعض الألم من أجل إشباع لاحق أكثر أمناً. وقد نظر

(١) لقد أدرج فرويد دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ الجنس تحت غريزة الحياة ووضع في مقابلها ما اسماه غريزة التدمير أو الموت راجع: فرويد: «ما فوق مبدأ اللذة». دار المعارف بمصر ١٩٦٦

فرويد إلى جميع ألوان النشاط العقلي المعقد كالعلم والإدراك والتذكر والتفكير كوظائف للأنا. ومثل هذا التأجيل والإحباط أمر ضروري لنمو الطفل. إن الأنا تقوم بكف التفريغ الغريزي المباشر وتبحث عن طرق بديلة أو محوّلة للإشباع.

وعلى ذلك، فإن فرويد يقسم الدوافع إلى دوافع موروثة وفيزيولوجية (دوافع أولية) ودوافع مكتسبة (دوافع ثانوية). والجنس يعد مثلاً للقوة الفيزيولوجية الموروثة (الهو) بينما يمثل التعلم والإدراك والسلوك الإجتماعي صوره عن الدوافع الثانوية أو الإجتماعية عند فرويد. إن المجتمع يتدخل في الإشباع الغريزي للولد من خلال التنظيمات الإجتماعية التي تتجه إلى وضع الغرائز الإنسانية في مسالك مقبولة إجتماعياً. إن نظرية فرويد تفترض وجود علاقة بين الدوافع البيولوجية والدوافع الإجتماعية، فهذه الأخيرة ينظر إليها كمشتقات للأولى. بمعنى أنها بديلة ومتسامية للأولى. لقد نظر فرويد إلى الحاجات المعرفية والجمالية كتعبيرات إعلائية للغرائز الجنسية والعدوانية البدائية، وإنها تظهر في الواقع نتيجة كبت هذه الغرائز خلال الحياة الإجتماعية في حين أن روجرز وماسلو ينظران إلى هذه الحاجات باعتبارها صفات موروثة يتوقف تعبيرها لا على الإعاقة بل على ظروف الحياة المناسبة.

إن الدافع الرئيسي للإنسان عند كارل روجرز هو الحاجة إلى تحقيق الذات، أما مفهوم «تحقيق الذات» كما حدده ماسلو فهو أن الشخص يهدف دائماً نحو تحقيق إمكانياته الداخلية. وقد حدد ماسلو سلسلة من الحاجات والقيم. وتترتب سلسلة الحاجات عند الإنسان من أدنى حاجات البقاء كالجوع والعطش إلى أعلى مراتب الحاجات كالإنتماء والحب والتقدير والمعرفة والحاجات الجمالية كالتعطش إلى المعرفة والرغبة في الجمال. في حين أن فرويد نظر إلى المشكلة الرئيسية للإنسان باعتبارها ضبط وتحويل الغرائز الحيوانية إلى طرق تفريغ صحية بناءه ومقبولة إجتماعياً. فهذه الغرائز مسيئة، من ناحية ما، لأنها يمكن أن تحطم الإنسان ومجتمعه، إن الأنماط الإنسانية المرتفعة القيمة والتي تتصل بالأخلاق وحب الآخرين والتقدير الجمالي ليست موروثة بيولوجياً، ولكنها تكون كنتائج لإحباط

الغرائز والحوافز الغريزية، وعلى ذلك فالسمات الإيجابية للإنسان هي سمات مكتسبة أما سمات الأنانية في الإنسان فهي نتائج الوراثة البيولوجية.

إن فكرة التعارض بين المجتمع والجانب الحيواني في الطبيعة الإنسانية، لم تتأكد بقوة في أية نظرية مثلما تأكدت في نظرية فرويد وتركيزها على الدوافع الأولية للجنس والعدوان.

لقد ذهب فرويد إلى أن غرائز الجنس والعدوان يجب أن تخضع للقواعد الإجتماعية، وأن ثقافة الإنسان هي نتاج هذه الغرائز والطرق المنظمة لضبطها. فبواسطة القواعد الإجتماعية المناسبة، تنمو أنا قوية تستطيع البحث عن الأمن وعن المسالك الناجحة للتفريغ الغريزي. وبدون القيود والتهذيب المناسبين اللذين يسمحان بنمو أنا قوية. فإن شخصية الإنسان سوف تحرفها الميول العصابية والإضطرابات الخلقية التي تتسم بنمو خلقي ناقص وأساليب حياة غير ملائمة، أو يحرفّها الذهان[1]. الذي ينجم عنه نكوص إلى الطفولة والأشكال قبل التناسلية للتعبير الليبدوي والتي لا تتناسب مع حياة الراشد. وعلى ذلك فدور المجتمع كما يراه فرويد هو كفّ الدوافع المدمّرة بحيث يمكن إقامة نظام أسري ثابت، يسمح بظهور عمليات عقلية أعلى، إن الإنحراف حسب فرويد ينظر إليه كنوع من الفشل الإنساني، ويعود هذا الفشل في بعض الحالات إلى قصور بيولوجي، وفي بعضها الآخر يمكن النظر إليه كنتاج أنا ملتوية أو معاقة نتجت عن ظروف قاسية في الحياة. إن المجتمع الكابت والقامع حسب فرويد، شأنه شأن المجتمع البالغ

(١) يظهر الذهان «Psychose»حسب فرويد يغدو الواقع مؤلماً إلى حد يعجز معه الشخص عن مواجهته نفسياً أو حين تقوى الدوافع الغريزية بحيث لا يستطيع المرء السيطرة عليها فيصبح اصطدامها بالواقع أمراً محتوماً. ففي كلتا الحالتين يحدث نكوص في التنظيم الليبدوي من مرحلة العلاقات بالموضوعات إلى مرحلة النرجسية ويتم عن طريق هذا النكوص انكار الواقع إنكاراً متفاوت المدى يكون مصحوباً في الآذان ذاته بانطلاق الدوافع الغريزية بلا ضابط. ذلك ما يعنيه فرويد إذ يقول أن الأنا في المرض العقلي يتحالف مع الهو ضد الواقع، بينما في العصاب يتحالف الأنا مع الواقع ضد الهو.

التسامح، إن المجتمع الأول يخلق عصاباً، والثاني يخلق اضطرابات في الشخصية أو التطبع الإجتماعي.

٣ ـ التحليل النفسي من خلال التشخيص في لعب الأولاد

إن العلاقة وثيقة بين اللعب، وطبيعة الأشخاص وتوزيع الأدوار إن الولد عندما يلعب يحقق جزءاً مهماً من رغباته المكبوتة. إن الأولادالذين يعانون من «العصاب النفسي»(١). غير قادرين على اللعب بالمعنى الحقيقي للكلمة.

خلال اللعب، يحقق الولد رغباته من خلال المحاولات التي يبذلها للتوحد والتماهي مع الأشخاص الأقوياء من أجل السيطرة على مشاعر الخوف من الإضطهاد «persécution» الولد في حالة الإرهاق والإنزعاج «Harcélement»يحاول الأنا عنده أن يخدع الأنا الأعلى من أجل منعه من سحق الهو، وهذا يتطلب إستعمال آليات الأسقاط والنقل(١).

الأنا يحاول الإنتصار على الخصوم سواءً كانوا من الخارج أو من الداخل وذلك للمساهمة في تلطيف آلام الأنا الأعلى والتخفيف من حدّة القلق. الأنا تعاني من سادية الهو والأنا الأعلى، أحياناً الأنا تتضامن مع الأنا الأعلى في محاولة لمعاقبة الهو، إذا كان ذلك وسيلة من وسائل الإشباع.

إن الولد الذي يبلغ من العمر ٦ سنوات يتخيل نفسه أحياناً خلال اللعب إنه زعيم عصابة يصطادون الحيوانات المفترسة، إنهم يقتلون الحيوانات بضراوة خلال اللعب، الصراع بين عصابة الصيادين والحيوانات المفترسة لا ينتهي لإن أعداءً جدد يظهرون، إن الولد الذي يتخيل نفسه أثناء اللعب مهدداً من قبل أشخاص

---

(١) يميز فرويد بين نوعين من العصاب «Ňevrose»العصاب الواقعي مثل عصاب القلق والعصاب النفسي مثل الهستيريا والعصاب الوسواسي. إن العصاب هو وسيلة دفاع لا شعورية يستعين بها الأنا لدرء خطر نفسي معين.

(٢) النقل «Deplacement»حسب فرويد هو عملية نفسية لا شعورية تنحصر في نقل دافع معين أو انفعال بالذات من الموضوع الأصلي إلى الموضوع البديل. وهي الحيلة الأساسية التي تستخدم في أعصبة المخاوف «Phobias»للتحكم في القلق المرضي.

واقعيين أو وهميين (السحر، الساحرات، الجنود، اللصوص. . .) إنه يحاول الدفاع عن نفسه من خلال التماهي والتوحد مع أشخاص أقوياء.(١)

إن الأنا عند الولد يحاول أن يسيطر على المخاوف والقلق من خلال التماهي بالتخيلات «Fantasmes» التي ترمز إلى القوة، إن اللعب يوزع الأدوار بالنسبة لأجزاء الجهاز النفسي للولد، الأنا الأعلى يعذب الهو ويمنعه من تحقيق رغباته، الأنا الأعلى يمثل دور المنقذ (Secourable) للهو.

خلال اللعب، يحاول الولد أن يستدخل «Introjection»الشخص الذي يدافع عنه ويحميه والذي يمثل غالباً حيواناً قوياً (دائماً نرى الطفل يسأل عن إسم الحيوان الأقوى: الدب، الأسد، النمر. . .) الحيوان الأقوى بالنسبة للولد غالباً ما يتمتع بسمات وصفات مطابقة لصفات الأب وصورته «Image paternelle»إن اللعبة التي يلعب بها الولد غالباً ما تمثل وترمز إلى «الهو» والحيوان يمثل ويرمز إلى الأنا الأعلى، وهذان الجانبان الهو والأنا الأعلى يتفاعلان مع بعضهما البعض لإن اللعب بالحقيقة يمثل بالنسبة للولد حالة من الصراع بين الأنا الأعلى والهو.

إن الأنا الأعلى القاسي والصارم يمنع الولد خلال اللعب من التعبير الخيالي. الفشل في العلاقة والتفاعل بين االأنا الأعلى والهو يؤدي إلى قمع الدوافع، والذي ينتج عنه إمتصاص طاقة الفرد، والذي من نتائجه الهوس العصابي «Neuvrose obsessionnelle»الذي يؤدي في حالة استمراريته إلى تفكيك الشخصية.

إن الصور الخيالية عند الولد « Les images fantastiques»سواء كانت سيئة أم حسنة، تمثل المراحل الوسيطة بين الأنا الأعلى الذي يهدد والذي لا يمت إلى الواقع بصلة، وبين التماهيات التي تقترب من الواقع، التحليل النفسي للأولاد يبين أنه خلال مرحلة الصراع الأوديبي، الأنا الأعلى يتميز بالطبع الطاغي، التطور للأنا الأعلى يرتبط بكيفية الإنتقال من المرحلة الفمية إلى المرحلة التي تليها

---

(١) Klein, Melanie, OP.cit PP 242 — 253.

(الشرجية، والتناسلية) إن التثبيت الليبدوي للمرحلة الفمية يعيق نمو الأنا الأعلى، كما يعيق أيضاً النمو الليبدوي، إن النضوج الجنسي، والإقتراب من المرحلة التناسلية تجعل الولد يتطور بقدر ما تتطور التماهيات الخيالية لديه والتي تحقق إشباعاً للرغبات المكبوتة (عندما يفشل اللعب في تحقيق الإشباع للرغبات، التحليل النفسي يفسر ذلك بعدم نجاح التماهيات الخيالية من إداء وظيفتها ويستدل على هذا الفشل من خلال حالة القلق والوجدانية وعدم الإستقرار والعلاقة السيئة مع الواقع والتي غالباً ما تميز الولد العصابي).

خلال مرحلة الكمون الجنسي «Période de latence» يزداد التفاعل مع الواقع، الأنا يقوم بجهد كبير من أجل التوازن بين الأنا الأعلى والهو والواقع.

إن الوظيفة المزدوجة للأنا الأعلى من حيث تحقيق التماهيات الأولية والإستدخال خلال المراحل المتعددة للنمو النفسي والنضج الجنسي، يرتبط إرتباطاً قوياً بآلية الإسقاط «Projection»

هذه الآليات المتعددة للأنا الأعلى تعتبر بنظر التحليل النفسي من العوامل الأساسية للتشخيص «La personnification» خلال اللعب.

إن اللعب يكشف طبيعة الولد أمام الواقع. وأحياناً يكون وسيلة للهروب من الواقع، غاية التحليل النفسي هو مساعدة الولد على التكيف مع الواقع، وتحريره من القلق وتخفيف حدّة الكبت الذي يساهم في زيادة الهوامات والتخيلات الخيالية.

إن التحليل النفسي كشف أن اللعب عند الأولاد الأسوياء يظهر التوازن بين التخيلات والواقع. يبين القدرة في التأثير على اللعب في سبيل السيطرة على الواقع بشكل يتلاءم مع التخيلات. إن اللعب يجعل الولد قادراً على تحمّل وضعه الحقيقي والواقعي عندما يعجز عن تغييره.

إن اللعب يظهر نسق تفاعل الولد مع الواقع. ونسق التشخيص للعب لديه وكيفية تحقيق الرغبات. التشخيص في ألعاب الأولاد يتأثر بآلية التماهي التي لها

منشأ جنسي، بقدر ما تقترب صور التشخيص في ألعاب الأولاد من المواضيع الحقيقية، بقدر ما تتحسن علاقة الولد بالواقع، الولد الذي يعاني من العصاب النفسي يتميز بأسلوب من التشخيص في اللعب بعيداً عن الواقع حيث أن تحقيق الرغبات خلال اللعب يتم بشكل سلبي، لإن الأشخاص الخياليين أثناء اللعب يتميزون بالتطرف والقسوة. نستنتج من خلال التحليل النفسي للولد أن التسلط الرهيب للأنا الأعلى خلال المراحل الأولى للنمو يعتبر من العناصر الأساسية للإضطرابات النفسية. هدف التحليل هو ضرب الأنا الأعلى الطاغي والظالم من جذوره، لإن طغيان الأنا الأعلى خلال النمو المبكر هو إحدى الأسباب الرئيسية لنشؤ الذهان «Psychose»

إن اللعب يعتبر من التقنيات الأساسية لتحليل وفهم المراحل الأولى لتكوين الأنا الأعلى عند الولد، بلوغ الطبقات النفسية العميقة بواسطة التحليل النفسي يخفف من حدّة القلق والتوتر والعصاب عند الولد ويفتح المجال لنمو الصور الحسنة.

٤ ـ مقارنة بين الأنا الأعلى عند ميلاني كلاين وآنا فرويد

تعتبر ميلاني كلاين أن الأنا عند الطفل لا يمكن مقارنته بالأنا عند البالغ، في حين أن الأنا الأعلى عند الولد يقترب في وظيفته من الأنا الأعلى عند الشخص الراشد.

إن الطفل يتأثر بالعالم الخارجي أكثر مما يتأثر الرجل، لإن الأنا الأعلى عند الطفل يتميز بالتعارض مع الأهل. إن الطفل الذي يبلغ من العمر ٤ سنوات نراه بالرغم من إحاطته بالعطف والحنان من قبل الأهل يعاني من الصراع بين الأنا والأنا الأعلى. هذا الصراع يعود في الأساس إلى قسوة وصرامة وحزم الأنا الأعلى. إن الولد بسبب ميوله العدوانية والسادية يخاف في لاوعية من القصاص والعقاب الهوامي: الخصي، المطاردة، فقدان أحد أعضاء الجسم، إن التناقض بين محبة وعطف الأم، وعقاب الأنا الأعلى للطفل هو شيء واضح، إن التماهي عند الطفل

لا يتكون فقط من خلال المواضيع الحقيقية، ولكن يتضمن الهوامات والتخيلات التي يستدخلها الطفل بشكل لا واعي.

إن الأنا الأعلى يتكون كما نعلم من خلال التماهي، ميلاني كلاين تعتبر أن الأنا الأعلى للطفل يتكون خلال مرحلة عقدة أوديب، التي تبدأ في ذات الوقت الذي يبدأ معه فطام الطفل عن ثدي الأم. حيث يبدأ الأنا الأعلى بالتكوين.

حسب آنا فرويد، الأنا الأعلى عند الطفل يختلف عن مفهوم الأنا الأعلى عند الراشد، لكن الأنا الأعلى للطفل يتأثر بالأهل.

تعطي آنا فرويد المثال التالي: ولد في عمر ما قبل المراهقة كان يشعر بحاجة ورغبة قوية بالطيران، الخوف من الأب كان يمنعه من تحقيق حلمه. حسب آنا فرويد إن سلطة الأب تحل محل الأنا الأعلى، إن الدوافع اللا إجتماعية ناتجة في غالبيتها عن «الخوف من الأب» أو من يمثله أو يرمز إليه ولكن بمظاهر مختلفة: الخوف من رجل الشرطة، الخوف من القانون الخوف من فقدان المركز الإجتماعي.

إن الإختلاف في تفسير مفهوم الأنا الأعلى عند آنا فرويد وميلاني كلاين يعود إلى الفرضية التالية:

بالنسبة لميلاني كلاين خصائص وسمات الفرد تنتج عن النمو الأوديبي للأنا الأعلى الذي يتم من خلال عملية الإستدخال للأشياء الأوديبية والتي بعد زوال عقدة أوديب تأخذ شكلاً مستمراً لا يتغير ولا يتبدل.

إن الأنا الأعلى خلال مرحلة التكوين يختلف في مضمونه عن مواضيع نشأته. إن الأنا المثالي ينتج عن أنواع متمايزة للأنا الأعلى. آنا فرويد تعتقد أن الأنا الأعلى الناتج عن سلطة الأهل يختلف عن الأنا الأعلى للأهل... إن التحليل النفسي هو الوسيلة التي تساعد على بلوغ الأنا الأعلى واختزال هيمنته، والتأثير عليه.

الإختلاف بين آنا فرويد وميلاني كلاين في علاج الولد من ضغط الأنا الأعلى يعود إلى الأمور التالية:

آنا فرويد تركز على التربية والإرشاد في حين ميلاني كلاين تعتمد على التحليل بإنقاذ الطفل من رواسب عقدة أوديب والشعور بالذنب:

تعتقد آنا فرويد أنه لا يجب كشف مساوىء الأهل أمام الطفل. لإن ذلك يعرض المؤسسة العائلية للخطر، مما يستنهض أنواعاً متعددة من الصراع عند الولد، في حال وعي الولد موضوع التعارض والتناقض والمواجهة نحو الأهل.

الموضوع بالنسبة لميلاني كلاين هو تحليل علاقة الطفل مع الأشخاص الذين يحيطون به وخصوصاً الأهل والأخوة والأخوات إن الطفل الذي يعيش مع أشخاص يسود بينهم عدم التفاهم، عصابيون، يأذون الطفل بوعي أو بدون وعي، لا يمكن الغاء العصاب والتخفيف من حدته دون أخذ الوسط الذي يتفاعل معه الطفل بعين الإعتبار.

آنا فرويد تعتبر أن تحليل الطفل من خلال الوسط الذي ينتمي إليه قد يثير عنده أنواعاً متعددة من الصراع، قد تجعل من الطفل ضحية لهذا الصراع. ميلاني كلاين تعتقد أن التحليل النفسي للطفل يجعله يتكيف بشكل أفضل مع الوسط الذي ينتمي إليه مما يخفف من حدّة آلامه. التحليل يساعد الطفل على تحسين العلاقات مع الأهل والوسط، إن تحليل الموقف الأوديبي للطفل يحرّره من الشعور بالسلبية اتجاه الأهل. وينمي عنده الميول والدوافع الإيجابية في تفاعله مع الأشخاص الذين يحيطون به. تنطلق آنا فرويد من الطرق التربوية في تحليل الأولاد، تبرر آنا فرويد استعمال هذه التقنيات بسبب ضعف وعجز الأنا الأعلى للطفل.

تنتقد آنا فرويد أسلوب لعب الدور التي استعملتها ميلاني كلاين في تحليل الأولاد، وتعارض تحليل الأولاد الذين لم يبلغوا مرحلة الكمون الجنسي.

آنا فرويد وميلاني كلاين يركزان في تحليلاتهم على كلام الأولاد، أحلام اليقظة، الأحلام الليلية، القصص، الألعاب الخيالية، الرسم. الإستجابات والإنفعالات العاطفية، العلاقات مع العالم الخارجي، أي المحيط المجاور.

الفصل الثالث

النظرية الجنسية في التحليل النفسي

إن الرأي الشائع لدى غالبية الناس أن الحياة الجنسية لدى الإنسان تتمحور حول إتصال الأعضاء الجنسية لشخص ما بما يقابلها عند شخصٍ من الجنس الآخر. ولكن مما يلفت النظر، أن هناك أشخاصاً لا يستهويهم إلا أفراداً من جنسهم، والأعضاء التناسلية لهؤلاء، ومما يلفت النظر أيضاً أن هناك أشخاصاً تتسم رغباتهم بالطابع الجنسي، ولكنهم في الوقت عينه لا يهتمون بالأعضاء التناسلية ولا باستخدامها الطبيعي وأمثال هؤلاء الأشخاص يسمون المنحرفين، وأخيراً، فمن الغريب أن الأطفال الذين يعتبرون لهذا السبب منحلين، يبدون إهتماماً مبكراً جداً بأعضائهم التناسلية وتظهر عليهم، أمارات التهيج بها.

إن التحليل النفسي يعتبر أن الحياة الجنسية لا تبدأ في مرحلة البلوغ، وإنما تبتدىء عقب الميلاد بمظاهر واضحة.

يميز التحليل النفسي بين مفهومي «الجنسي» والتناسلي» فالأول هو المفهوم الأشمل ويضم أنواعاً من النشاط لا شأن لها بالأعضاء التناسلية.

إن وظيفة الحياة الجنسية حسب التحليل النفسي تتضمن الحصول على اللذة من مناطق جسمية متعددة، وهي تبدأ في عهد الطفولة المبكر وترتبط بالظواهر النفسية التي نجدها فيما بعد، في حياة الحب عند البالغين، كالتعلق بموضوعات معينة، والغيرة، وما إلى ذلك. ويتبين فوق ذلك أن هذه الظواهر التي تنبعث في طور الطفل المبكر تكون جزءاً من عملية تطور منتظمة، وأنها تمر بنمو مطرد حتى تصل الذروة في نهاية العام الخامس تقريباً. تليها فترة سكون. وإبان ذلك يقف

التقدم وينكص. في نهاية هذه الفترة التي نسميها مرحلة الكمون، تستأنف الحياة الجنسية عند البلوغ.

وأول عضو يظهر كمنطقة شهوية وتتأثر النفس بوظيفته الليبدوية هو الفم. ففي بادىء الأمر، يتركز النشاط النفسي كله حول إشباع حاجة هذه المنطقة. ولا شك أن هذه المنطقة تقوم أولاً وقبل كل شيء بتحقيق حفظ الذات بواسطة التغذية. ولكن يجب ألا نخلط بين ما هو فسيولوجي وما هو نفسي. فإلحاح الطفل في المص وتشبثه به في مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع، على الرغم من أنها حاجة تنبعث عن تناول الغذاء وتتأثر به، إلا أنها تسعى إلى الحصول على لذة مستقلة عن التغذية وبالتالي يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية.

وفي خلال هذه المرحلة الفمية، تظهر الحوافز السادية في فترات متقطعة بظهور الأسنان، ويزداد مقدار هذه الحوافز زيادة عظيمة إبان المرحلة الثانية التي نسميها «المرحلة السادية الشرجية» لإن الإشباع فيها يظهر في العدوان وفي وظيفة الإخراج. إن السادية هي مزيج غريزي لحزافز ليبدوية خالصة مع حوافز تدميرية خالصة، وهو مزيج لا يكف أبداً[1]. المرحلة الثالثة نسميها «المرحلة القضيبية»، وجدير بنا أن نلاحظ أن ما يلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة ليس هو الأعضاء التناسلية عند الجنسين، بل هو العضو التناسلي الذكري (القضيب). أما الأعضاء التناسلية للأنثى فتظل مجهولة زمناً طويلاً.

ومع المرحلة القضيبية تختلف مصائر الصبيان والبنات، فقد بدأ الفريقان ونشاطهما الذهني موقوف على البحث الجنسي. وكلاهما إشتركا في إفتراض وجود القضيب عند الجميع. ولكن طرق الجنسين تفترق الآن. فيدخل الصبي الطور الأوديبي، ويأخذ يعبث بقضيبه عبثاً تصحبه تخيلات إنه يزاول به نوعاً من النشاط الجنسي ذا صلة بأمه، إلى أن يعاني أعظم صدمة في حياته، تحت تأثير تهديده بالخصاء برؤيته المرأة عاطلة عن القضيب، وبذلك يدخل طور الكمون.

---

(١) راجع: فرويد الموجز في التحليل النفسي مرجع سابق ص ٢٣٠ ـ ٢٤.

أما البنت، فبعد سعيها سعياً فاشلاً في منافسة الصبي، تدرك خلوها عن القضيب، أو على الأصح تفاهة بظرها، مما يخلف آثاراً دائمة في الخلق، ويغلب أن تؤدي هذه الخيبة الأولى في المنافسة إلى العزوف التام عن الحياة الجنسية.

١ - الدوافع الغريزية عند الطفل وتكوين العلاقات الغيرية:

حسب فرويد إن الدافع الغريزي يبقى مرتبطاً بشكل وثيق بالمصادر الجسدية التي تولده، فهو ينبثق من داخل الجسم بالذات (ويختلف بذلك عن الإثارة النفسية التي تحدثها المثيرات الخارجية) هذا يعني بأن الأمر لا يتعلق بقوة مؤقتة، ولكن بقوة ثابتة لا يمكن للفرد أن ينفلت منها بالهرب. فهي تختص بشعور الحاجة التي يجب أن تكافأ بفضل موضوع يفتش عنه الفرد في الوسط الخارجي، إن هدف السلوك هو إزالة التوتر الذي يولده الدافع الغريزي.

إن تنسيق المراحل الليبدوية للدوافع الغريزية قام به عدد من علماء التحليل النفسي: فرويد، إبراهام، وميلاني كلاين، لقد صاغ فرويد أسسه في كتابه «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»[1]. وهذه المراحل هي:

أ - المرحلة الفمية:

حسب فرويد إن الأم من خلال الغذاء تقيم علاقة جيّدة مع الطفل. فالعلاقة الإتحادية الوثيقة التي تربط الطفل بنهد أمه تنظم المرحلة الأولى من الحياة العاطفية.

إن الغذاء يقوم بوظيفة مزدوجة: الوظيفة الغذائية كاستجابة لحاجة فسيولوجية وإزالة التوتر والإحساس بالرضى. فهذه الوظيفة من الإرضاء الليبدوي، التي تتميز عن الوظيفة الغذائية الصرفة. اعتبرها فرويد ذات قيمة جنسية: «إن لذة الرضاعة تسترعي كل إنتباه الطفل، ثم تجعله ينام، فعندما نرى الطفل المشبع يترك النهد ويتراخى بين ذراعي أمه بوجنتيه الحمراويين وينام بابتسامة سعيدة، لا يمكن التواني عن القول أن هذه الصورة تبقى نموذج الإرضاء الجنسي الذي سيعرفه فيما

(١) فرويد: «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية» دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

بعد، ولكن بعد ذلك ستنفصل هذه الحاجة لتكرار الإرضاء الجنسي عن الحاجة للغذاء»[1]. إن إحدى المظاهر الأكثر وضوحاً للتركيب الليبدوي الصرف في المرحلة الفمية يبدو في مص إبهام الولد، خارج الرضعات. فالإرضاء ينحرف من نشاط مرتبط في الأصل بأخذ الغذاء. ولكن ينفصل عنه بسرعة ليصبح البحث عن لذة مستقلة عن الوظيفة الغذائية.

لقد قسم إبراهام المرحلة الفمية إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تتعلق كلياً بالمص، فالطفل ليس قادراً على تمييز الشيء الخارجي عن جسمه الخاص، ولا يوجد إذن تمييز بين الطفل الرضيع والنهد الذي يغذي، فالطفل لا يعبر لا عن حب، ولا عن حقد، والنفسية حرّة من أي تمزق عاطفي.

المرحلة الثانية: تبدأ عند ظهور الأسنان الأولى، أي حوالي الشهر السادس. فالمص يكتمل شيئاً فشيئاً بالعض، فالأسنان هي الأداة الأولى التي يملكها الطفل لمجابهة العالم الخارجي. في هذه الحقبة لا يتوقف استعمال الفم على المص وحده بل يتعداه إلى العضعضة والعض.

وتبرز خلال هذه الفترة المشاعر المتناقضة والمتعارضة، تجاه ذات الموضوع الذي يصبح في ذات الحين موضوع الإرضاء الليبدوي وموضوع العدوانية.

وفي إنتهاء المرحلة الفمية يظهر مأزم خاص هو مأزم الفطام، لاكان يعتبر أن الفطام في الغالب يسبب للطفل صدمة نفسية. إن تأثير التجارب الفمية على تكوّن الطبع جرت ملاحظته من قبل كارل ابراهام (١٩٢٤) الذي أشار إلى أن اللذة الفمية لا تختفي أبداً. فالآثار الليبدوية المرتبطة بالإطار الفمي مثل المص والعض والقبلة، تبقى بأشكال مختلفة في سلوك الراشد، لقد استطاع إبراهام أن يكتشف سمات الشخصية المطبوعة بالتفاؤل والثقة والدماثة، إلى مظاهر التبعية والعدوان وقلة

---

(١) سمير نوف، ترجمة د. فؤاد شاهين «التحليل النفسي» للولد ص ١٢٥ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

الصبر والإهتياج، وذلك حسب التجربة العاطفية المعاشة في الممارسات الفمية الأولى.

أما ميلاني كلاين فإنها تعتبر أن العلاقة الأولية التي يضع الفطام حداً لها تدور حول شدة الإحساس في هذا السن المبكر. إن صورة نهد الأم تسيطر على مجمل حياة الفرد، ويجري إشباعها بالنسبة للمرأة خلال مرحلة الأمومة.

خلال فترة الرضاعة ترضي الأم حسب كلاين أكثر رغباتها بدائية. إن الشكل الذي تحل به «عقدة الفطام» عند الأم يؤثر على إقامة أولى العلاقات الغيرية للولد، إن تأثيرات هذه العقدة نجدها في أشكال الأمومة المختلفة.

ب ـ المرحلة الشرجية:

إن المرحلة الشرجية تبدأ مع سيطرة الولد على العضلات الصارة. إن لذة الخروج أو الإحتفاظ بالبراز، تصبح خاضعة لتحكم الولد على هواه. إن التبرز يثير المنطقة المغلمة الشرجية ويستخدم الولد هذه الإثارة المفلمة بحبس البراز حتى يحدث تراكمها تقلصات عضلية قوية، وعند خروجها من الشرج تحدث إثارة قوية للغشاء المخاطي. يفترض فرويد أن شعوراً باللذة يضاف إلى هذا الإحساس بالألم. لقد عالج فرويد بعض سمات الطبع التي تظهر عند الأشخاص الذين لعبت عندهم المرحلة الشرجية دوراً خاصاً، وهي: البخل، النظام، العناد، التصلب في الرأي، الشعور بالاستعلاء الأخلاقي. فالبخل هو إستمرار لعادات الحبس الشرجي، والنظام هو امتداد لطاعة متطلبات ا لأهل، والتصلب في الرأي يشكل إنتفاضاً ضد الممنوعات، والعناد هو تسوية بين العدوانية والسلبية، والإستعلاء الأخلاقي يظهر إما لإن الفرد يشعر بأنه يعامل بطريقة غير عادلة، وإما بجعل الآخر مذنباً بمعاملته لكي يحاول إثارة عطفه.

ج ـ المرحلة القضيبية:

إن المرحلة القضيبية تبدأ مع إهتمام الولد حوالي السنة الثالثة من عمره بالمنطقة التناسلية، إن الحياة الجنسية للولد، العامة ونوادره، إهتماماته وعلاقاته الغيرية

سوف تتمحور باستنهاض الإحساس الجنسي التناسلي ويمكن الدلالة على هذه المرحلة من خلال:

ـ الفضول الجنسي للولد:

خلال هذه الفترة تبرز لدى الولـد الفضولية الجنسية والتي تظهـر من خلال المواضيع التالية:

مظاهر الإختلاف بين الجنسين، الإنجاب، الولادة، العلاقـات الجنسية، الولد عادة يتقبل تفسيرات الأهل لهذه المواضيع بتحفظ. يلاحظ الولد في سن مبكرة تغيرات الشكل التي ترافق الحمل ويتخيل وجود علاقات غريبة بين الأهل يبقى هو خارجاً عنها. وبما أن الولد لا يتلقى الأجوبة المرضية والمقنعة عن أسئلته إلى الأهل. فإنه يفسر الوقائع على هواه، ويبني تخيلاته الجنسية من خلال العلاقة مع تجربته الليبدوية المعاشة.

ـ اختلاف الجنسين وأولوية القضيب:

لاحظ فرويد أنه في هذه المرحلة تخضع الدوافع الغريزية الجزئية للتركيز على المناطق التناسلية، لذلك فإن العضو التناسلي الذكري هو وحده الذي يسترعي بالإهتمام بالنسبة للصبي وللبنت على حد سواء، إن غياب القضيب عند البنت يعود إلى قصاص خيالي للأهل. فالولد يعيش هذا الهـوام من خلال إسقـاط دوافعه الجنسية السادية الخاصة على الأهل، فهو يحملهم بذلك مسؤولية إضاعة وفقدان القضيب. إلا أن الولد يرفض تعميم فقدان القضيب على جميع النساء: فالنساء اللواتي تلقين هذا المصير هن المذنبات نتيجة دوافع غريزية غير مقبولة إجتماعياً.

نظرية الإخصاب والولادة:

إن جهل آلية الحمل، تقود الولد إلى تكوين هوامات وتخيلات عن الإخصاب يستعير عناصرها من المرحلة الفمّية. فالإعتقاد بإخصاب فمي عن طريق الإدخال في المعدة أو عن طريق القبلة هو على علاقة بالتركيز الغلمي في المنطقة الفمية. هذه الإعتقادات منتشرة أكثر عند البنات حيث تستمر أحياناً حتى مرحلة المراهقة الأولى.

إن خوف الطفل من الخصي يدفعه إلى التخلي عن الإهتمام بالجنس الآخر وأن يتحول إلى الإهتمام بذات الجنس.

التحليل النفسي أظهر أن إهتمام الولد بالألعاب الرياضية، الفوتبول، والسباحة، تضعف لديه الإهتمام بالمدرسة والواجبات المدرسية، إن الرياضة والنشاطات الجسدية المختلفة تبدو بالنسبة للولد كاستبدال للعادة السرية[1].

التحليل النفسي حسب ميلاني كلاين، كشف أن لعب الفوتبول كانت تعبر عن هوامات الولد الخيالية للمضاجعة وتحل محل العادة السرية كوسيلة لتفريغ التوتر الجنسي، كون العادة السرية مرفوضة من قبل الأب، في حين أن ممارسة النشاطات الرياضية مقبولة إجتماعياً. إن التماهي للألعاب الرياضية مع العلاقات الجنسية تتم تحت ضغط القلق والخوف من الخصي.

إن طاقة اللبيدو كمحرك ودافع للسلوك هي أشبه ما يكون برأسمال أو طاقة يفتش عن مجال للأستثمار والتوظيف. إن الطفل يستثمر هذه الطاقة خلال مراحل النمو المختلفة بما يتلاءم مع نموه الجسدي والفكري والنفسي إن فشل الليبدو في الإستثمار في المكان المناسب خلال مرحلة النمو، يؤدي إلى تثبيت له ومنعه من الإنتقال إلى المرحلة السابقة. مما يؤدي إلى اختلال في الشخصية وظهور العصاب النفسي، إزالة وتخفيف توتر العصاب يتم إما بالكبت أو التسامي.

الخوف من الخصي يؤدي إلى الكبت والنكوص نحو المرحلة النرجسية، هذه بدورها تشجع على ممارسة العادة السرية. تحليل الهوامات والتخيلات للعادة السرية هي المفتاح لفهم الحركات العضلية والجسدية التي يقوم بها الولد. المحتوى الخيالي للعادة السرية هو نوع من التماهي بالأب أو بالأم. النكوص نحو النرجسية ناتج عن عقدة الخصي والخوف من فقدان الأحليل.

٢ ـ الدوافع الغريزية و طاقة الليبدو:

إن التحليل النفسي غالباً ما يكشف أن كثيراً من الحالات العصابية ناتج عن

(١) رغبة الولد في القفز فوق المساند والطراريح.

الكبت للنشاط الليبدوي. إن مظاهر السلوك الخارجي تخفي وراءها في غالبية الأحيان صراعات داخلية لا واعية، فالفشل في ممارسة الألعاب الرياضية والإشمئزاز الذي تثيره ممارسة هذه التمارين، الكراهية في حفظ الدروس، عدم الإهتمام بالنظام، المظاهر المختلفة للإهمال عند الطفل ومظاهر الكسل، إن هذه المظاهر المختلفة لسمات شخصية الطفل غالباً ما تؤدي إلى العصاب، إبراهام في تحليله النفسي للأولاد إعتبر أن الذين يعانون من الكبت الحركي، يعود السبب الأساسي إلى الكبت الجنسي.

الفشل في لعب الكرة، التزلج، الرقص، السباحة يعود حسب إبراهام إلى فشل الطفل في إستثمار طاقة الليبدو، عدم النجاح يحرم الطفل من تحقيق اللذة، مما يجعله يعاني من العصاب. إن التحليل النفسي كشف أن العلاقة وثيقة بين إعاقة وكبح طاقة الليبدو من ممارسة النشاطات الحركية المختلفة وبين القلق والعصاب النفسي. ما تجدر الإشارة إليه أن غالبية الأطفال خلال مراحل النمو المختلفة يعانون من قلق عصابي تتشتد وتخف وطأته تبعاً لاختلاف الظروف الإجتماعية و الثقافية.

التحليل النفسي كشف أن الكوابح لطاقة الليبدو هي من الآليات المهمة في نمو الطفل النفسي والفكري والإجتماعي. إن كبح لذة الحركة تؤدي بالليبدو أن يستثمر في مجاالات أخرى مثلاً اللذة في الدرس، الرسم، التلوين، الغناء.

التحليل النفسي للولد فليكس[1]. الذي يبلغ من العمر ١٣ سنة، أظهر أن الولد كان مجتهداً في واجباته المدرسية. ولكنه كان يعاني من الخجل في ممارسة الألعاب الرياضية. التحليل النفسي استنتج أن النشاط الذي يرمز إلى الأمور الجنسية هو الذي يكبت، ويستثمر في مجالات أخرى.

الفشل في الدرس يؤدي إلى النجاح في مجالات أخرى بعيدة عن الإطار المدرسي (الرياضة، الغناء...) وعلى العكس التفوق في الواجبات المدرسية

---

(١) Klein Melanie OP. cit P. 142.

يقابله خجلاً في مجالات أخرى. إن التسامي بالدافع الليبدوي من حالة جنسية إلى حالة مقبولة إجتماعياً بما يتلاءم مع أنا الشخص، تجعل القلق يختلف باختلاف موضوع الكبت، فإذا كانت الرياضة هي التسامي لطاقة الليبدو فالقلق يحصل إتجاه الواجبات المدرسية، أما إذا كان التسامي للدافع الغريزي يتلاءم مع أنا الطفل من خلال النجاح في الدرس والواجبات ا لمدرسية فإن القلق عندها يكون إتجاه الألعاب الرياضية التي تمثل رموزاً جنسية مكبوتة.

يعتبر فرويد أن القلق الداخلي ينشأ عن عائق أو حاجز يعارض طاقة الليبدو إن إخضاع الميول الجنسية هي من الآليات الدفاعية لصد الخطر، الكبح، والكبت للغريزة الجنسية حسب فرويد يكون ناجحاً تبعاً للسمات الحضارية والثقافية.

إن الإنسان البدائي، الذي تشبه حياته الفكرية إلى حدٍّ ما الإنسان العصابي. تغلب على تصرفاته وطبعه السمة العصابية. لإنه ليس لديه القدرة الكافية على التسامي، وكونه يفتقر إلى المقدرة للكبت الناجح. إن نمو دوافع الأنا تتعلق إلى حدٍّ كبير بعوامل ذات سمات جنسية، إن العامل الأساسي لنمو دوافع الأنا بالتسامي هو تثمير طاقة اللبيدو بعد أن يتم كبح الميول الجنسية.

في المرحلة النرجسية، نلاحظ، حسب فرويد، أن الدوافع للأنا والدوافع الجنسية يتوحدان، إن نمو الأنا يفترض تمايزاً بين الدوافع للأنا والدوافع الجنسية. فرويد يعتبر أن جزءاً من الدوافع الجنسية تبقى خلال فترة الحياة مرتبطة مع الدوافع للأنا والتي تتسم بالسمات الليبدوية. إن تثمير الرمزية الجنسية لميل معين أو نشاط محدد يتعلق بالدوافع للأنا. هذا النسق من التثمير لطاقة الليبدو، يدعي «التسامي» سبربر «Sperber»يبين أن الإثارة الجنسية تلعب دوراً أساسياً في تطور الكلام. إن الأصوات الأولى للتعبير كانت بين الذين يتبادلون الجنس، وهذا النوع من التعبير تطور مع تطور اللذة الجنسية، جونس «Jones»يستنتج أن التسامي ناتج عن الرمزية الجنسية، فرنتزي «Fenrentzi»يعتبر أن الولد يكتشف أعضاء جسمه ونشاطاتها المختلفة من خلال الأشياء التي يحتك بها. فرويد يستنتج أن توجه الفرد المبكر نحو جسمه يتوازى مع الإكتشافات الجديدة لمراكز اللذة، وهذا ما يسمح له للمقارنة

بين الأعضاء وبقية أجزاء الجسم، هذه المقارنة تؤدي إلى التماهي مع المواضيع الأخرى. حسب جونس مبدأ اللذة يسمح بمقارنة شيئان مختلفان ولكنهما يتشابهان من حيث أن لهما ذات القيمة من اللذة ويثيران ذات الإهتمام. الأشياء والنشاطات المختلفة تصبح بدورها موضوعاً للذة من خلال آلية التماهي. إن الكبت يلعب دوراً أساسياً في عملية التماهي لإنه يسمح لطاقة الليبدو وبالإنتقال من حالة إلى حالة أخرى. مما يؤدي بالنتيجة إلى آلية التسامي.

إن العصاب والتسامي حبسب التحليل النفسي يرتبطان بطاقة الليبدو، وقوة الكبت هي التي تقرر إذا كان مسار الليبدو يؤدي إلى التسامي أو ينحرف نحو العصاب. إن أهمية التحليل النفسي تبرز من خلال التسامي بالكبت، وتحويل مسار العصاب واستبداله بالكفاءات والمهارات الإيجابية.

٣ ـ العوائق التي تعيق النمو لعقدة أوديب

حسب فرويد إن أول موضوع شهواني عند الطفل هو ثدي أمه الذي يغذيه، ويتصل الحب في بدايته باشباع الحاجة إلى الطعام. ولا يميز الطفل قطعاً في البداية بين الثدي وجسمه هو. وإذ يتبين أن هذا الثدي يغيب عنه كثيراً. فإنه يميز بينه وبين جسمه، ويعتبره خارجاً عنه. وهنا يصبح الثدي «موضوعاً» محملاً بجزء من الشحنة النرجسية الأولية. ويكتمل هذا الموضوع الأول فيما بعد فيصبح شخص الأم كله. وهذه الأم لا يقتصر دورها على إطعامه فحسب، بل وتعتني به فتثير فيه إحساسات جسمية بعضها لاذ وبعضها مؤلم، وتصبح الأم عند الجنسين على السواء، موضوع أول حب وأقواه، ونموذجاً لكل علاقات الحب اللاحقة، حسب فرويد إن الطفل الذي يرضع من ثدي الأم فعلاً، أو أن يربي على البزازة محروماً من رعاية الأم وحنانها، فالتطور واحد في الحالتين. وقد يحدث في الحالة الأخيَرة أن يقوى حنينه فيما بعد، أما في الحالة الأولى فمهما طال أمد رضاعة الطفل من ثدي أمه، فسيظل دائماً ـ بعد الفطام ـ موقناً بأنها كانت فترة شحيحة بالغة القصر.

إن وطأة عقدة أوديب عند الطفل تظهر عندما يدخل الطفل الذكر (بين سن

الثانية والثالثة) المرحلة القضيبية من تطوره الليبدوي، ويستشعر أحاسيس اللذة في عضوه الجنسي، ويتعلم كيف يحصل عليها وفق هواه بالإستثارة اليدوية حينئذٍ يصبح حبيباً لأمه ويتمنى أن تكون له جسدياً على النحو الذي استنتجه من مشاهداته وتميناته عن الحياة الجنسية. ويحاول الطفل أن يغوي أمه بأن يعرض أمامها قضيبه الذي يشعر فيه بالفخر والإعتزاز. إن الذكورة المبكرة لديه تحمله على السعي للحلول محل الأب، لقد كان الأب دائماً نموذجاً يتطلع إليه بعين الحسد، بسبب القوة الجسدية التي يبديها. والسلطة التي يتمتع بها، أما الآن فقد أصبح الأب منافساً يقف في طريقه، ويريد أن يبعده عن الطريق. وعندما تسنح له الفرصة أثناء غيبة أبيه أن يشاطر أمه الفراش، وعندما يقصى عنه ثانية عند عودة أبيه، فإنه يشعر شعوراً عميقاً بالرضى عند غيبة الأب والسخط والغضب عند عودته، هذا هو مضمون عقدة أوديب التي نقلتها الأسطورة اليونانية من عالم تخيلات الطفولة إلى عالم الواقع المزعوم.

وتفهم الأم حق الفهم أن تهيج الطفل الجنسي منصب عليها. ولا تلبث أن تقرر الأم أن من الخطأ أن تترك له الحبل على الغارب. فهي تعتقد أنها تحسن صنعاً عندما تمنعه من اللعب اليدوي بعضوه. إن هذا التحريم لا يحدث أثراً كبيراً فتلجأ الأم إلى التهديد بأن تسلبه ذلك الشيء الذي يتحداها به، ولكي تجعل التهديد أكثر وقعاً وأقرب إلى التصديق، تعلن عادة أنها ستوكل التنفيذ إلى الأب، وتقول إنها ستخبره حتى يقوم ببتر القضيب. إن هذا التهديد في حد ذاته، لا يصدقه الطفل، ولا يتصور إمكان حدوث مثل هذه العقوبة، ولكنه إذا تذكر أثناء التهديد فنظر الأعضاء التناسلية الأنثوية حينئذٍ يصدق جدية التهديد الذي سمعه، فيقع تحت تأثير عقدة الخصاء، ويعاني أقسى صدمة في حياته المبكرة. وآثار التهديد بالخصاء عديدة لا تحصى فأنها تؤثر في علاقات الولد بأبيه وأمه، وبالتالي في علاقاته بالرجال والنساء عامة. ويعجز الطفل عادة عن إحتمال هذه الصدمة الأولى. ولكي يبقى على أعضائه التناسلية، فإنه يتجاوز عن موضوع إمتلاك الأم. وغالباً ما تظل حياته الجنسية ترزح تحت وطأة التحريم. والطفل إن كان قد أقلع

عن الإستمناء نتيجة للتهديد، فإنه لم يقلع عن التخيلات التي تصاحبه، بل على العكس لما كانت الآن هي كل ما تبقى لديه. وإذ يمضي في هذه التخيلات فإنه يتوحد بالأب كما يتوحد بالأم وتتسلل مشتقات هذه الهوامات الخيالية الأولى ونتائجها المعدلة إلى نطاق الأنا لديه، وتسهم في تكوين خلقه وسلوكه اللاحق.

إن الحوافز الإنفعالية والإستجابات المتناقضة التي تنشط خلال هذه الفترة تبقى في اللاشعور وتؤثر على تعطيل النمو اللاحق للأنا بعد البلوغ.

٤ ـ مقارنة حول مفهوم عقدة أوديب عند سيمغموند فرويد وميلاني كلاين:

حسب فرويد، الميول الجنسية عند الطفل، تنشأ خلال المرحلة القضيبية أو الأحليلية، التي تمتد تقريباً بين عمر (٣ ـ ٥ سنوات) والتي تتزامن مع نمو عقدة أوديب، خلال هذه المرحلة، العضو الجنسي الأساسي الذي تتمركز حوله عقدة أوديب هو عضو الذكر الجنسي، التفوق هنا ليس تفوقاً جنسياً، ولكن تفوقاً لوجود القضيب.

عند الصبي، المرحلة الأحليلية تنتظم جنسياً أمام التهديد والخوف من الخصي، من جهة أخرى الأنا الأعلى يتكون من خلال الإستدخال «Introjection»لسلطة الأب.

الشعور بالذنب هو تعبير للتوتر بين الأنا والأنا الأعلى، إن نمو الأنا الأعلى يساهم في التعبير عن الشعور بالذنب، حسب فرويد الأنا الأعلى للصبي يتكون من خلال التماهي بالأهل.

فيما يتعلق بالفتاة، البنت تتعلق بأمها خلال فترة ما قبل المرحلة الأوديبية، فرويد يعرّف هذه المرحلة «مرحلة التعلق بالأم». إن الطفلة عندما تكتشف أنها لا تملك قضيباً تبرز عندها عقدة الخصي، إرتباط البنت بالأم يعكره الشعور بالحقد «ressentiment»والكراهية، كون أمها لم تمنحها قضيباً. عندما تكتشف البنت أن

أمها محرومة أيضاً من القضيب، تتحول عندها عن الأم وتتجه نحو الأب. ما ترغب به البنت بالنسبة للأب هو القضيب أولاً، وأن يكون عندها طفلاً ثانية «الولد يحل محل القضيب حسب المعادلة الرمزية المعروفة جيداً» إن عقدة الخصي هي المقدمة لبروز عقدة أوديب عند الفتاة.

نمو الأنا الأعلى للفتاة يختلف عن سياق نمو الأنا الأعلى للصبي، السمة الأساسية المشتركة هي أن الأنا الأعلى والشعور بالذنب هما الأساس في تكوين عقدة أوديب.

بالنسبة لميلاني كلاين، النمو الجنسي عند الصبي والبنت وما يتضمنه من أحاسيس وميول جنسية التي تعتبر الأساس في تكوين عقدة أوديب الإيجابية والمعكوسة تتكون منذ الأشهر الأولى للعمر.

حسب ميلاني كلاين الأطفال يشعرون برغبات جنسية اتجاه الأهل، ولديهم معرفة لا واعية بالأعضاء الجنسية.

عند الجنسين، الأنا الأعلى يتكون خلال المرحلة الفمية، إن الشعور بالذنب لدى الجنسين ينتج من الرغبة السادية والفمية في نهش الأم وخصوصاً النهد، هذا الهوام الخيالي عند الطفل يؤدي إلى الشعور بالذنب الذي يعيق نمو عقدة أوديب.

عند الصبي، الخوف من الخصي يظهر خلال الطفولة الأولى المبكرة، الهوام الخيالي عند الصبي لخصي الأب يظهر في الرغبة اللاواعية في إقتلاع قضيب الأب بالأسنان، هذا الهوام الخيالي للطفل يثير لديه خوفاً وقلقاً من فقدان قضيبه بالأسنان أو بآلة حادة. الهوام الخيالي للخوف البدائي من الخصي يكبت لمصلحة مواضيع أخرى. بقدر ما ينمو الطفل جنسياً، بقدر ما يزداد عنده الخوف الهوامي من الخصي. حسب فرويد إن الخوف الهوامي من الخصي عند الطفل هو القلق الأساسي الذي يعاني منه، والذي يساهم في بروز المأزم الأوديبي عنده. الصبي يشعر بالإكتئاب والشعور بالذنب من التخيلات وما تثيره من الشعور بالذنب

اتجاه الأب كموضوع للحب وكموضوع للتماهي والتوحد على صعيد المظهر والقوة وتأمين الحماية والأمن.

إن الشعور بالذنب عند الولد ينشأ من ميوله العدوانية نحو الأب مما يضاعف من حاجته لكبت الرغبات الجنسية. إن الشعور بالذنب نحو الأب كموضوع للحب هو الأساس في تكوين عقدة أوديب.

حسب ميلاني كلاين، رغبة الفتاة بالقضيب، وعقدة الخصي يلعبان دوراً رئيسياً في النمو النفسي للفتاة. ولكن هاتان الرغبتان يعيقان النمو الأوديبي.

إن التطور الجنسي للطفل يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالموقف اتجاه الأهل إن القلق، الشعور بالذنب، الإحساس بالتوتر تشكل جزءاً أساسياً من الحياة العاطفية للولد، الهوام الخيالي للولد عن الأهل يساهم في آليات الإستدخال والإسقاط وفي نمو الأنا الأعلى.

الفصل الرابع

الصراع الأوديبي وبداية الشعور بالذنب

إن الميول الأوديبية تنتج عند الطفل من خلال الصد الذي يلقاه في مرحلة الفطام، كذلك فإن هذه الميول تتعمق بالصد الشرجي خلال إكتساب الطفل للنظافة، أيضاً فإن التمايز بين الجنسين يؤثر تأثيراً قوياً على النسق النفسي للطفل.

إن الطفل حين يتعرض للقمع للتخلي عن المواقف الفمية والشرجية (فطام، نظافة)، فإن إهتمامه الجنسي ينتقل إلى أهمية إمتلاكه القضيب، إن هدف الطاقة الليبدوية ينتقل عند الصبي نحو موضوع حبه الأول (الأم) وعند البنت على العكس، إنها تتحول نحو الأب كموضوع للحب. إن الرغبات الأوديبية بسبب الخوف الناجم عن الخصي تثير لدى الطفل الشعور بالذنب. إن التحليل النفسي يكشف أن الميول الدافعة خلال فترة ما قبل المرحلة الجنسية تتضمن شعوراً بالذنب، إن الشعور بالذنب يظهر في بداية المرحلة السادية الشرجية، إنه يرتبط بالتثبيت للمرحلة ما قبل الجنسية وينتج عن الصراع الأوديبي. إن الشعور بالذنب هو نتيجة لإستدخال مواضيع الحب الأوديبي[١]. بمعنى آخر، إن الشعور بالذنب ينتج خلال تكوين الأنا الأعلى.

١ ـ آلية الإستدخال (Introjection)ونمو الأنا الأعلى.

إن التحليل النفسي للأولاد يكشف أن بنية الأنا الأعلى تتكون من التماهيات التي تحصل خلال المراحل المختلفة لنمو الحياة النفسية. هذه التماهيات تبدو متناقضة ومتعارضة بشكل مدهش من حيث تكوينها، حيث نلاحظ المحبة ترافق الحسد

(١) Freud: «cinq lecons sur la psychanalyse» OP. cit P 30.

والكراهية. إن التماهيات هي التي تفسر لنا طبيعة الأنا الأعلى للطفل، مثال على ذلك: طفل له من العمر ٤ سنوات، تتكون لديه صوراً وهوامات خيالية عن الأهل الذين يفترسون ويقطعون وينشهون. إن القلق عند الطفل ينتج عن الصراع الأوديبي الذي يثير لدى الطفل خوفاً من أن يلتهم الولد نفسه يرغب بالتهام الموضوع الليبيدوي بنهشه والتهامه وتقطيعه، هذه الهوامات الخيالية ناتجة عند الطفل من القلق. إن خوف الولد من القصاص والعقاب يكوّن لديه أنا أعلى ينهش يلتهم ويقطع.

العلاقة بين تكوين الأنا الأعلى والمراحل ما قبل جنسيه للنمو تحتوي على أهمية مزدوجة: من جهة، الشعور بالذنب، يرتبط بالمرحلة السادية ـ فمية والسادية ـ شرجية.

ومن جهة ثانية، ولادة الأنا الأعلى يبدأ في التكوين منذ اللحظة التي تأخذ فيه هذه المراحل منحاً تصاعدياً. هذا ما يفسر سادية وقساوة الأنا الأعلى.

في المرحلة التي يكون فيها الكبت قوياً، الأنا يكون ضعيفاً لمواجهة الأنا الأعلى الذي يهدد ويعاقب. إن الصد الفمي والشرجي يرتبطان بمدلول العقاب ويساهمان في نشأة القلق. إن الأنا عند الولد الضعيف والغير مكتمل يعجز عن مواجهة الميول الأوديبية والفضول الجنسي عند الولد. إن الفضول الجنسي عند الولد يكشف عن الجانب اللاواعي للطفل، لإن الأسئلة التي يطرحها تبقى بدون جواب مقنع، وهي في غالبيتها تتضمن محتوىً غير واعي، من هنا تبدو صعوبة التعبير اللغوي للأسئلة التي يطرحها. أما عند البنات، فآثار عقدة الخصاء أكثر إنتظاماً ولكنها ليست أقل عمقاً. 'ولا حاجة بالطفلة، بطبيعة الحال، إلى الخوف من فقدان القضيب، ومع ذلك فلا بد من أن تتأثر من كونها لم تحصل عليه. وهي تحسد الصبيان منذ البداية على حيازتهم إياه ويمكن القول إن تطور حياتها بأسرها خاضع للحسد من القضيب. وتبدأ بأن تبذل محاولات فاشلة للقيام بما يقوم الصبيان به، وبعد ذلك يزداد حظها للنجاح في التعويض عن هذا النقص، وتؤدي هذه المحاولات في النهاية إلى إتجاه أنثوي سويّ، وعندما تحاول أثناء المرحلة

القضيبية أن تحصل على إشباع كافٍ، فيمتد شعور النقص من قضيبها المنقوص إلى شخصها بأسره، وهي تقلع عادة عن الإستمناء لإنها لا تحب أن يذكرها هذا بتفوق أخيها أو رفيقها في اللعب. وتعزف عن الحياة الجنسية عزوفاً تاماً.

وإذا تشبثت البنت برغبتها الأولى في أن تصبح غلاماً، فإن هذا ينتهي بها في الحالات المتطرفة إلى أن تعشق النساء، فتتسم في سلوكها وفي حياتها اللاحقة بسمات الذكورة، وتزاول إحدى مهن الرجال وهلم جراً. أما الطريق الآخر فيؤدي إلى هجران الأم التي كانت تحبها: ذلك بأن البنت وقد نال منها الحسد من القضيب كل منال لا يمكنها أن تغفر لأمها أنها بعثت بها إلى العالم غير مجهزة تجهيزاً كافياً. وفي سخطها ذاك، وتعبيراً عن الغضب، تهجر أمها وتتخذ بدلاً منها موضوعاً لمحبتها شخصاً آخر هو أبوها.

وعندما يفقد الإنسان موضوع حبه فإن الموقف الطبيعي هو أن يتوحد في ذاته بهذا الموضوع. وهنا تغدو هذه العملية عوناً للبنت الصغيرة. فيحل توحدها بأمها محل تعلقها بها. فتضع البنت نفسها موضع أمها كما كانت تفعل دائماً في ألعابها، وتحاول أن تأخذ محل أمها تجاه أبيها فتبغض أمها التي كانت تحبها حتى ذلك الوقت، وذلك لسببين: الغيرة والكراهية التي أثارها حرمانها من القضيب. وقد تنشأ علاقتها الجديدة مع أبيها بادىء ذي بدء على أساس رغبتها في أن تستأثر بقضيبه، ولكنها تسفر عن رغبة أخرى هي إنجاب طفل هدية منه، وتحل الرغبة في الوليد محل الرغبة في القضيب، أو تتفرع منها على الأقل.

ومن الشيق أن العلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء عند الذكور، مختلفة جد الإختلاف بل تناقض ما هي عليه عند الإناث. فلدى الذكر يؤدي تهديد الخصاء إلى نهاية عقدة أوديب، وعلى الضد، نجد لدى الأنثى أن ما يدفعها إلى عقدة أوديب عطلها عن القضيب. ولا يضر المرأة كثيراً أن تبقى في موقفها الأوديبي الأنثوي (عقدة الكترا) فهي تختار إذ ذاك رجلاً لما تجد فيه من خصال أبيها، وترضى بسلطته. أما الظمأ الذي لا يرتوي إلى إمتلاك القضيب فيمكن إشباعه إذا

أفلحت في تحويل رغبتها بالعضو إلى رغبة بالرجل الذي يحمله، مثلما انتقلت قبل من ثدي أمها إلى أمها بأكملها.[1].

حسب ميلاني كلاين إن العلاقة الجيدة بين البنت والأم، يحرر الفتاة في مرحلة الزواج والإنجاب من الشعور بالذنب تجاه أولادها، ويقوى حبها لزوجها.

حسب كلاين الزوج يمثل بالنسبة للمرأة، الأم التي تعطى ما هو مرغوب فيه. أي الطفل ثمرة الحب، إن غياب القضيب لدى الفتاة يثير لديها رغبة وإحساساً غامضاً بالأنوثة. إن الخوف والقلق والشعور بالذنب يضعف الأمل عند الفتاة بالأمومة المستقبلية، هذه الهوامات والتخيلات من القلق تثير لدى المرأة، قلقاً آخر فيما يتعلق بموضوع الجمال الشخصي: إنها تخشى أن تفقد وتخسر هذا الجمال بسبب القلق والشعور بالذنب.

إن القلق والشعور بالذنب يؤدي عند البنت إلى كبت مشاعر الفرح والغرور للدور الأنثوي هذا الكبت في حال استمراريته يؤدي إلى فقدان العاطفة والقابلية للأمومة، إن البنت المحرومة من القضيب تسعى لتحقيق ذاتها من خلال دور ووظيفة الأمومة.

إن قلق البنت لموضوع الأنوثة، يشبه إلى حدٍ كبير خوف الصبي من الخصي، إن الأنوثة لدى البنت تلعب دوراً أساسياً في قمع الميول الأوديبية. إن قلق الصبي من الخصي يتم من خلال الأنا الأعلى للأب. عند الفتاة القلق ينشأ من الأنا الأعلى الأمومي.

حسب فرويد الأنا الأعلى للفتاة ينمو في إتجاه مختلف عن النمو للأنا الأعلى للصبي. موضوع الحسد يلعب دوراً كبيراً في النمو النفسي لدى الجنسين: الحسد من الذكر سببه موضوع القضيب، المرأة تعوض عن الرغبات الخيالية اللاواعية من خلال الأنا الأعلى الذي يهدف إلى التضحية والتمسك بالقيم الأخلاقية والإجتماعية. تعتقد ميلاني كلاين أن تماهي البنت بالأم المبني على

---

(١) فرويد «الموجز في التحليل النفسي» مرجع سابق ص ٦٦ ـ ٦٧.

التقبل للجنس والدور والوظيفة يجعل البنت مستقبلاً أن تقوم بدور الأم الحنونة والمثالية، إن الدور الجنسي للأب يؤدي إلى تكوين أنا أعلى أبوي عند البنت ليس لديها القدرة على بلوغه، التعويض عندها يتم من خلال القوة التي تتجسد بالطاقة على التضحية والذي يسمح للمرأة أن تنجز أعمالاً مهمة ومميزة سواء على المستوى الحدْسي أم في الميادين العملية من الحياة الإجتماعية.

٢ ـ دور الأم في النمو العاطفي للطفل

إن أهمية الأم في النمو العاطفي للولد يمكن معلاجته من زاوية مزدوجة: من جهة فهي تؤمن الحاجات النفسية والفيزيولوجية للولد، ومن جهة أخرى فإنها تساهم من خلال تأثير الإحباطات وإزالة التخيلات الوهمية إلى جعل الولد يتعرف على نفسه كذات مستقلة عن موضوع الأم.

إن الدراسات والأبحاث حول غياب الأم والنقص العاطفي للطفل تظهر الدور الأساسي الذي تلعبه الأم.

إن انفصال الطفل عن الأم خلال السنة الأولى من العمر يؤثر تأثيراً قوياً على حياة الطفل، هذا الغياب تظهر نتائجه على صعيد البلوغ الفسيولوجي والنمو النفسي الإجتماعي للطفل.

أـ تأمين حاجات الطفولة الأولى:

إن الحاجات الفيزيولوجية الأساسية للمولود الجديد يتم إشباعها عن طريق توفير الأوكسجين الضروري والغذاء المناسب. والحفاظ على التوازن الحراري، وتأمين الحماية ضد الأمراض. ولكن وراء إشباع هذه الحاجات الضرورية لحياة الطفل تظهر حاجات نفسانية ليست أقل إلحاحاً.

فحاجة الطفل للمص، المستقلة عن وظيفة الإمتصاص الغذائية تشكل بحد ذاتها مصدراً مهماً للإثارة الحسية، وتؤثر على تنظيم الوظائف الهضمية، ويبدو إنها تؤثر على النمو، إن حاجة المص هي خاضعة بذلك لتأثير سلوك الأم خلال فترة التغذية.

حاجة الإثارة الحسية: إن الحاجات (البصرية، والسمعية، والحسية - الحركية) التي تشبعها الأم بشكل طبيعي. التي ترضع وتغسل وتهدهد وتغني وتتكلم مع طفلها يضاف العناية بالنظافة والمداعبات اللمسية تحتوي على درجة عالية من الإرضاء ويمكنها أن تخفض أو تزيل التوترات الفيزيولوجية التي يشعر بها الطفل.

يضاف إلى العامل الفيزيولوجي الجانب النفسي. فالجو العاطفي يبقى العنصر الأساسي للطمأنينة عند الطفل. فالطفل يستجيب بشكل غير ملائم لقلق الأم. فالأم القاسية في ملاحظة الأنظمة الغذائية والمهتمة بشكل هجاسي بقواعد الصحة والعديمة المهارة في عملها أو غير قادرة على فهم المؤشرات والحركات والإشارات اللاكلامية التي يعبر بها الطفل عن إنزعاجه الفيزيولوجي هذه الأم تشيع جواً من القلق ينعكس على الطفل. هذا النقص في الأمان يظهر في البكاء المستمر أو المتكرر أو في تشوش النوم والغذاء.

ب - الحرمان العاطفي المبكر:

إن الإنفصال المبكر والطويل للطفل عن الأم قد يؤدي إلى تأخر عاطفي خطير، وقد يصل في بعض الحالات المتطرفة إلى نقص عقلي قد يصبح دائماً.

إن آثار الإنفصال عن الأم تظهر بسرعة في نكوص عام لكل طاقات الطفل، فاللغة تتأثر حيث يتشوش إتصال الطفل مع محيطه، والألعاب، وكل ما يتعلق ببدء التأهيل الإجتماعي. إن إستمرارية القصور العاطفي قد تؤدي إلى نكوص في المكتسبات الحركية (المشي) وتظهر النماذج البدائية (التمايل). وفي مرحلة لاحقة تتأثر الوظائف الغذائية (الهضم والتنفس) وضعف الدفاعات الفيزيولوجية مما يعرض الولد للضغط وللإصابة بالأمراض.

ولكن النتائج الأكثر خطوره للحرمان العاطفي للطفل تظهر على الصعيد النفسي، إن النقص العاطفي قد يؤدي إلى تأخر الذكاء، حيث تضعف طاقة تكوين المفاهيم والتجريد عند الطفل، التأخر اللغوي يشوش علاقات الطفل مع الغير

ويمكن إعتبارها كعامل أساسي لعدم التكيف [1].

لقد لاحظ فرويد أن العلاقة المتبادلة بين الأم والولد تتأثر إلى حدٍّ كبير بحالة الأم النفسية.

إن المرأة غير المرضاة جنسياً يمكن أن يكون لها سلوك حنان مفرط وقلق تجاه طفلها، فهي تسقط عليه حاجاتها للعطف وقد تـوقظ عنده البلوغ الجنسي المبكر. إن العلاقة السيئة بين الأهل تؤثر على الحياة العاطفية للولد مما يجعله يعبر منذ سن مبكرة عن مشاعر حادة من الحب والكره والغيرة. كذلك فإن التربية القاسية التي تقمع مشاعر الطفل قد يكون من نتائجه العصاب لاحقاً، وهو قد يمتد طيلة الحياة.

أمـا ليڤي Levy فقد فتش عن الـدوافع الـلاواعية وراء التصـرف المفـرط بالحماية للأم اتجاه طفلها. فالقساوة والقلق أو العطف المستمر يمكن أن تكون ناتجة عن القلق والعداء مما يدفع الأم على إشباع عدم الإرضاء الأساسي الذي تشعر به الأم في علاقاتها بالطفل.

يمكننا القول أن البلوغ العاطفـي للأم وقدرتها على التكيف بفعاليـة مع حاجات الولد هي العامل الأساسي التي تمكن الجانب العاطفي للطفل أن يتطور وينمو بشكل مرضي وطبيعي.

٣ ـ النمو المبكر للوعي عند الولد

إن الوعي للكائن يتكون من خلال العلاقات الأولى للتفاعل مـع الأهل، حسب فرويد الطفل يُدخل «Inferiorise»الأهل: أي يمتصهم داخل جسمه، إنهم يصبحون جزءاً متمايزاً من الأنا عنده. الأنا الأعلى الذي يمثل باقي الأنا يتعارض مع دوافع الطفل ورغباته الليبدوية و يشكل الكبت للرغبات الجانب اللاواعي.

فرويد يبين أن الأنا الأعلى يمارس تأثيراً لا واعياً وغالباً مرهق ويشكل عاملاً

---

(١) سمير نوف مرجع سابق ص ١٦٥.

أساسياً للمرض النفسي مما يؤثر على نمو الشخصية.

إن الأنا الأعلى عند الطفل يتميز ويختلف عن الأنا الأعلى للأهل بمظاهر مختلفة، إن الأنا الأعلى للطفل يتميز بالهوام الخيالي والتزوير، إن تخيلات الطفل من أنه يلاحق من قبل حيوان مفترس أو شخص يطارده يثير لديه شعوراً، بالرعب،

القصص التي يسمعها «الذئب يأكل الأطفال». التنين يلفظ النار، قصص الحب والمغامرات، تترك آثارها في تخيلات الولد النفسية وتؤثر عليه تأثيراً لا واعياً.

إن التحليل النفسي كشف أن المواضيع الحقيقية التي تختفي خلف هذه الصور الخيالية غالباً ما ترمز إلى الأهل، السمات والصفات الأساسية للحيوانات والمخلوقات الخيالية تعكس بشكل أو بآخر السمات الأساسية للأهل (الأب والأم)[١].

إن التحليل النفسي للولد يعتبر أن قبولنا للفرضية التي تعتقد أن الهوام الخيالي والخوف من الحيوانات المفترسة والأشباح تعود في جذورها إلى الأهل، يوصلنا إلى النتائج التالية:

١ ـ إن الأنا الأعلى للولد لا يتطابق مع الأنا الأعلى للأهل، ولكنه يتكون من خلال الأطر الخيالية أو الصور التي كانت قد تكونت لديه سابقاً من خلال الإمتصاص داخل ذاته.

٢ ـ خوف الولد من المواضيع الحقيقية (الأهل). القلق والهوام من المخاوف (Phobies)يرتكز في الأساس على الخوف الذي يتضمنه الأنا الأعلى والذي من سماته إنه غير واقعي وغير موضوعي.

هذه الفرضيات تقودنا إلى الموضوع الأساسي:

كيف يتم تكوين الأنا الأعلى؟ كيف يكوّن الولد صوراً خيالية ووهمية عن أهله بعيدة عن الواقع؟

(١) Klein, Melanie OP. cit PP 263 — 268.

الجواب يكمن في الوقائع التي يكشف عنها التحليل النفسي للولـد، إن الغوص إلى طبقات النفس العميقة للولد تكشف القلق الكبير الذي يعاني منه. إن مخاوف الولد من الهوامات الخيالية التي تثير لديه الرعب مردّها الدوافع العدوانية المكبوتة للطفل، إذن نستطيع أن نكشف العلاقة السببية بين مخاوف الولد وبين ميوله العدوانية.

يعتبر فرويد في كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» إنه في بداية الحيـاة العضويـة للكائن الإنساني، طاقة الليبدو أو دافع الحياة «Eros»تتعارض مع دافع العدوان أو دافع الموت وترتبط معه. إنصهار الدافعين يؤدي إلى ولادة السادية. في سبيـل التخلص من دافع الفناء والهدم الملازم لغريزة الموت، العضوية تستعمل طاقة الليبدو وعلى النمط النرجسي، أي بمعنى الإرتداد نحو الذات. يعتبر فرويد أن هذا النسق النفسي هو الأساس في علاقات الطفل السادية بالأشياء، يضيف فرويد إنه من نتيجة ارتداد دافع الموت نحو الخارج والأشياء تتكون لدى الطفل آلية نفسية دفاعية ضد الجزء الباقي من الدافـع الذي لم يتمظهر نحو الخارج. إن الخطر من الفناء الناتج عن الدافع العدواني يؤدي إلى توتر في الأنا والذي يبدو كمظهر من مظاهر القلق.

منذ البداية الأولى لنمو الأنا، حيث الليبدو يتحرك من خلال الأنا لمواجهة دافع الموت والغناء، إن الأنا لا يتسطيع أن يقوم بهذا الدور إلا جزئياً. لإن إنصهار دافعي الحياة والموت يمنعه من فصل الواحد عن الآخر. التقسيم لدافعي الحياة والموت يحصل في الهو، حيث تنطلق الدوافع النفسية، وبفضل الأنا جزءاً من هذه الدوافع يوجه ضد الآخر.

هذه المستوى من آليات الدفاع للأنا يشكل القاعدة الأسـاسية لنمـو الأنا الأعلى العنف الذي يظهر عند الطفل خلال هذه المرحلة المبكرة يمكن ردّه إلى الدوافع الهدامة والميول العدوانية.

هذا التفسير للتحليل النفسي يمكننا من فهم السبب الذي يؤدي بالولد إلى تكوين التخيلات والهوامات الخيالية عن الأهل. إن الطفل يعتقد أن القلق الناتج

عن الدوافع العدوانية سببه موضوع خارجي وغالباً ما يرمز إلى الأهل. ويجعل من هذا الموضوع الهدف الخارجي لدوافعه العدوانية إن الخوف والقلق الهوامي عند الطفل تصبح موازية لقوة ميوله السادية الخاصة.

إن المشكلة ليست بهذه البساطة والسهولة من تحويل كمية من السادية إلى كمية تابعة لها من القلق، إن الخوف والقلق الذي يشعر به الولد أمام المواضيع والإعتداءات الهوامية والخيالية التي تواجهه، تعود في جذورها إلى الميول والأوهام العدوانية والتي من خلالها يواجه محيطه.

بعد هذا العرض، يستنتج أصحاب التحليل النفسي أن تكوين الأنا الأعلى عند الطفل يبدأ في ذات اللحظة التي ينجز فيها الطفل استدخال المواضيع بواسطة المص الفمي. هذه المرحلة من النمو تتميز بصور من العنف السادي، والتي سوف تسقط (projette)من جديد على المواضيع الخارجية، الطفل في هذه المرحلة يعاني من خوفٍ مزدوج، الخوف من الدوافع العدوانية والخوف من هوامات وتخيلات الأنا الأعلى.

القلق عند الطفل يدفع ميوله العدوانية لهدم الأشياء والتخلص من عدوانيتها. إن القلق عنده يدفعه إذن إلى هدم موضوعه مما يؤدي به إلى زيادة قلقه، والذي يضغط من جديد للإعتداء على موضوعه. هذه الآلية النفسية والتي تأخذ شكل الحلقة المفرغة تعتبر الأساس في عدم تكيف الطفل الإجتماعي والسبب في ميول الإنحراف. أصحاب التحليل النفسي للولد حسب هذا التفسير يعتبرون أن سبب الشذوذ والإنحراف للولد سببه قسوة ووحشية وطغيان الأنا الأعلى، وليس ضعف وغياب الأنا الأعلى كما يعتقد البعض.

في مرحلة لاحقة من النمو النفسي عند الولد، الخوف عند الأنا الأعلى يدفع الأنا للإرتداد عن الموضوع المسبب للقلق. هذه الآلية من الدفاع تدفع الولد إلى تشويه العلاقة مع الموضوع.

عندما تبدأ المرحلة الجنسية، الدوافع السادية عند الولد تتراجع وتنهزم

خلال النمو الطبيعي، وتصبح علاقة الولد بالأشياء إيجابية، إن التقدم والتطور في النمو يرافقه تغييرات في طبيعة الأنا الأعلى، لإنه بقدر ما تنخفض الميول السادية عند الولد بقدر ما تزول عنده صور الهوام الخيالي، لإنها كما أشرنا هي حصيلة الميول العدوانية والسادية.

لقد تكلم فرويد عن المثل الأعلى للأنا. وهو ركن مستقل يتكون من التقييم النرجسي والتماهي بالوالدين، وهو يقترح بذلك على الفرد صورة عن نفسه تشكل نموذجاً يستطيع الفرد أن يتكيف معه. فالأنا الأعلى كركن مراقب يظهر مع الأوديب واستدخال الممنوعات للأهل، فالمثل الأعلى للأنا يدعم الفرد ويقابله بصورة عن الذات يمكن للآخر أن يحبها ويرغبها، فالولد يجب أن يخضع في رغباته ليس فقط إلى صورته النرجسية، بل أيضاً إلى الصورة التي يعكسها رغبة الوالدين. وهكذا يتكون الأنا الأعلى حسب فرويد من الممنوعات والأحكام الأخلاقية كركن مستقل نسبياً. إن الأنا الأعلى للولد يتكون على صورة الأنا الأعلى للوالـــدين.

ويجب إعتبار الأنا الأعلى على أنه تماهي بركن الوالدين و ليس تماهياً بسيطاً بالولدين. فالمثل الأعلى للأنا والأنا الأعلى يمكن اعتبارهما كتشكيلين متكاملين: واحـد يمثل الصفـات المطـلوبـة من الحب، والآخـر المتـطلبـات المنبثقـة من الممنوعات.

إن الأنا الأعلى يتكون بدمج القيم التي تحملها الثقافة: المعايير الأخلاقية والدينية والتربوية. ولكن ما تجدر الإشارة له أن الأنا الأعلى يعكس عمل الهوامات اللاواعية وليس الدافع الثقافي العادي.

إن الأنا الأعلى بعد أن كان قوة مهدّدة تعطي الأوامر الغامضة والمتناقضة. نراه يبدأ في إنجاز دوراً أكثر إيجابية في التعبير عن الرغبات والمتطلبات القابلة للتحقيق. إن الأنا الأعلى يتحول تدريجياً إلى حاله من الوعي.

حسب فرويد التحول في خصائص الأنا الأعلى. وتأثيره على الأنا وعلى آلية الدفاع يحوّل القسوة والعدوانية إلى مشاعر من الشفقة والرحمة.

إن الوظيفة الأساسية للأنا الأعلى هو إستنهاض وإيقاظ القلق. والذي يستدعي بدوره آليات الدفاع عند الأنا. إن الآليات الدفاعية للأنا تشكل القاعدة الأساسية لتكوين الإطار الخلقي والإجتماعي عند الولد، حيث يبدأ باختيار المواضيع من خلال الإنفتاح على الوسط الإجتماعي والتي تتلاءم مع القيم والمشاعر الإجتماعية.

هذه الإستنتاجات يمكن ملاحظتها من خلال لعب الأولاد حيث أن الهوام الخيالي عنده يرتبط بطبيعة اللعب، وتتكون علاقة بين الهوام الخيالي والقلق. من خلال تحليل محتوى القلق. نستطيع رؤية الميول والهوامات العدوانية.

هذه اللوحة تبرز أطروحة فرويد حول دافع الحياة خلال الحرب وموقفه في مواجهة دافع الموت، أو الدافع العدواني. إننا نعلم العلاقة الوثيقة والتأثير المتبادل بين هذين الدافعين، إن التحليل النفسي للولد لا يمكنه من الوصول إلى غايته إذا لم يتناول الهوامات العدوانية للولد في كل تفاصيلها في سبيل التخفيف من تأثيرها. حيث أن هدف التحليل هو تتبع الهوامات الليبدوية والكشف عن جذورها العميقة.

فيما يختص بالمحتوى والهدف الأساسي لهذه الهوامات. فرويد وإبراهام يعتبران أنه يتم خلال المراحل الأولى للنمو ما قبل الجنسي، يتم الأنصهار بين طاقة الليبدو والدوافع العدوانية مع الميول السادية للولد.

التحليل النفسي للبالغ يبين إنه خلال المرحلة السادية ـ الفمية التي تتبع المرحلة الفمية للمص، الطفل يمر بالمرحلة التي تسمى «Cannibaliqur»أي مرحلة النهش والعض وإلتهام اللحوم وهي ما تميز الإنسان في المرحلة البدائية، ما يزال يرتبط بهذه المرحلة عدداً كبيراً من الهوامات الوحشية. هذه الهوامات تظهر عند الطفل خلال فترة الرضاعة وبروز الأسنان حيث تظهر لديه الرغبة العدوانية في عض حلمة الثدي. إن المشكلة هنا تبدو ليس فقط تحقيق رغبة بدائية في الغذاء، إنها وسيلة لإشباع الميول العدوانية والهدامة عند الولد.

إن التحليل النفسي يساعد الولد على التخلص من هوامات القلق، لتحل محلها الميول الإيجابية والبناءة. الولد يظهر الميول الإيجابية من خلال اللعب. الرسم، الكتابة، علاقات الولد بأهله تتغير، هذه التحولات في دوافع الولد تدل على التطور والتقدم في علاقة الولد بالمواضيع الخارجية والتي تساهم بدورها في تنمية الحس الإجتماعي لديه.

إن ميلاني كلاين تعتبر أن اللعب يعبر عن الهوامات الجنسية اللاواعية عند الولد، ولكن بشكل رمزي وحركي، إن اللعب يتعدى اللعب ويبرز علاقته بالمواضيع الليبدوية. إن الولد يمكن أن يستخدم الرسم ليمثل على هواه حوادث حقيقية أو قصصاً خيالية يمكنها أن تستخدم مدخلاً لتداعيات الحرّة.

لقد كانت ميلاني كلاين تضع بتصرف الولد ألعاباً تمثل أشخاصاً وحيوانات وبيوتاً وسيارات، وهي أدوات تعطي صورة مصغرة عن عالم الأطفال. فنشاط اللعب عند الولد يعبّر عن الدوافع الغريزية والعدوانية والجنسية.

إن التسامي بالدوافع يتعلق بتغيير موضوع وهدف الدافع. فحاجة الإستئثار تستبدل باكتساب المعارف، والفضول الجنسي يستبدل بالبحث الفكري، التنافس المدرسي يحل محل التنافس الأوديبي.

هذا التسامي يشكل بالنسبة لفرويد «أحد أهم العوامل لإكتساب الحضارة[1].

---

(١) Freud «Cinq lecons sur la psychanalyse» OP. cit P 145.

الفصل الخامس

العصاب النفسي عند الولد

إن العصاب النفسي هو عبارة عن التأزم في العلاقة بين الدافع الغـريزي الليبدوي ووظائف الـرقابـة للأنـا الأعلى. إن الوسط الخـارجي عندمـا يعترض متطلبات الدوافع الغريزية أو يحد من إمكانية إشباعها. فإن الدافع سوف يكبت بشكل لا واعـي، ولكنه لا يخسر من حدته: فهو يعود للظهور في حياة الفرد عندما تنتفي الرقابة (الأحلام، التداعيات الحرّة، الأفعال المغلوطـة)، وهذا مـا يسميه فرويد «عودة المكبوت».

إن فـرويد خـلال تحليله العيادي للطفـل هانس الـذي يبلغ من العمر ٥ سنوات، يظهر العصاب الخوافي عند هانس، مما جعل فرويد يؤكد نظرية الحياة الجنسية الطفلية، إن المأزم النفسي عند الولد يؤثر على بنيته النفسانية، لأن الولد من جهة لا يملك إلا القليل من الوسائل لتغيير الظروف التي يعيش فيها، لذلك لا يستطيع أن يؤثر على الوسط ويجعله ملائماً لرغباته، ومن جهة أخرى فإن الولد، بسبب عدم تسلحه بالوظائف المعرفية فإنه لا يتحمل الإحباطات التي يفرضها عليه الوسط، لذلك فإن الولد لا يستطيع أن يحل المأزم النفسي الناشىء من التناقض بين دوافعه الغريزية ومتطلبات الواقع، من هنا تبرز أهمية التحليل النفساني في الكشف عن اللاوعي.

إن الإكتشاف الأساسي لفرويد في علم النفس هـو إدخال الـلاوعي كبعد رئيسي في تفسير الظواهر النفسية، «إن اللاوعي حسب فرويد، هو كل نسق نفسي تدل مظاهره على وجوده، بينما لا نعلم عنه شيئاً رغم إنه يحدث فيناً. وفـرويد

بإدخاله مفهوم اللاوعي، يؤكد على أن الظواهر الواعية لا تشكل إلا القسم السطحي من الحياة النفسية.

١ ـ الهوامات اللاواعية وتأثيرها على النمو النفسي للطفل:

يعتبر فرويد أن المراحل التي يمر بها الطفل خلال نموه تعود وتظهر من جديد عندما يبلغ مرحلة «النضج» إن اللاوعي الذي يحوي الميول والصور الخيالية المكبوتة، يتأثر بالأنا الأعلى.

إن تطور الفرد على الصعيد النفسي يشبه إلى حدٍّ كبير التطور البيولوجي للكائن، إن اللاوعي الإنساني يتضمن الجانب الذي تلاحظه عند الشعوب البدائية: مثل الرغبة في أكل لحوم البشر «Cannibalisme»والميول المختلفة للقتل. هذا الجزء البدائي من الشخصية يتعارض جذرياً مع الجزء المتحضر الذي يعتبر الأساس في نشؤ الكبت.

ميلا ني كلاين خلال تحليلها للأولاد وجدت أن الأنا الأعلى يتكون إبتداءً من عمر السنة الثانية، حيث أن الطفل في هذه العمر يكون قد إجتاز عدة مراحل لنموه النفسي، لقد تجاوز التثبيت للمرحلة الفمية، والتي تتميز بالتثبيت الفمي للمص والعض والنهش، هذه السمة الأخيرة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالميول العدوانية لأكل لحوم البشر.

من الميول التي تلعب دوراً أساسياً في النمو النفسي للطفل هي الميول السادية ـ فمية والميول السادية ـ شرجية.

إن الأنا الأعلى للطفل يبدأ بالتكوين كما قلنا إبتداءً من السنة الثانية. والذي يساهم في ظهوره هو بروز عقدة أوديب التي تلعب الدور الأساسي في تنمية الشخصية.

ما الذي يساهم في بروز الميول العدوانية عند الطفل؟

إن بروز عقدة أوديب، وما يرافقها من مراحل السادية ـ الفمية، والسادية ـ الشرجية، تثير لدى الطفل شعوراً بكراهية الأب الذي ينافسه على حب الأم. هذا

الشعور بالكراهية والعدوانية والهوامات الخيالية الناتجة عن التثبيت السادي ـ فمي والسادي ـ شرجي كانت تظهر خلال التحليل النفسي للأولاد.

سوف نعرض حالة لولد له من العمر ٤ سنوات، إنه طبيعي. سعيد في مظهره الخارجي، ولا يبدو أنه يعاني من القلق، أخضع للتحليل لأسباب وقائية:

أثناء التحليل لاحظ المحلل أن الولد كان يعاني من عصاب يرهقه، من الأشياء التي كانت تقلقه والتي تم كشفها خلال التحليل الهوام الخيالي لحيوان.

التحليل اكتشف أن الحيوان لم يكن بالواقع إلا إنساناً. هذا الحيوان كان يحدث ضجة مزعجة في الغرفة المجاورة لمكان نوم الطفل، بالحقيقة الحيوان يرمز إلى الأب الذي كان الطفل يسمعه في غرفة النوم المجاورة. الطفل كانت لديه رغبة الدخول إلى الغرفة، وأن يقتل الحيوان، هذه الرغبة أثارت لديه الخوف أن يعامل من قبل الحيوان نفس المعاملة.

الطفل كان لديه لعبة تمثل نمراً صغيراً، ويعتقد أن هذا النمر يحميه من الحيوان في الغرفة المجاورة، أحياناً النمر لم يكن للحماية فقط، ولكن الطفل كان يرغب أن يرسل النمر إلى الغرفة المجاورة لإشباع رغباته العدوانية ضد الأب، ضد قضيب الأب، الرغبة العدوانية ناتجة من التثبيت الفمي للولد لمرحلة المص والعض، ومن جهة أخرى، وسيلة لقهر العدو من خلال إستعمال الأسنان بطريقة بدائية.

الجزء البدائي من الشخصية يتمثل هنا بالتحرر والذي كان يمثل فيما بعد الطفل نفسه، أو بالأحرى جزءاً منه، إن الجزء المتحضر من شخصية الطفل كان يعاقبه على هذه الهلوسات والهوامات الخيالية، مما كانت تؤدي إلى إرهاق الطفل نفسياً.

إن التحليل النفسي أظهر أن كبت الطفل حبه لأمه هو الذي كان يدفع

---

(١) إن مشاركة الطفل غرفة نوم الأهل. وملاحظة العملية الجنسية. هي من العوامل الأساسية في نشؤ الهوامات الخيالية لديه.

اللاوعي بالميول والصور العدوانية اتجاه الأب. رغم أن الطفل على صعيد الواقع يبدي الحب والتقدير والإحترام للأب.

هناك حالة ثانية لبنت صغيرة، رغبة البنت اللاواعية في الحلول مكان الأم في الإستحواذ على الأب، كانت تثير لديها هواما وخيالات من السادية المتنوعة. كان لدى الطفلة تخيلات في تشويه جمال الأم. هذه الرغبة تستنهض لدى الطفلة شعوراً قوياً بالذنب، من نتائجه زيادة حدّة التثبيت بالأم. خلال الفترة من العمر الممتدة ما بين ٢ ـ ٥ سنوات، غالباً ما نرى أن الفتيات الصغيرات يظهرن عاطفة قوية اتجاه الأم، ولكن حسب التحليل النفسي التعلق القوي بالأم يرتكز بجزء كبير منه على الشعور بالذنب، من نتائجه ابتعاد الطفل عن الأب، هذا الموقف النفسي المعقد يزداد تعقيداً خلال المواجهة مع الأنا الأعلى. الطفل يستجيب لميوله الجنسية المثلية، . هذا ما نسميه عقدة أوديب «مقلوبة» هذا الموقف يبدو بتثبيت قوي للبنت نحو الأم. وبتثبيت للصبي نحو الأب، ثم تأتي المرحلة اللاحقة حيث أن علاقة الطفل بالأهل تستبدل بشخصية إجتماعية أخرى. إن علاقة الطفل بالأهل تحدد لديه نمط العلاقات الإجتماعية وخصوصاً العلاقة بأخوته، التحليل النفسي يظهر أن الطفل الذي يعاني من الحسد إتجاه إخوته الأكبر سناً، هذا الشعور ناتج عن المعرفة اللاواعية لموضوع الولادة، الحسد يثير لدى الطفل كراهية قوية ضد الطفل الموجود داخل بطن الأم، ويثير لديه التخيلات العدوانية والرغبة في بقر بطن الأم وخنق الولد الموجود في داخله.

هذه الرغبة السادية عند الطفل تجاه الجنين تستنهض أيضاً ميولاً عدوانية تجاه الأخوة الأكبر منه، لأن الطفل يشعر بأنه محتقر ومنبوذ من قبل إخوته الأكبر سناً، من جهة أخرى، هذا الشعور بالكراهية والحسد تثير لدى الطفل شعوراً قوياً بالذنب، مما يؤثر على علاقات الطفل بأخوته.

إن الطفل الذي يملك لعبة صغيرة. ، نراه يعتني بها ويعاملها بحنان، إن اللعبة تمثل بنظره الأخ الأصغر، إن الأنا الأعلى لديه يثير تخيلات باتهام اللعبة بأنها كانت ترغب بإيذاء الجنين داخل الأم.

إن الموضوع الذي يثير الكراهية عند الطفل، هو نفسه موضوع حبه، الصراع بين الحب والكراهية يرهق الأنا الضعيف للطفل، الحلّ الوحيد لإزالة التوتر الناتج عن هذا الصراع هو الهروب من الواقع المؤلم بواسطة الكبت. ولكن الصراع يظل قوياً وحاداً في اللاوعي.

إن علم النفس وعلم التربية كان لديهما الإعتقاد أن الطفل هو كائن سعيد، لا يعاني من الصراع. وكانا يُعتبران أن معاناة الكبار ناتجة عن الإرهاق من الواقع المعاش.

التحليل النفسي أظهر أن العكس هو الصحيح، أي بمعنى أن معاناة الطفولة هي الأساس في المعاناة خلال مراحل النمو اللاحقة.

هدف وغاية التحليل النفسي للطفل هو التسامي بالميول العدوانية والهدامة، وذلك من خلال حلّ عقدة التثبيت (السادي - فمي والسادي - شرجي) وما تثيره من هوامات خيالية.

إن التحليل النفسي يعتمد على وسائل وتقنيات تحليلية ولا يعتمد في العلاج على النصائح والإرشاد.

إن التحليل النفسي يبين أن الأهل هم الأساس في نشؤ وتكوين الأنا الأعلى للطفل. إن الهوامات الخيالية السادية للطفل تكوّن جزءاً أساسياً من الأنا الأعلى عنده، إن الكبت القاسي يجعل الطفل يعاني من الصراع للدوافع الداخلية. الهوامات الخيالية تعاني من ضغط الكبت حتى أثناء اللعب[1].

هنا نطرح السؤال التالي: كيف يعبر الطفل عن معاناته الداخلية؟ نلاحظ غالباً أن من الوسائل التي يستعملها الطفل للمواساة هي وسيلة البكاء، الطفل يستعمل هذه الوسيلة كملجأ للهروب من الواقع، الطفل لا يأخذ من الواقع إلا ما هو بنظره ضروري، لذلك فإن الطفل يعاني من الصعاب في تعامله مع الواقع. صراع في بداية دخوله للمدرسة.

---

(١) فرويد، الموجز في التحليل النفسي، مرجع سابق - ص ١٦.

كما قلنا سابقاً، إن الهروب أمام الواقع، هو من الآليات التي تظهر خلال مراحل النمو للطفولة. ولكن مع اختلاف في الدرجة، إن الهروب من الواقع يعتبر كعامل مهيء للعصاب النفسي عند الطفل، لإن التحليل يكشف أن الكبت القاسي والمبكر للطفل يؤدي إلى كبح التصورات والتخيلات عند الطفل ويمنع ويعيق آلية التسامي لديه، إن التسامي هو من الآليات الأساسية للتخلص من الدوافع العدوانية والسادية عند الطفل، من الوسائل المهمة للتسامي هي الألعاب الرياضية لإنها تعويض عن القلق. والنجاح في الدراسة.

إن الرياضة تولد شعوراً لدى الطفل أثناء ممارسته للرياضة أنه لن يستسلم ويزرح أمام العدو والمعتدى.

إن التحليل النفسي كشف أن القلق والشعور بالذنب هي من العوامل الأساسية التي تدفع الطفل أو الولد خلال مرحلة المراهقة إلى ارتكاب الجرائم والجنح «delits»حسب ميلاني كلاين إن الدوافع للإنحراف ليس غياب الأنا الأعلى. ولكن نموه وتكوينه بشكل غير طبيعي، أي بمعنى التثبيت الذي يحدث خلال مراحل النمو المختلفة.

٢ ـ الهوام والقلق اللاواعي عند ميلاني كلاين.

تعتبر ميلاني كلاين أن القلق والهوام النفسي هو الأساس لكل حياة نفسية، الهوام وسيلة لرقابة القلق وتحقيق الإرضاء الخيالي للرغبة: رغبة إستدخال نهد الأم، رغبة العدوانية ضد الأم التي ينظر إليها كمحبطة، الهوامات الخيالية تمثل نشاطاً بدائياً للحياة العقلية التي لا تجد صياغة لغوية وكلامية إلا في مرحلة لاحقة من النمو.

الهوامات الخيالية الأولية للطفولة الأولى تولد إذن من الدوافع الفسيويولوجية وتمتزج بعدها بالمؤثرات المادية.

إن الهوامات الأولى للطفل تبدأ من خلال العلاقات التي يقيمها الطفل مع نهد الأم من خلال حاجته للغذاء. فالطفل يبدأ بهوام الحلمة، ثم النهد وفيما بعد

شخص الأم من أجل لذته. وتجدر الاشارة أن الهوامات تنتمي لتجربة جسدية معاشه.

إن النمو النفسي للطفل يرتكز عن عدد كبير من المؤثرات النفسية. منها ما هو خارجي ومنها ما هو داخلي، المؤشرات الخارجية التي لا تشبع رغبات الطفل وحاجلته فإنها ترفض وتبغض. الاحباطات الأولى تؤدي إلى تخفيف التوتر الداخلي من خلال الارضاء الهواسي للرغبة التي تولد الهوامات البدائية. الارضاء الهواسي يشكل الآلية الأولى للتكيف مع الواقع، ويساهم بذلك في نمو الأنا[١].

نلاحظ أن المواضيع الجيدة والحسنة تمثل جذباً للدوافع الليبدوية، بينما المواضيع السيئة والمحبطة، تتوافق مع دوافع التدمير، فنهد الأم، بقدر ما يشبع الحاجات والدوافع، يصبح المرتكز الهوامي للموضوع الحسن، في المرحلة السادية، الفمية يتعرض الولد لاحباطات فمية تثير لديه ألماً بقدر ما تكون الحاجات الفمية ملحة ومشحونة بالعدوانية: فنهد الأم، المرتكز الهوامي للإحباط، يصبح الموضوع السيء الذي بشكل سنداً للدوافع والهوامات الهدامة.

فالنهد السيء يلعب بالنسبة للطفل دور المحبط، وإليه تتجه عدوانية الطفل.

إن المشاعر الحسنة والسيئة عند الطفل لا تأتي من نهدٍ حسن أو نهد سيء، من أم صالحة أو أم سيئة، ولكن الأم تجمع في ذات الوقت ما هو حسن وما هو سيء.

إن التركز الليبدوي للوظائف الفسيولوجية المختلفة عند الطفل خلال مراحل النمو المختلفة تجعل الطفل يتخلص من الصورة الاتحادية التي تمثلها ثنائية الأم، الطفل. الطفل يبدأ بإدراك جسده ككيان مستقل وموحد عن جسد الأم. إن صورة الجسد عند الطفل ترتبط إرتباطاً وثيقاً بنمو الأنا وخاصة من خلال آليات الادراك واختبار الواقع. يعتبر فرويد أن الادراك عند الطفل يساهم في نمو الأنا عنده، إن الجسد يشكل على مستوى السطح والداخل مصدراً للإدراك الخارجي والداخلي.

(١) Klein, Melanie, OP. cit P 22q — 241.

إن المعرفة الجيدة للأعضاء يعطي فكرة عن تصور الجسد بشكل عام. إن صورتنا عن الجسد تتكون من خلال الأحاسيس الداخلية، ومن التفاعل مع العالم الخارجي.

إن التفاعل بين الطفل والأهل يساهم في تطور العلاقات الغيرية. هذا التطور يفترض مساهمات عاطفية وحسية قد يؤدي فقدانها إلى أعراض إحباطية.

يعتبر ليدز أن الإستعداد للكلام عند الطفل هو فطري، . ولكن الشكل الذي تتكون فيه اللغة وتتطور يرتبط بكيفية مواجهة الولد وإدراكه للحقيقة الخارجية.

إن إكتساب المدلولات اللفظية لا يتعلق فقط بالبلوغ الجسدي، ولكنه يرتكز إلى حدٍّ بعيد، على طبيعة التجربة المعاشة.

إن التفاعل العصابي للأهل مع الولد، يؤدي إلى الإبهام اللغوي الذي يقوي عنده التفكك في الدائرة العاطفية.

إذا لم تدرك الأم الحاجات العاطفية لولدها فإنها تصبح غير قادرة على الإتصال معه. فقد تعامل الأم الولد إنطلاقاً من حاجاتها الخاصة ودفاعاتها العصابية. فهي مثلاً تغذية أو تلبسه حسب أحاسيسها الخاصة بالجوع أو الحرارة، دون أن تأخذ بعين الإعتبار الحاجات الحقيقية للولد.

إن الأم التي لا تستطيع أن تميز بين أناها وأنا الولد. أن مثل هذا الموقف لا يسمح للولد بأن يثق بأحاسيسه الفسيولوجية الخاصة. يحدث نفس الشيء عندما يعمد الأهل إلى المحافظة على صوره معينة لهم، أو إلى إخفاء وضعية عائلية معينة يريدون تغطيتها. فأي كلام إذ ذاك يصبح مناقضاً للواقع. فالولد قد يفقد الثقة بالكلمات المستخدمة من قبل الأهل، أو يشكك بمقدرته على الفهم، إذا كانت كلمات الراشدين تناقض سلوكهم أو إذا كانت الوعود المعقودة لا تنفذ، فإن الولد يفقد الثقة بقيمة الإتصال.

٣ ـ القلق الطفولي وإنعكاسه في العمل الفني والخلق الإبداعي

سوف نعرض بعض المشاهد من مسرحية راڤيل «Ravel»والتي عرضت في ڤينا والتي تناولها بالنقد الأديب إدوار يعقوب.

صبي عمره ست سنوات، يجد صعوبة في كتابه واجباته المدرسية، لا يستطيع أن يفعل شيء، يعضّ القلم، ملامح الكسل تبدو على وجهه، الضجر عنده تحول إلى هم (Cafard)يصرخ الصبي بصوت موسيقي ناعم: «لا أرغب أن أفعل هذه الواجبات المدرسية السخيفة» «أريد أن أتنزه في الحديقة،» «أريد أن آكل كل كاتو العالم» «أن أجر الهرّ من ذيله» «أن أنزع ريش الببغاء» «أن أوبخ الناس». «أن أضع أمي في الزاوية».

تفتح الستارة، يظهر الولد على المسرح بقامته الصغيرة، التنورة والمريول ترمزان إلى الأم، يد الأم تشير إلى الطاولة وصوت ناعم بلهجة عاطفية يسأل إذا ما كان الولد قد أنجز واجباته المدرسية، الولد يتحرك على الكرسي معبراً عن رفضه، ويمد لسانه بسخرية إلى أمه، تغادر الأم المسرح من خلال تحرك التنورة، ونسمع كلمات الأم موجهة نحو الصبي: سوف لن تحصل إلا على الخبز الناشف، الشاي بدون سكر، يُظهر الولد غضبه الشديد: ينهض عن الطاولة بقفزة واحدة، يطرق بغضب على الباب، يكنس بيديه وبحركة سريعة ما هو موجود على الطاولة، وعاء الشاي ينكسر إلى قطع صغيرة، يتسلق على المقعد، يفتح باب القفص محاولاً ضرب السنجاب الموجود في داخله، يهرب السنجاب من النافذة، يقفز الولد عن المقعد يركض وراء الهر محاولاً إمساكه، ينبح، يحرّك بغضب جمر المدخنة، الدخان يتصاعد من الغرفة، يمزق ورق جدران الغرفة، يفتح ساعة الحائط وينزع الهزّاز، يضع حبراً على الطاولة. الكتب والدفاتر تتطاير في الهواء، نسمع هتافاً من الفرح.

في المشهد الثاني، نرى أن الأشياء التي أساء الصبي لها تتفاعل معه ككائنات حية، المقعد يرفض أن يستقبل الصبي، الطاولة، الكرسي، المقعد،

الأريكة، ترفع الأيدي صارخة: «إخرج من هنا إنك ولد سيء».

ساعة الحائط تعبر عن الألم في معدتها، بدقات مجنونة، وعاء الشاي ينحني فوق الكوب، كل ما يحيط بالولد يتصرف بشكل مرعب، الولد يتراجع إلى الوراء يسند ظهره إلى الحائط. يرتجف من الخوف واليأس، المدفئة تبصق على الولد شرارات نارية، يختبيء الولد وراء الأثاث، بقايا السجادة الممزقة تنتصب وتبدو عليها صورة الراعي والغنم، ناي الراعي يعزف ألحاناً فيها شكوى وألم، من بين دفتي الكتاب يخرج رجلاً عجوز، قزم، ملابسه مصنوعة من الأرقام، يمسك مسطرة، إنه الفكر الرياضي يحاول أن يمتحن الولد، يقع الولد مغمياً علينه، تنهار قواه، يلجأ الولد إلى الحديقة التي تحيط بالمنزل، هناك يرى أشياء مخيفة: حشرات، ضفادع، جزع شجرة مجروح يسيل منه الصمغ نقطة نقطة، ذباب، الجميع يهاجمون الولد الدخيل البوم، الهررة، السناجب. تتسارع نحو الولد وتتصارع من أجل إفتراس هذا الولد المنحط، سنجاب مجروح بنهشه أسنان يقع بالقرب من الولد، بدون تفكير، ينزع الولد منديله، يربط به رجل الحيوان الصغير، الحيوانات المهاجمة يعتريها الذهول،

الولد يتمتم على المسرح «أمي» يعود الولد إلى العالم الإنساني، عاقل، لطيف، يقدم المساعدة، ويتصرف بشكل جيد، الحيوانات تغني، تترك المسرح، هادئة وسط موسيقى ناعمة.

التحليل النفسي يعتبر إنه إذا فحصنا أفعال الولد الذي يعبر فيها عن الفرح في الهدم والتخريب، يذكرنا ذلك بالطفولة الأولى. العصاب الطفولي خلال مرحلة النمو، الهجوم ضد جسم الأم وقضيب الأب الموجود في داخله. السنجاب الذي يقفز ورقاص الساعة المنزوع إنها رموز لقضيب الرجل داخل جسم الأم، أخيراً ما هي الوسائل التي يستعملها الولد للإنتقام من الأهل؟ الحبر المسكوب على الطاولة، التكسير، التمزيق، إستعمال الملاقط كالسيف، إنها ترمز إلى السادية عند الولد، يضاف الأسنان والأظافر. هذا يعني أن الصراع الأوديبي يبدأ مع هيمنة السادية. الفرضية التي ينطلق منها أصحاب التحليل النفسي تفترض أن تكوين الأنا

الأعلى للطفل يتبع في تكوينه من ظهور الميول الأوديبية، وأن الأنا يقع تحت سيطرة الأنا الأعلى خلال هذه المرحلة المبكرة. يقترح فرويد في تحليله الفرضية التالية: يعاني الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة من الشعور بالخطر الناتج عن التحولات والتغييرات الجسدية والفكرية والنفسية والإجتماعية، هنا الشعور بالخطر ينتج عنه سلسلة مواقف من القلق. حسب فرويد على التحليل النفسي، أن ينزع القناع عن مواقف القلق، إذا استطاع المحلل أن ينزع القناع عن مواقف الخطر والقلق للطفولة الأولى من خلال كشفها بتسليط الضوء عليها، فإن التحليل النفسي يصل إلى الهدف الرئيسي من العلاج الذي يؤدي إلى الشفاء من العصاب.

يفترض فرويد أن خطورة المواقف في الطفولة الأولى تتجسد بفقدان الشخص المحبوب.

إن المسرحية تكشف سلوك الولد تجاه الوسط الذي يحيط به.

إن قلق الولد يولد لديه إنطباعاً أن الأشياء والأشخاص هم عمالقة، إن التحليل يكشف عاملاً آخراً، الأشياء تمثل كائنات إنسانية تثير القلق.

المسرحية تعرض أن الأشياء التي تعامل معاملة سيئة تعود للحياة من جديد لتنتقم. الأريكة، الكرسي، الطاولة، . . . تهاجم الولد، ترفض خدمته، تنفيه إلى الحديقة. إن التحليل النفسي كشف أن المقاعد والسرير ترمز إلى الأم التي تؤمن الحب والأمان. السجاد الممزق ترمز إلى جسم الأم المجروح من الداخل. في حين أن العجوز الهرم، الذي يخرج من بين دفتي الكتاب يمثل الأب في دور القاضي الذي يحاسب الولد على الأخطاء التي ارتكبها. خصوصاً تجاه الأم. الطبيعة ترمز إلى الأم، حسب فرويد الميول السادية للطفل تنهزم ببلوغ الطفل المرحلة القضيبية الجنسية. بقدر ما ينجح الولد خلال هذه المرحلة، بقدر ما يصبح قادراً على الحب الموضوعي وينتصر على الإتجاهات السادية.

التطور في النمو يظهر في مسرحية «Ravel»عندما يعامل الولد، السنجاب المجروح، بعاطفة وحنان وشفقة ويساعده، الوسط العدواني للطفل يتغير ويصبح

تعاوني. يتعلم الولد أن يحب وأن يؤمن بالحب. عندها تستنتج الحيوانات «إنه ولد طيب، يتصرف بشكل جيد».

الولد يعالج السنجاب المجروح، يتمتم «ماما»، الحيوانات من حوله تردد هذه الكلمة السحرية «Le mot magique»النص يظهر أيضاً سادية الولد حين يقول: «أريد أن أتنزه في الحديقة، أريد أن آكل كاتو العالم» بعد أن يكون قد خرب أثاث البيت. الأم تهدده بأنها سوف تناوله الشاي بدون سكر والخبز الناشف. إن الحرمان الفمي للطفل يثير لديه الدوافع السادية. إننا نفهم الآن حسب التحليل النفسي للمسرحية لماذا الهوام الخيالي للولد تخيل المغامرات المزعجة بدلاً من أن ينجر بهدوء واجباته المدرسية.

سوف نتناول مثلاً آخر من القلق المرتبط بأحاسيس الخطر الناتجة عن النمو النفسي والجسدي والفكري للبنت خلال مرحلة الطفولة المبكرة.[1].

في مؤلف منشور «المكان الفارغ «Espace vide»للكاتبة كارين ميكابلليس، تروي قصة صديقتها الرسامة «روث كجار» التي كانت تتمتع بحس فني غالباً ما تجسده في أعمال الديكور للمنزل، ولكنها لم تكن تتمتع بأية موهبة للخلق الفني. روث فتاة جميلة، غنية، تعيش حياة مستقلة، تمضي معظم أوقاتها في السفر، تترك غالباً منزلها الذي ضحت لأجله الكثير من الجهد والذوق والعناية.

كانت «روث» تعاني من وقت لآخر من الشعور العميق بالإكتئاب. هذا الإكتئاب تصفه الكاتبة «كارين» بالتالي: «لم يكن إلا نقطة واحدة مظلمة في حياة روث» بالرغم من المظهر الخارجي للسعادة والحياة الهادئة، غالباً ما كانت «روث» تغوص في الكآبة العميقة، كآبة تثير أحياناً لديها تخيلات بالإنتحار. لقد كانت تشعر إنها تعاني من فراغ نفسي، ليس بمقدورها أن تملىء هذا الجزء من الفراغ النفسي.

جاءت اللحظة المناسبة، «روث كجار» تزوجت، كانت تبدو عليها مظاهر

(١) Klein melanie, Essais de psychanalyse OP. cit PP: 254 — 262.

السعادة، ولكن بعد وقت قصير من الزواج، عادت تشعر بالكآبة، الكابتة «كارين» تعلق على حالة «روث» «المكان الفارغ «l'espace vide»هذا الجزء الملعـون، يعود مرّة أخرى» ثم تتابع: «لم أذكر أن بيتها كان متحفاً للفن الحديث». أخ زوج (روث) كان من الفنانين المشهـورين، كانت أفضـل لوحـاته تـزين جدران بيت «روث» قبـل عيد الميـلاد سلف «روث» أخذ إحـدى اللوحات من بيت «روث» وباعها، مما ترك فراغاً على الحائط. روث شعرت بالتعاطف مع هذا الفراغ، لقد شعرت بالحزن، الفراغ على الحائط، جعلها تنسى بيتها الجميل، تنسى السعادة والأصدقاء، إن روث تستطيع أن تشتري أي لوحة لتحل مكان اللوحة التي بيعت، ولكن المشكلة تكمن في إيجاد اللوحة التي تلائم مشاعرها وأحاسيسها.

تتابع الكاتبة «كارين»: الزوج والزوجة كانا يجلسان في المنزل وجهاً لوجه يتناولان الفطور، شعور من التشاؤم وفقدان الأمل ظهـر في عيون روث، فجـأة إعتلت شفتيها إبتسامة هادئة. سألت زوجها: «هل تعلم ما أنوي عمله؟» سوف أرسم بنفسي مكان اللوحة التي بيعت، سوف يكون لدينا لوحة جديدة أجاب الزوج « بكل تأكيد يا عزيزتي». لقد كان الزوج مقتنعاً بأنه مهما يكن نوع الرسم فإنه لن يكون بشعاً.

تركت «روث» الغرفة، إتصلت هاتفيـاً بمخزن الألـوان لتسأل عن وسـائل وتقنيات الرسم، طلبت أن تؤمن لها في الحال، لم تكن تعلم شيئاً في الرسم ومزج الألوان، فكرت أن تأخذ السيارة وتذهب إلى سلفها لتسأله عن مزج الألوان، لكنها عادت وتراجعت عن فكرتها وفضلت الموت على ذلك.

في المساء عاد الزوج إلى المنزل، ركضت «روث» لملاقاته، كانت عيونها تبرق بالفخر والإعتزاز، لم تظهر عليهـا علامـات الحزن والكـآبة قـابلت الزوج بالقول: «تعال، سوف ترى»! نظر الزوج، لم يستطع أن يرفع نظره عما رأى، لم يستطع أن يفهم ماذا حصل. إستلقت «روث»على الأريكة وهي تشعر بالإرتيـاح التام.

في المساء، ذهبت روث والزوج إلى بيت سلفها الرسام. كانت قلقة بانتظار رأيه، عندما شاهد سلفها الرسم على الحائط قال لها: «أنت الذي رسم هذا؟ ما هذا الكذب؟ هذه اللوحة انجزت من قبل رسام محترف، ليس عمل هاوية، إنني لا أستطيع تفسير ذلك أبداً.

لم تستطع «روث» أن تقنع سلفها أنها هي التي رسمت اللوحة، اعتقد سلفها إنهم يسخرون منه، قال وهو يغادر المنزل: «إذا كانت هذه اللوحة من رسمك، سوف أذهب غداً لإدارة أوركسترا بالنوطة الموسيقية.»

في تلك الليلة، لم تنم «روث» اللوحة التي على الحائط من رسمها، لم يكن ذلك حلماً، كيف حصل ذلك؟ وماذا حدث بعد ذلك؟ لقد كانت روث قبل رسم اللوحة بحالة نفسية متأججة، كان عليها أن تبرهن لنفسها أنها قادرة أن تخلق من جديد الشعور بالسعادة الذي كانت قد فقدته.

الكاتبة كارين تضيف: لقد رسمت «روث» بعد هذه المحاولة عدة لو حات فنية، وقد عرضت على النقاد والجمهور. الكاتبة كارين حاولت أن تفسر قلق «روث» تجاه الحائط الفارغ بالقول: «على الجدار، كان يوجد فراغ، وبطريقة لا تقبل التفسير تلامس وتعاطف هذا الفراغ مع الشعور بالفراغ الذي كانت روث تعاني منه في داخلها».

لكن السؤال الذي لا بد من طرحه: ماذا يعني «Espace vide»داخل إمرأة صبية، شابة، فتية، أو بمعنى آخر، لماذا كانت تشعر أنها تفقد شيئاً ما في داخلها؟

إن التحليل النفسي يعتبر أن الشعور بالقلق أمام الفراغ على الحائط يعادل القلق والخوف من الخصي عند الصبي. البنت تشعر بالرغبة السادية من خلال الصراع الأوديبي في مرحلة الطفولة المبكرة، الرغبة السادية تولد القلق، القلق من فقدان الأمومة وما ترمز إليه من قضيب الأب وإنجاب الأولاد.

إن التحليل النفسي للفتاة يبين أن هذا القلق هو الأشد خطراً بالنسبة للبنت الصغيرة، الخوف أن تبقى وحيدة، أن تفقد الحب وموضوع الحب، إن تماهي

البنت مع الأم الحنونة والمحبة، يخفف من الشعـور بالخـوف والقلق تجاه الأم القاسية والظالمة. إن صورة الأم تدخل في تخيلات الولد، الخوف من فقدان الأم الطيبة والحنونة، التي تغمر بالولد بالعطف والحب والحنان، يثير لدى البنت شعوراً بالوحدة، مما يثير لديها شعوراً بالخوف والقلق.

الكاتبة «كارين» تتابع أن «روث» رسمت لوحة أخرى تمثل إمرأة عجـوز، تحمل آثار السنين والخيبة: جلد متجعد، شعر أبيض، عينان جميلتان ومتعبتان، تنظر بتشاؤم بسبب التقدم في السن، العينان تبدوان وكأنما تريد القول: «لا تقلقي أبداً لأجلي نهايتي قد أصبحت قريبة».

حسب التحليل النفسي، وصف المرأة العجوز على عتبة الموت هو تعبير عن رغبة سادية هدامة، الرغبة في سحق الأم. الشعور بالذنب والقلق تجاه الأم عبرت عنه بمظهر (الصحة، والجمال) لقد حاولت إعـادة بناء مـا تهدم في الأم بواسطة الرسم.

حسب التحليل النفسي، حالة «روث كجار» تبين أن القلق الـرئيسي عند البنت ناتج عن الأنا للمرأة، وهو من العوامل المهمة في بناء الشخصية ولكن ما تجدر الإشارة إليه أن هذا القلق هو من الأسباب الرئيسية للأمراض النفسية. هذا القلق يعادل من حيث الخطورة قلق الخوف من الخصي عند الصبي. إن تـأثير القلق على نمو الأنا يتبع أنساقاً متعددة خلال النمو النفسي والجسدي والفكري والإجتماعي والتي تتم بشكل متداخل ومتشابك.

٤ ـ كشف الضوء على عقدة أوديب من خلال القلق المبكر

سوف نحاول تحليل بعض المواقف من القلق المبكر عند الطفل، ونبين العلاقة التي تربط هذه المواقف بعقدة أوديب. إن القلق عند الطفل يشكل جزءاً مهماً من العصاب النفسي. سوف نلقي الضوء أيضاً على العلاقة التي تربط القلق بالنمو الليبدوي عند الطفل.

ميلاني كلاين خلال تحليلها النفسي لولد عمره ست سنوات، لاحظت أن

الولد لا يحب أن يذهب إلى المدرسة، يخاف من الأولاد، يخشى أن يذهب لوحده، الولد كان يعاني من القلق على صحته، غالباً ما يمر بحالات من الإنقباض النفسي، يمكن ملاحظة صعوبات الولد على مظهرة الخارجي حيث تبدو عليه ملامح الحزن والكآبة هذا الوضع للولد كان يقلق الأهل.

الولد موضوع التحليل النفسي، كان بنظر أهله طفلاً موهوباً، كان يحب الموسيقى، يحب الطبيعة، عنده موهبة للفن، يمكن ملاحظة ذلك من أسلوبه في الكلام وطريقته في التحدث واستعماله للكلمات للدلالة على المعنى. كان الولد لا ينسجم مع أولاد آخرين من نفس العمر يفضل معاشرة الكبار، وخصوصاً النساء لإنه يحاول أن ينال إعجابهن بمواهبه المتعددة، وأن يجذب عطفهن.

التحليل النفسي أظهر أن مرحلة الرضاعة للولد كانت قصيرة وغير كافية لإشباع رغباته، الولد كان نحيلاً يشكو من الزكام والأمراض الأخرى منذ طفولته المبكرة، خلال الفترة من العمر الممتدة بين ٣و٦ سنوات. أجريت للولد عمليتين جراحيتين (الفتاق واستئصال الغدة)

بين الأهل (الأب والأم والأولاد) التحليل النفسي أظهر أن الطفل موضوع التحليل كان الولد الثاني في الأسرة، الأخ كان يكبره بعدة سنوات، الأم التي لم تعاني من أي مرض نفسي حسب المفهوم العيادي كانت من النمط الإنطوائي: كانت خلال مرض الطفل تعاني من القلق والإنقباض، هذه العوارض ولدت لديها الهواجس الوسواسة «Hypocondrique»تجاه الإبن، العلاقة بين الأم والإبن كانت تعاني من نقص في الإشباع، الأخ الأكبر كان ينجح في المدرسة بتفوق مما جعل أهله يمنحونه العطف والحب والحنان، الولد الصغير كان يعاني من الفشل في المدرسة، لقد كان بنظر أهله ولداً صعباً، ليس من شيء يثير اهتمامه، كان قلقاً على أمه لا يرغب أن يبتعد عنها ولو لفترة قصيرة جداً.

الأم كانت بدورها تغمر الولد بالعناية الفائقة لحد الإزعاج، لم تساعده في مخالطة الأولاد الآخرين واللعب معهم، لم تجبره في الذهاب إلى المدرسة.

الأب يحب ابنه كثيراً، يعامله بلطف، لكنه تخلى لزوجته عن مسؤوليته في التربية، الولد تكون لديه إنطباعاً أن الأب متسامح معه (Indulgent)ولا يمارس أية سلطة داخل الأسرة.

عند اندلاع الحرب، صعوبات كبيرة واجهت الولد بشكل ملفت للنظر، لقد تخلت أمه عنه، حسب معلومات التحليل النفسي لقد أقامت الأم في مكان آخر، ترك الأم المنزل أثار عند الولد إنقلاباً في حياته، إضافة إلى قلق الحرب، حيث كان يرتعب ويرتجف عند سماع صوت الطائرات الحربية وهي تقصف، صعوبات الولد كما نرى ناجمة عن التغيير في الوضع العائلي، إضافة إلى مرحلة الطفولة المبكرة، التحليل النفسي تناول بالتحليل الأتساق الداخلية الناتجة عن عوامل بنية الولد «Constitutionnels»الصحية، والعوامل الناتجة عن الوسط، وتحليل التفاعل بين العاملين.

خلال مرحلة التحليل النفسي. رسم الولد سلسلة نماذج من الرسوم، من النماذج الأولى لرسم الولد، رسمٌ يمثل نجمة بحر تطفو تحت الماء وحولها نباتات مائية، لقد فسّر الولد للمحلّل أن النجمة تمثل ولداً جائعاً يريد أن يأكل النبات. من الرسوم أيضاً رسماً يمثل إخطبوطاً «Pieuvre»كبيراً له وجه إنسان. إستنتج المحلّل النفسي أن الأخطبوط يرمز إلى الأب والأرجل ترمز إلى الأعضاء الجنسية التي ترمز بدورها إلى الخطر، كذلك فقد رسم الولد نجمة بحر وكأنها مجموعة أبنية وكل بناء يتفرع عنه عدداً من الشقق، والألوان الرئيسية المستعملة في الرسم كانت: الأسود، الأزرق، البنفسجي، والأحمر، التحليل النفسي كشف أن الألوان ترمز بالتتابع إلى الأب الأم الأخ الولد نفسه.

التحليل النفسي كشف أيضاً أن نجمة البحر وما تتضمنه من منازل وشقق ترمز إلى الوطن ومناطقه المختلفة.

التحليل النفسي أظهر أن إهتمام الولد بالحرب لعب دوراً أساسياً في عملية الترابط الحر «Association libre des idees»الوطن يرمز إلى الأم، المناطق التي

احتلها العدو، هي بنظره اعتداء وإغتصاب للأم، إن الأب كان يرمز إلى العدو، الولد وأخوه الأكبر كانا يمثلان في الرسوم أدواراً مختلفة: أحياناً كانا يتضامنان مع الأم ضد الأب، وأحياناً أخرى كانا يتضامنا ويتحالفان مع الأب.

أثناء عطلة الصيف، انتقلت بقية العائلة إلى العاصمة وبقي الولد عند جده في الريف، كان الولد بعيداً عن مراكز القصف ولكن العاصمة بالنسبة له كانت ترمز إلى الدمار والموت مما ضاعف من قلق الطفل.

كان الولد يعاني من التوتر والإضطراب رغم مظاهر الهدؤ الخارجية كان يسأل العائد من العاصمة: «هل شاهدت عدداً كبيراً من البيوت المهدمة والمحروقة؟» هل هناك عواصف ورياح ورعد؟

عندما يخرج إلى البرية كان الولد يخاف من نبات الفطر، إنها سامة بنظره، ما يلفت نظره واهتمامه المسلسلات التلفزيونية التي يتصارع فيها الإنسان مع الأشباح الرهيبة.

كشف التحليل النفسي للولد، أن هناك علاقة وثيقة بين الخوف والقلق عند الولد وقضيب الأب السيء الموجود في جسم الأم، مما أثار عنده هوامات خيالية من وجود أطفال داخل بطن الأم. بطن الأم يرمز إلى الخطر، لإنه يحتوي على أطفال هم بنظره أعداء، غالباً ما كان يضرب أمه على بطنها، ليتأكد من وجود طفل عدو، أو ليحذر الأم من وجوده. كان الولد يسقط جزءاً كبيراً من قلقه على الأولاد الآخرين في المحيط الخارجي، من هنا صعوبة اللعب مع الأولاد.

بالنسبة للألوان: الأحمر، الأسود، النفسجي، والأزرق، التحليل النفسي كشف أن اللون الأحمر يرمز إلى الميول العدوانية، العلاقات الجنسية، الأعداء، الرسم هو تعبير عن قلق الطفل تجاه جسم الأم المعتدى عليه من العدو (القنابل، العواطف، الفطر السام). الولد عبّر عن مخاوفه من العلاقات الجنسية بالرسم والتلوين الهوام الخيالي الذي يرمز إلى التهديد بالهدم يمثل الأب السيء وما فعله بجسم الأم.

بعض آليات الدفاع المبكر عند الطفل.

إن قلق الولد أمام الميول العدوانية وخصوصاً الميول السادية ـ الفمية كان يدفعه للدفاع لصد هذه الدوافع العدوانية، في حالة الغضب الولد يعض على أسنانه، أو يعض يده، عنف الميول السادية ـ الفمية تثير لديه خوفاً أن يؤذي أمه. الهوامات الخيالية وما تثيره من الخوف والشعور بالذنب كانت تؤثر على حياة الولد العاطفية. إن كبت الولد لمشاعر الغضب الناتجة عن الحرمان العاطفي تبرز بوضوح عنده من خلالية آلية النقل «Transfert»الهوام الخيالي عنده يصوّر له أن الشخص الذي يعيش في العاصمة أو الذاهب إليها هو شخص مجروح. إن شعور الولد بالحرمان كان يثير لديه شعوراً بالكراهية وحب الإنتقام، هذه المواقف من الحرمان كانت تدفعه إلى التماهي مع مواضيع تتميز بسمة الهجوم. الهوام للهجوم الخيالي كان يتجه نحو الأب نحو العدو الذي يجتاح، ويهدد ويغتصب ويدمر ويلقي القنابل.

إن هدف التحليل النفسي للطفل هو خفض التوتر مما يسمح له بمواجهة الخصم والعدو وبالتالي التصدي لموضوع الصراع. إن الأنا يحاول أن يوفق بين رغبات الأنا الأعلى ودوافع الهو. إن الميول والدوافع العدوانية تشبع جزئياً بالهوام الخيالي في إقامة علاقات جنسية مع الأم والميل لقتل الأب. لا يمكن فهم النمو النفسي الجنسي عند الولد دون الأخذ بعين الإعتبار الإضطرابات والصعوبات لطاقة اللبيدو خلال مراحل النمو المختلفة. وفهم القلق وآليات الدفاع الخاصة التي تميز مراحل النمو المختلفة.

التحليل النفسي للإنحراف عند الولد.

إن لا وعي الولد تسيطر عليه هوامات خيالية من الخوف والقلق تجاه بعض الأشخاص والحيوانات حيث يعتقد إنهم يلاحقونه ويريدون إلحاق الأذى به.

هذا اللاشعور اللاوعي يدفع الولد ويثير لديه الرغبة أن يكون شريراً وعدوانياً لكنه في المقابل يخاف من قصاص وعقاب الأهل.

إن ضعف وغياب الأنا الأعلى ليس كما يعتقد البعض أنه السبب الأساسي

للإنحراف، كذلك إن الإنحراف ليس مردّه غياب القيم والوعي الإجتماعي ولكنه يعود كما دلت الدراسات والأبحاث إلى قمع وتسلط الأنا الأعلى القاسي والظالم.

إن الميل للهوام العدواني عند الطفل يبدأ في مرحلة مبكرة تجاه الأهل، حيث يسقط الولد عليهم دوافعه السادية والعدوانية، هذه الآلية من الإسقاط تكون لديه تخيلات «Fantasmes»مشوهة للأشخاص الذين يحيطون به.

إن آلية الإستدخال «Introjection»والتماهي والتوحد مع الأهل تشكل بالنسبة للولد آليات دفاعية لمواجهة الهوامات الخيالية اللاواعية التي أدخلت «Inferiorisée»في مرحلة سابقة.

إن الطفل الذي يجتاز المرحلة السادية الأولى بشكل غير طبيعي لا يحصن ويصون نفسه من مخاوف وتخيلات الهوام الخيالي الداخلي والخارجي. حيث يصد جزءاً من تهديدات الأنا الأعلى وبالتالي التمرد على سلطة الأهل.

إن الهجوم والتمرد على سلطة الأهل يضغط على الولد تجاه هدم موضوع الأهل مما يثير عنده الخوف والقلق الهوامي. هذه الآلية من الصراع النفسي تعتبر القاعدة الأساسية عند الولد لتكوين الميول الإنحرافية.

إن النمو الطبيعي للولد يسمح له بتخفيف التوتر للميول السادية والشعور بالقلق. حيث تتكون لديه آليات أفضل للتكيف الإجتماعي والسيطرة على موضوع القلق.

إن تكيف الولد مع الواقع يسمح له بتنمية العلاقات مع الأهل.

إن الهوام الخيالي للعدوان تجاه الأهل يثير لدى الولد الشعور بالذنب، مما يساعد الولد على التخلص من الميول العدوانية.

التحليل النفسي أظهر أنه بقدر ما يتكيف الولد مع الوسط الإجتماعي الذي ينتمي إليه بقدر ما تزداد ثقته بنفسه وبالآخرين، مما يخفف من ضغط الأنا الأعلى.

على العكس، الولد الذي يعاني من السادية والقلق، تزداد عنده مشاعر

الكراهية والميول الهدامة، مما يجلعله يعاني من هيمنة القلق للطفولة الأولى، هذه المشاعر والتخيلات تعتبر القاعدة الأساسية للسلوك المنحرف.

إن الإنحراف عند الولد يولد لديه تخيلات وهوامات من الشعور بالاضطهاد «persécution»الولد يصبح ضحية الصراع المزدوج: ضغط الهوامات الخيالية، وضغط الواقع. الشعور بالإضطهاد من قبل الأهل الناتج عن التربية القاسية، والوسط السيء، والهوامات الخيالية تترسخ بشكل قوي عند الولد، وتكوّن الدافع الأساسي للسلوك المنحرف.

إن مشكلة المنحرف تكمن في رفض المجتمع له، حيث أنه بأمس الحاجة إلى الشعور الإنساني، ما تجدر الإشارة إليه أن شعور المنحرف بالنقص ليس إلا شعوراً ظاهرياً، إن التحليل النفسي للإنحراف يظهر أن تخلص المنحرف من الشعور بالكراهية والقلق. يثير لديه موضوع الحب. إن الحب ليس مفقوداً عند المنحرف والمجرم، إنه يختفي في أعماق نفسه، نلاحظ عند الطفل أن موضوع الكراهية والإضطهاد هو ذات موضوع الحب الليبيدوي، كذلك عند المنحرف والمجرم، المواقف والمواضيع التي تثير لديه الكراهية والإضطهاد هي في الوقت عينه المواضيع التي تثير الحب. هذا الصراع يدفع المنحرف والمجرم إلى الإنتقام من موضوع الحب، حيث لا يجد في المجتمع إلا الإعداء والأشرار.

التحليل النفسي كشف أن المنحرف والمجرم تتغلب عنده مشاعر الكراهية والعدوانية والرغبة في الإنتقام والهدم. المنحرف يعتقد أن المشاعر والأحاسيس عنده تتميز بالعدل والشرعية. هذا الشعور والإحساس يخفف من القلق اللاواعي بالذنب. علينا أن نشير أن الكراهية عند المنحرف والمجرم قد تكون أحياناً قناعاً للحب، لإن الشخص المضطهد غايته تأمين الشعور بالأمن للأنا. حسب التحليل النفسي، الوظيفة الأساسية للأنا الأعلى هي استنهاض القلق، مما يدفع الأنا إلى آليات دفاعية لا إجتماعية. عندما تنخفض الدوافع السادية عند الطفل، القلق للأنا الأعلى يتحول إلى شعور بالذنب مما يدفع آليات الدفاع بالإتجاه الأخلاقي الصحيح، مما يسمح للولد بالإنفتاح على مفهوم الوعي الإجتماعي.



الباب الثاني

العوامل البيولوجية وتأثيرها على الشخصية

لا يمكن فهم علم النفس دون معرفة الجسم الإنساني كيف يتكون الجسد، كيف يعمل؟ وحدة عمل وظائف الأعضاء (التماسك) إن علم النفس لا يهتم بدراسة وظائف الأعضاء بشكل منعزل وكمجموعة من الأجزاء. ولكن يأخذ الجسم بأكمله كوحدة متكاملة. علم نفس السلوك يهتم كيف يستجيب الجسم بكليته للمؤثرات الداخلية والخارجية.

إن وظيفة الجهاز العصبي مثلاً تتصل بوظائف جسدية أخرى، الهدف هو تكيف العضوية بكاملها وليس عضو معين من أعضاء الجسم.

إن الجنين كما نعلم هو ناتج تلقيح بويضة الذكر «Spermatozoide» مع بويضة الأنثى «Ovule» داخل الرحم. هذه البويضة الملقحة تنقسم بدروها إلى ملايين الخلايا التي ينتج عنها إذا لم يطرأ أي عائق يمنع عملية النمو، الكائن الإنساني.

نواة البويضة الملقحة، المصبغات «Chromosomes» لكل خلية ملقحة تتكون من سلسلة من الجينات، تحمل السمات الوراثية للأهل.

البويضة الملقحة تحتوي على مجموعتين من الجينات «Gènes» جينات الذكر، وجينات الأنثى، السمة المميزة والمهيمنة لهذه الجينات هي التي تؤثر على الطابع الوراثي للطفل.

إن الكائن الناتج عن البويضة الملقحة لا يحمل إلا بعض السمات الوراثية من الأب، وبعض السمات الوراثية من الأم بنسب مئوية مختلفة.

الجين الواحد يحدد السمات المميزة للعضوية، لون العينين، شكل الأصابع... توزيع جينات الأهل خلال التلقيح للبويضات ليس هي ذاتها، فقط بالنسبة للتوأم المماثل الناتج عن إنقسام بويضة ملقحة واحدة، السمات الوراثية متشابهة، فردين متمايزين ينتميان إلى نفس الأهل يحملان سمات وراثية متمايزة.

باختصار الجسم هو هندسة كيمائية وفيزيائية منذ اللحظة التي تبدأ فيها الخلية بالإنشطار والإنقسام، الخلايا الجديدة تأخذ أشكالاً مختلفة ومميزة باختلاف الوظائف المعدّة لها.

هناك أربع أنواع من الخلايا تؤدي إلى أربعة أنواع من الأنسجة، والتي تنظم وتندمج لتؤلف الأعضاء الجسدية لكامل الجسم وهذه الخلايا هي:

١ ـ الخلايا التي تغطي الجسم: تشكل، الجلد، الأظافر، الشعر والأسنان، الأنسجة التي تغطي الجهاز العضمي، الأوعية الدموية، سطح الغدد التي تفرز (الدموع، العرق، اللعاب، الهرمونات...) بعض الخلايا المميزة والتي تشكل العناصر الأساسية لإعضاء الحس.

٢ ـ الخلايا التي تشكل الجهاز والتي تلعب دور الوصل (العظام الروابط الغضروفية. . .) دورها تجميع وحمل أجزاء الجسم (روابط العضلات)، رباط يحمل الأنف.

٣ ـ خلايا تشكل الأنسجة العضلية ، هذا الجهاز يتلقى تغييرات على صعيد الشكل والحجم ، وهي تحرك الجسم بكامله ، وهذا يتضمن نوعين من الخلايا العضلية:

أ ـ الخلايا المخططة «Striées»لها شكل المغزل «Fusiformes»دورها في تأمين الحركات السريعة.

ب ـ الخلايا العضوية الملساء، تشبه الشعرة، توجد على سطح المعدة، الأمعاء، الأعضاء الجنسية، الأوردة والشرايين.

٤ ـ الخلايا العصبية والجهاز العصبي ، هذه الخلايا وظيفتها وصل الأعضاء الحسية بالنخاع الشوكي أو بالمخ، والنخاع الشوكي أو المخ بالعضلات والغدد. وهذه الخلايا تتمايز إلى عدة أنواع، عدة وظائف. التركيب والترابط والوظائف لم تزل مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية.

عالم النفس السلوكي «واطسون» يعتبر أن الوظيفة الهندسية للجسد هو أن الجسم الإنساني مبني بشكل يهيىء الفرد للإستجابات السريعة، وتحديد زمن الإستجابة بشكل معقد للمثيرات البسيطة والمعقدة.

ما يهمنا هو معرفة كيفية تعاون هذه الأنسجة والأجهزة خلال الإستجابة أو القيام بوظيفة معينة.

علينا الإهتمام بثلاث أنواع من الأعضاء الفسيولوجية:

ـ الأعضاء الحسية التي تستجيب للمثيرات الخارجية.

ـ الأعضاء التي تستجيب لتنبيهات الجهاز العضلي والغددي.

ـ الأعضاء التي تفسر وتربط الإحساسات الحسية ـ الحركية وتتضمن الجهاز

العصبي، المخ، النخاع الشوكي، الأعصاب هذه الأعضاء تتضمن المجموعات الأربع من الخلايا سابقة الذكر.

لكي نفهم تأثير العوامل البيولوجية والفسيولوجية على نمو الشخصية خلال المراحل المختلفة، علينا أن نفهم التطور البيولوجي والإرتقاء الثقافي للإنسان. تأثير العوامل الوراثية على السلوك، تأثير الوظائف الفسيولوجية للأعضاء على السوك وسمات الشخصية ونتيجة التفاعل بين الوراثة والأعضاء الفسيولوجية والحاجات والدوافع ومثيرات الوسط الداخلي والخارجي وكيف تستجيب الشخصية على المستوى النفسي والجسدي والفكري والإجتماعية لهذه النظم المعقدة التنظيم.

الفصل الأول

طروحات نظرية وتطبيقية لعلم الوراثة والبيئة

لقد أظهرت الدراسات والأبحاث في علم البيولوجيا والفسيولوجيا وعلم الأحياء والعلوم الإنسانية الأخرى وخصوصاً علم النفس أن الإنسان يحمل سمات وصفات الأجيال السابقة وإنه بدوره قادر على أن ينقل كثيراً من الصفات والخصائص إلى الأجيال التي تليه، فقانون الوراثة يعتبر من القوانين المهمة في حياة الكائنات الحية، وهذا القانون هو الذي يكفل للنبات والحيوان والإنسان بقاء صورها النوعية الخاصة بها وعلى هذا الأساس يكتسب الأبناء صفات الأباء من دون حاجة إلى أي نشاط إرادي مهم.

لقد استطاع العلماء أن يفحصوا الموجودات الصغيرة بواسطة أجهزة قوية ومكروسكوبات دقيقة حيث توصلوا إلى اكتشاف أسرار الخلية وكيفية تأثير عوامل الوراثة. وبعد الجهود العظيمة والتتبع الدقيق لوضع الإنسان وتكيفه مع الطبيعة فقد استنتج هؤلاء أن المعرفة البيولوجية تؤدي باستمرار إلى تغيير إدراك الإنسان لذاته. إن الإنسان قد تطور بفعل الثقافة، وتطور بيولوجياً، واتجه إلى أن يكون إنساناً بالمعنى الإنساني للكلمة عن طريق تنمية مهاراته الفكرية والثقافية، إن القيم الإنسانية هي التي تسمح للفرد أن يوجه سلوكه في سبيل حلّ المشاكل التي تواجهه والناشئة عن عدم التوازن بين الرغبات الفردية واحتياجات المجتمع.

إن العوامل الوراثية في الإنسان تحددها قوى البيئة التي تترك آثارها على شخصية الإنسان في مراحل نموه الأولى، إن المجتمعات تكتسب صفات مميزة،

لإن الأفراد فيها يشتركون في بعض عوامل الوراثة التي هي بدورها نتيجة تعرض لنوع واحد من ضغوط البيئة.

إن انتقال الجنس البشري من البربرية إلى المدنية تختلف باختلاف العلماء، فقد رأى «السير جورج طومسون» عالم الفيزياء البريطاني الحائز على جائزة نوبل أن أكثر تغيرات الماضي موازاة لما يحدث اليوم ليس الثورة الصناعية ولكن إختراع الزراعة في العصر النيوليتي. في حين أن خبير الأتمتة «Automation»الأميركي يعتبر أن الآلية الذاتية تمثل أعظم تغيير في تاريخ البشرية. يقول فرنسيس باكون «Francis Bacon»«إن المعرفة... هي القوة» أي أن المعرفة... هي التغيير». إن التغيير الذي يجري في العالم من حولنا يزعزع من توازننا الداخلي، إن التغيير المتسارع في الخارج يؤدي إلى تسارع في الداخل، عندما تتغير الأشياء من حولنا، فإن تغييراً موازياً يحدث في داخل الإنسان، هكذا يقول «كريستوفر رايت».

إن العصر الحديث لعلم الأحياء قد بدأ في عام ١٨٥٩ عندما ألف فيه «تشارلز داروين» كتابه «أصل الأنواع» وقدم فيه نظرية التطور والإرتقاء حيث أشار داروين إلى تسلسل جميع الأنواع التي تحيا في الأرض حالياً من كائنات منقرضة تختلف عنها. وعزا داروين هذه الإختلافات إلى تراكم تغييرات بسيطة حدثت ببطء مثناه، واعتبر داروين أن الإتجاه الذي سارت فيه هذه التغييرات كان يحكمها مبدأ الإنتخاب أو «الإصطفاء الطبيعي» الذي يعتمد على اللياقة ويعتبر أن الكائن كلما كان أكثر لياقة وقدره على التكيف بالنسبة لشروط بيئته كلما زاد النسل الذي ينجبه، ذلك النسل القادر على الحياة إلى عمر ينجب فيه هو الآخر نسلاً له. وبكلمة موجزة، يعتبر داروين: أن كل أنواع الحياة الحاضرة هي عبارة عن فروع لشجرة عائلة ارتقائية عظيمة ساقها وفروعها الرئيسيان يتكونان من أنواع سالفة انقرضت منذ أزمنة سحيقة، لكن داروين قد فشل في إيضاح كيفية عملية الإنتخاب (الإصطفاء الطبيعي) باعتبار أن عام ١٨٥٩ قد كان عام علم الوراثة الذي أوضح أن كل كائن

ينجب شبيهاً له بالضبط، مما اضطر معه داروِن إلى التراجع عن ان التطور هو نتيجة لعملية (الإصطفاء الطبيعي).

وفي عام (١٨٦٥) ولدت الدراسة العلمية لعلم الوراثة على يدي (ماندل) التي كانت تهدف إلى توضيح كيفية توزيع هذه الصفات الوراثية على الأجيال الجديدة، واستنتج «أن كل كائن ينقل إلى نسله مجموعة من الوحدات الوراثية المسماة (الجنّات) وكل جين (Genes) يحدد صفة منفردة لذا فإن المظهر الإجمالي للكائن يكون محكوماً بإجمالي الجينات التي نقلها إليه الأبوان[١].

إن التصادم الخطير بين معتقدات داروِن وبين العقائد الدينية، التي تعتقد أن الله قد خلق الإنسان، الإنسان فقط على صورته، وإنه ليس صحيحاً بأن الإصطفاء الطبيعي. وليس الله هو الذي صنع الإنسان. مثل هذه المخاوف جعلت عالم الوراثة المشهور (فرنسيس غالتون) وهو ابن خال (داروِن) جعلته يقترح برنامجاً للتكاثر البشري اسماه علم «تحسين النسل» الهدف منه لا يقتصر على إيقاف الإنحلال أو التدهور المفترض في المخزون البشري، بل يتعداه إلى تحسين الصفات الجسمية والفكرية للأجيال المقبلة.

ويعلق الدكتور الكسيس كارل في كتابة الإنسان ذلك المجهول فيقول: «يمتد الإنسان في الزمن مثلما يمتد في الفراغ إلى وراء حدود جسمه... وحدوده الزمنية ليست أكثر دقة ولا ثباتاً من حدوده الإتساعية، فهو مرتبط بالماضي والمستقبل على الرغم حتى أن ذاته لا تمتد خارج الحاضر، وتأتي فرديتنا كما نعلم إلى الوجود حينما يدخل الجين في البويضة، ولكن عناصر الذات تكون موجودة قبل هذه اللحظة ومبعثرة في أنسجة أبوينا وأجدادنا وأسلافنا البعيدين جداً لإننا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية... وما صفاتنا ونقائصنا إلا امتداد لنقائصهم وصفاتهم»[٢].

---

(١) د. سعيد محمد الحفّار البيولوجية ومصير الإنسان عالم المعرفة ـ الكويت عدد ٨٣ ص ٢٨.

(٢) د. محمد سعيد الحفّار علم البيولوجيا البشرية جامعة دمشق ١٩٨١.

فالجنون مثلاً من الصفات الخطرة التي تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، كذلك الحمق والبلادة.

كذلك فإن شارب الخمرة والمدمن عليها يتعدى مفعولها ليس على شاربها فقط بل إلى الإنسان ويعزى إلى الخمرة بعض الأمراض التي تحدث في خلايا المخ والأعصاب ويقول الدكتور كارل:

«إن سكر الزوج أو الزوجة حين الإتصال الجنسي بينهما يعد جريمة عظيمة لإن الأطفال الذين ينشأون من ظروف كهذه يشكون غالباً من عوارض عصبيّة ونفسية غير قابلة للعلاج.

وفي دراسة قام بها أحد الدارسين في أوروبا قام بجمع احصائيات دقيقة للنطف التي لقحت في ليلة رأس السنة الميلادية فوجد أن ٨٠٪ من الأطفال المتولدين من تلك النطف ناقصوا الخلقة لإن الزوج أو الزوجة كانا قد أفرطا في تناول الخمرة في تلك الليلة.

كذلك فإن البيئة بما تتضمن من الأسرة والمدرسة والوسط الإجتماعي تلعب دوراً أساسياً في التكوين النفسي والفكري والجسماني للشخصية.

١ـ الوراثة والمحيط

لا يمكن فصل الفروق الفردية عن الوراثة والمحيط، إن آلية الوراثة تتم عن طريق المصبغات «Chromosomes»وهي عضويات مجهرية ولكن يجب التمييز بين الخصائص الغالبة والخصائص المغلوبة.

إن الأولى هي تلك التي تظهر في الصوما «Soma»(أي في العضوية الحية نفسها) إذا هي كانت موجودة في الجرمن. (les ĝenes)أما الخصائص المغلوبة فإنها قد تظهر في الجرمن دون أن تظهر في خصائص الجسم، ويجب التمييز بين فينوتيب «Phenotype»وبين ما يسمى جينوتيب «Genotype»الأول يتصل بالخصائص الخارجية الملاحظة للعضوية. وتتيح لنا نظرية مندل «Mendel»أن نفهم امكانية إتصال فردين بذات الخصائص الظاهرة «فينوتيب» واختلافاً مهماً فيما

يتعلق بـالتكوين الـوراثي. فالشخص الـذي له عينـان سوداوان مثـلاً قـد يملك مصبغات تتيح له أن ينجب أولاداً، زرق العيون. بينما لا يتاح مثل ذلك لشخص آخر له نفس اللون في العيون، وذلك لإنه لا يملك مولدات العيون الزرقاء[١].

أ ـ الإنتقال الوراثي للمصبغات المكتسبة:

يعتقد دارون أن الخصائص العقلية والجسمية موروثة على حد سواء، وانها تطورت من الصراع من أجل البقاء. إن التطور في النوع ينتج عن آليات الوراثة التي تنقل السمات البيولوجية من جيل إلى جيل. كذلك فـإن جالتـون «Galton»يعتبر من الرواد في دراسة وراثة السلوك. فقد أوضح غالتون أن التفوق في سمة معينة لعدد من الأشخاص الذين ينتسبون إلى أقارب الشخصيات الموهوبة واللامعة مردّه إلى سمات الوراثة أكثر من العوامل الإقتصادية والإجتماعية والتربوية[٢].

إن الخصائص المكتسبة يمكن أن تورث لا بفضل الوسط الإجتماعي فقط ولكن بفضل التكوين الوراثي للأجيال المقبلة. وقد أقام لامارك (Lamark)نظريته على هذه الفرضية من خلال المثال المشهور، مثال الزرافة التي أصبح عنقها بهذا الطول لطول ما مدّته لتناول الغذاء من رؤوس الأشجار. هذه السمة من مدّ العنق إنتقلت إلى الأجيال اللاحقة. ولقد كان لنظرية الخصائص المكتسبة أصداء سياسية في الإتحاد السوڤياتي حيث الأبحاث إهتمت وركزت على الدور المهم الذي يلعبه المحيط.

ب ـ القابلية للتغيير والقابلية للتوريث.

لكي نفهم دور الوراثة في إنتاج أي سمه من سمات الشخصية علينا توضيح مفهومين أساسيين هما «القابلية للتغيير» و «القابلية للتوريث» حيث أن هناك سوء فهم كبير حول تطبيق الوراثة على المشكلات الإجتماعية وحـول العلاقـات بين الوراثة والبيئة في النمو الإنساني[٣].

(١) أوتو كلينبرغ علم النفس الإجتماعي دار الحياة ١٩٦٧ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) لازاروس ترجمة محمد غنيم الشخصية دار الشروق ١٩٨١ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) لازاروس مرجع سابق ص ١٤٥.

إن القبول والإعتقاد بثبات السمات الوراثية، يفرض قبول الرأى القائل بوجود جماعات عرقية منحطة اليوم في كفاءاتها، وإنها ستبقى كذلك دوماً أما ليسنكو فقال أن الجرمن تتحسن إذا أمكن تحسين المحيط، إذا قبلنا هذه الفرضية أن الجرمن يتأثر بالمحيط، فلا شك أن الناس الذين عاشوا قروناً في شروط منحطة، حسب الفرضية العرقية، يجب أن يكونوا على جانب كبير من الإنحطاط الوراثي، إن جرمن جماعة من الزنوج في جنوب الولايات المتحدة، تعيش في شروط سيئة، يجب أن تكون تبعاً لهذه النظرية منحطة. أما علم الوراثة الجديد الذي يمثله علم الوراثة الشهير ما نذل، يعتبر أن الجرمن يظل سليماً لإنه لم يتأثر بالمحيط أبداً من الواضح أن كل فرد يعيش في ظروف إجتماعية واقتصادية وتربوية مختلفة، هذا التمايز يلعب دوراً مهماً في أحداث التنوع والإختلاف بين الأشخاص، غير أن كل سمه من سمات الشخصية هي نتيجة «تفاعل كلا العاملين» الوراثة والبيئة معاً، لكن المشكلة التي لم تزل بدون حلّ، ولم يتم البرهان عليها بصورة مناسبة هي مقدار ما يعزى منه الاختلاف في سمه معينة إلى التأثيرات الوراثية، ومقدار ما يمكن ردّه إلى الإختلاف في تأثير البيئة. إن إختلاف السمات بين الأخوة الذين يتحدرون من نفس الأهل ويعيشون في ذات البيئة، إن الأختلاف هنا لا يمكن ردّه إلى عامل البيئة، كذلك الأمر بالنسبة «للتوائم» المتماثلة أي التي تأتي من ذات البويضة، فإن التوائم المتماثل إذا وضعت منذ الصغر في بيئات مختلفة تمام الاختلاف، بحيث يوضع كل فرد في بيئة مختلفة يعيش فيها، فإن الإختلافات التي نجدها في السمات الظاهرة لدى التوائم المتماثل يمكن ردّها إلى العوامل البيئية، كذلك إذا أخذنا مجموعة من الأشخاص المتباينين في التمايز الوراثي كما هو الحال بالنسبة للأفراد الذين لا تربطهم رابطة قرابة دموية واحدة أو ليسا توأمين متماثلين، إذا وضعنا هؤلاء الأشخاص في بيئة متجانسة، منذ الصغر، في هذه الحالة فإن الأختلاف في السلوك والسمات الظاهرية للشخصية لا يمكن ردّها إلى البيئة، ولكن يمكن تفسير هذه الأختلافات إلى العوامل الوراثية.

إن تأثير الوراثة والبيئة على سمة من سمات الشخصية يعود إلى مجموعة من

العوامل، مثلا تأثير البيئة على هذه السمة والإنتماء إلى جنس معين، تأثير الوراثة على هذه السمة، من الأبحاث المهمة في هذا السياق.

ج ـ تحسين النسل:

إن تحسين النسل يقوم على المحاولات الرامية إلى تحسين صفات العرق عن طريق التزاوج بين أحسن عناصره، أما العناصر السيئة من الشعب فتمنع من التناسل، ولكن الصعوبة في هذا الطرح إنه يصعب التعيين بصورة موضوعية من هو الشخص الحسن الإستعداد واللائق، ومن هو الشخص غير اللائق، ويمكننا أن نلاحظ خطورة الطرح إذا فكرنا بالعباقرة الكبار، الذين كان لهم عيوب قد يجعلهم يصنفون في زمرة غير اللائقين من بعض الوجوه، كذلك فإن بعضهم كان ينحدر من أسر ذات عيوب، ولو وجد منهاج لتحسين النسل لاستحالت ولادتهم، المهم أن نميز بين «الفينوتيب» وبين «الجينوتيب» لإن عدداً كبيراً من الأشخاص الذين نراهم سليمين، قد يضمرون الإستعداد لإنجاب أولاد غير سليمين. يقول بيرل: إن عدداً غير قليل من الأجسام الممتازة ظاهرياً، تحتوي على سمات وراثية تافهة. . . إن تحسين النسل، يقوم على تحسين المظاهر الخارجية أو فينوتيبية فقط دون أن يغيّر في الجينوتيب.

إن أقدم الأبحاث التي حاولت الكشف عن السمات المميزة لبعض الأسر والإستدلال على إنها موروثة، تلك التي تستخدم تاريخ حياة الأسرة، أو شجرة العائلة، وبحوث غالتون التي مسحت عدداً من الأسر المختلفة بهدف دراسة الأساس الوراثي للعبقرية تنتمي إلى هذا النوع من الأبحاث، إن المشكلة في تاريخ حياة الأسرة، إنه من الصعب فصل التأثيرات الوراثية عن البيئة، ويرجع السبب في فشل هذا الاسلوب إلى أن الآباء الذين كانوا غير مرغوب فيهم تكوينياً، غالباً ما ينشئون أبناءهم تحت ظروف سيئة غير مُرضية، وعلى ذلك، فحتى لو كان إرثهم التكويني فاسداً، فإن البيئة التي يربى فيها الأبناء تكون غير ملائمة أيضاً إلى حدٍّ بعيد، ومن المستحيل تحديد الدور الذي يقوم به كل من الوراثة والبيئة عن طريق هذا النوع من الأبحاث[1].

---

(١) أوتوكليبرغ مرجع سابق ص ٣٣٧.

د ـ دراسة التوائم:

من المحاولات التي تتيح لنا أن نفصل بين عامل الوراثة وعامل المحيط، كانت قضية التوائم ويجب التمييز بين ما يسمى بالتوائم المتماثلة التي تنشاء عن إنقسام بويضة ملقحة واحدة، وبين التوائم المختلفة التي تنشأ عن بويضتين ملقحتين متميزتين. في الحالة الأولى سمات الوراثة متشابهة، أما في الثانية فإنها شبيه بما بين أي أخوين أو أختين عاديتين وطبيعي أن التوائم المتماثلة يجب أن تكون من جنس واحد، على حين أن التوائم المختلفة قد تكون من جنس واحد أو من جنسين. ويقرر التماثل بين التوائم على تشابه بصمات الأصابع، وراحة ومشط القدم، ويلاحظ كذلك تنسيق الاسنان على صورة واحدة، والإنتساب إلى زمرة دموية واحدة، وتتشابه منحنى الموجات الدماغية، وأن الجانب الأيسر في أحدهما يشبه الجانب الأيمن في الآخر وبالعكس. إن العوامل الوراثية تلعب دوراً كبيراً في تشابه التوائم.

إن بعض الباحثين، درسوا التوائم المتماثلة من ناحية الخصائص السلوكية كالذكاء، كما درسوا عوامل جسمية كالطول والوزن وحدوث بعض الأمراض، وذلك بعد فصل التوائم ووضعها في بيوت للرعاية تخضع لإشراف مكاتب الخدمة الإجتماعية، وقد اتجهت جميع هذه الأبجاث إلى إكتشاف أوجه الشبه الكبيرة بين التوائم المتماثلة التي فصلت عن بعض في نواح كالإصابة بالمرض ونوعه.

أما بالنسبة لإختبارات الذكاء، فقد قيس ذكاء الأطفال قبل التبني ثم قيس بعد ذلك بفترة ما، فإن النتائج بينت أن الوظائف العقلية ظلت متماثلة بين التوائم رغم إختلاف البيئة.

كذلك فإن الأبحاث على التوائم المتماثلة بينت أن التوائم الذي حصل على الدرجة الأعلى في اختبار الذكاء هو الذي حصل على مزايا تربوية وثقافية ملحوظة نتيجة لوضع التوأم في بيوت الرعاية.

ومن نتائج إحدى البحوث هو حالة امرأة كانت نسبة ذكائها ١١٦، وتخرجت من الجامعة، على حين كانت نسبة ذكاء شقيقتها التوأم ٩٢ ولم يتعد

تعليمها السنة الثانية الإبتدائية. هنا رغم تماثل الوراثة بين التوائم المتماثلة، إلا أن التوأمين إختلفا إختلافاً ملحوظاً في الذكاء، البحث كشف إن التمائز حدث نتيجة للإختلاف في ظروف البيئة.

كذلك من الأبحاث المهمة. في هذا المجال هو مقارنة التوائم الذكرية والأنثوية المتماثلة (بويضة واحدة) بالتوائم الأخوية أو الإزدواجية التلقيح (بويضتان) كانت العينة تتألف من ٧٩ زوجاً من التوائم المتماثلة و٦٨ زوجاً من التوائم الأخوية، فقد بين البحث أن التشابه بين التوائم المتماثلة أكبر منه بين التوائم الأخوية.

كذلك من الدراسات المهمة في دراسة التوائم البحث الذي قام به فرانز كولمان. «Franz Kallman»(١٩٥٣)، لقد بحث كولمان ملفات نزلاء المستشفيات المصابين بالفصام وذهان الهواس والإكتئاب لتحديد هؤلاء الذين لهم توائم متماثل، أو توأم أخوي، أو أخ شقيق، أو أخ شقيق، أو أخ غير شقيق، ثم شرح بعد ذلك في تحديد الحالة التوافقية لهذا التوأم أو الأخ.. وكان دليل الإتفاق هو ببساطة النسبة المئوية لعدد مرات حدوث نفس هذا المرض المصاب به نزيل المستشفى لدى أخيه الثاني. وقد أوضح كولمان أن دليل الإتفاق بالنسبة للتوائم المتماثلة أعلى بشكل مثير منه لدى التوائم الأخوية، وهذا بدوره أعلى منه لدى الأخوة غير الأشقاء والأفراد الذين لا تربط بينهم رابطة[1].

إن كولمان لم يذهب إلى أن الإضطرابات المختلفة التي درست موروثة بشكل مباشر، ولكنه ذهب إلى أن العوامل الوراثية تجعل لدى الفرد إستعداداً للإصابة بها، وقد قدم كولمان حجته بالنسبة للفصام وغيره من الأمراض الذهانية فإذا كان لدى الشخص إستعداد وراثي قوي للإستجابة لضغوط الحياة بإستجابات الفصام، ثم تعرض لظروف البيئة المناسبة لذلك، فسوف يظهر لديه المرض. ولكن ما تجدر الإشارة إليه أن كولمان لم يوضح طبيعة هذا الإستعداد فسيولوجياً.

(١) Kallaman «heredity'in healhand mental disorder, N.Y. colombia 1953.

وبذلك فإنه من الصعب تحديد الإستعداد ودرجة المكّون الوراثي للإمراض النفسية المختلفة، كما أن كولمان كان موضع نقد شديد من جانب علماء النفس الذين يهتمون بمعرفة أسباب المرض العقلي.

فإن كولمان حصل على تقارير الشخص الذي أصيب بالمرض العقلي، وهذا قد يثير مشكلة عويصة لإن الشخص الثاني لم يكن قد دخل المستشفى بالفعل كذلك من العيوب في بحث كولمان أنه من المحتمل أن تكون البيئات التي يحيا فيها التوائم المتماثلة أكير تشابهاً من تلك التي يحيا فيها التوائم الأخوي. وعلى ذلك فالتشابه في الإتفاق بالنسبة للتوائم المتماثلة ممكن ردّه في جزء كبير منها. إلى ظروف البيئة المتماثلة، مثلما تعزى إلى التماثل في الوراثة.

هـ ـ قضية السلالة.

يؤكد والتر وهو من إعلام المدرسة الفيزيولوجية بأن السلوك المنحرف مرتبط بوجود إضطرابات عصبية تكوينية وفسيولوجية ترجع إلى عوامل وراثية، وإستدل أصحاب هذا الإتجاه بعائلة جوكس في أميركا بأن معظم أفرادها من المجرمين.

كذلك عائلة جريس في انكلترة المتصفة بالتزييف والإجرام وإدمان المخدرات، وإنتقد علماء آخرون هذه النظرية واعتبروا أن أسباب الإنحرافات هي أسباب بيئية وليست وراثية[1].

أما العالم الإيطالي لو مبروز وفقد اعتبر العاهات الجسمية وإنماط الشكل في الجمجمة والوجه والطول هي سبب الأنحراف ومن الدراسات المهمة في هذا المجال تلك التي قام بها عالم النفس الإجتماعي المشهور أوتو كلينبرغ (١٩٣٥) الذي أوضح أن أطفال الجنوب من الزنوج قد تحسنت درجاتهم على إختبارات الذكاء بعد أن نزحوا إلى مدينة نيويورك، وإن هذا التحسن مرتبط بطول المدة التي عاشوها هناك. وهذا يكشف بوضوح ما للبيئة من تأثير ملحوظ على درجات اختبار الذكاء.

---

(١) أوتوكليبرغ مرجع سابق ص ٣٦٦.

كذلك فإن «جوشمان» يعتبر أن الفروق التي نلاحظها بين متوسط نسب ذكاء الزنوج الأمريكيين وغيرهم من الأمريكيين يمكن أن تعود في الأغلب إلى الظروف البيئية السيئة التي تبدأ في فترة ما قبل الولادة وتستمر خلال حياة الفـرد ليس معنى هذا أنه ليس ثمة فروق في التكوين بين المجموعات البشرية تتحدد وراثياً، ولكن ما تجدر الإشارة له أن مثل هذه الفروق نسبية (ليس هناك سلالات نقية).

هناك إتجاهاً حديثـاً لدى بعض علمـاء وراثة السلوك، أي تصنيف سلوك الناس في قوائم وأنماط، مثلاً إن «جين» «gène»معين يكون مسؤولاً عن الذكاء أو أية سمه سيكولوجية أخرى، فإذا وجد الجين لدى الفرد، وجب إذن أن تكون لديه السمه المميزة لهذا الجين. إن هذا الإتجاه لا يعطي صورة دقيقة عن العمليات الوراثية، لأن سمة معينة من سمات الشخصية قد تكون عادة نتاج التفاعل بين عدد كبير من الجينات.

ويتحدث علماء الوراثة اليوم عن «مجموعة الجينات» للإشارة إلى العـدد الكلي الإفتراضي للتأثيرات الوراثية التيقد توجد داخل النوع أو لدى مجموعة من الأفراد. وحتى عند حدوث توليد إنتقائي، فإن من الواضح أن مجموعـة الجين الأصلية لا تختفي. وعلى ذلك فمجموعة الجينات الخاصة «بالذكاء» و«الغباء»، بالرغم من التغيير في ظروف البيئة فإنها لم تختف بل تظل كامنة.

أي بمعنى أن حدوث تغييرات جديدة في البيئة، إن الإختيـار الطبيعي يمكن أن يتغير بسهولة دون أن يتعرض النوع للتأثر بشكل خطير، إن تصنيف الناس عن طريق السمات لا يمكن تفسيرها بسهولة بالإنتماء إلى نمط معين. ويعتبـر دوبز هانسكي إنه في تطور السلالة البشرية، يقوم الإنتقاء الطبيعي دائماً وفي كل مكان تقريباً، بدوره في زيادة وتوكيد المرونة والتنوع في السلوك، وهما أمران أساسيان في جميع الثقافات البشرية، بداثية كانت أم متحضرة»[1].

٢ ـ تأثير البيئة والمحيط على السلوك.

لكي نتعرف على تأثير البيئة والوسط على سمات الشخصية علينا استبعاد أثر

(١) Dobzanshey, Changing man Science 155: 409 — 415.

العوامل الوراثية، ومن الأبحاث المهمة في هذا المجال الدراسة التي قام بها سكيلز «Skeels»عن أثر البيئات الفنية على النحو العقلي عند الطفل، إن دراسة سكيلز تعتبر من الأبحاث غير العادية حيث تتضمن تتبعاً لنفس الأطفال ولمدة ٢١ سنة(١).

لقد لاحظ سكيلز في البداية مجموعتين من الأطفال: ١٣ يمثلون المجموعة التجريبية و١٢ يمثلون المجموعة المقابلة أو الضابطة. وجميعهم كانوا متخلفين عقلياً ويعيشون في أحد الملاجىء، ولقد نقلت المجموعة التجريبية من الملجأ إلى مؤسسة حيث تتوفر الحوافز والعلاقات الطيبة من الأمهات البديلات. أما المجموعة المقابلة فقد ظلت في تلك البيئة الفقيرة التي تفتقر إلى الحوافز.

ولقد لوحظ فيما بعد وجود فروق ملحوظة في المستوى العقلي والوظائف العقلية لدى المجموعتين، وبعد عامين كانت الزيادة في الجموعة التجريبة ٢٥,٨ نقطة في نسبة الذكاء، بينما فقدت المجموعة الضابطة ٢,٦٢ نقطة. وقد حدث بعد ذلك تبني لاحدى عشر طفلاً من المجموعة الأولى، وقد واصل هؤلاء تحسنهم في المستوى العقلي. أما الطفلان الآخران غير المتبنين فقد هبط مستواهما إلى حدٍ ما.

وبعد إحدى وعشرين سنة جمعت كل الحالات في مكان واحد وعقدت مقارنة بين المجموعتين.

فلم تكن هناك حالة واحدة من بين الـ ١٣طفلاً الذين وضعوا في بيئة أعلى، تحت رعاية أية مؤسسة عامة أو خاصة. وكان متوسط تعليمهم هو نهاية الصف الثاني عشر، كما واصل أربعة منهم تعليمهم الجامعي سنة أو أكثر، وحصل واحد من بين هؤلاء على درجة جامعية، وحصل واحد آخر على بعض الدراسات العليا. وكانوا جميعهم يعولون أنفسهم.

---

(١) Skeels, «Some Iowa studies of the mental grouth of children,3q yearbook, part 2, N.S.S.E, 1940, PP 281 — 308

أما المجموعة الأخرى المقابلة فقد مات أحدهم وهو في سن المراهقة في أحد المؤسسات الحكومية لضعاف العقول، وأربعة لا يزالون تحت رعاية المؤسسات، وواحد دخل مستشفى الأمراض العقلية، والثلاثة الباقون كانوا في مؤسسات لضعاف العقول. أما متوسط تعليمهم فهو دون الصف الثالث، من هنا كشفت البيئات الغنية والمحرومة عن نفسها بشكل أساسي في المستوى العام للوظائف لدى المجموعتين.

إذاً نستطيع أن نستنتج أنه إلى جانب العامل البيولوجي والوراثي هناك الجانب الإجتماعي المعقد.

أ ـ تأثير الفروق المهنية على نسبة الذكاء.

إن عدداً كبيراً من الأبحاث يبرهن على وجود فوارق بارزة بين مختلف الجماعات المهنية فيما يتعلق بالتنائج التي يبلغونها في روائز الذكاء. وقد أوضحت الدراسات أن نسبة الذكاء كانت أعلى عند الأطفال الذين ينحدرون من أسر ذات مستوى إقتصادي عالي وأن الأفراد الذين ينتسبون إلى المستويات الإجتماعية ـ الإقتصادية العليا ـ إنما يكونون فيها تبعاً لذكائهم العالي. وهم ينقلونه إلى أولادهم. وأن الذكاء ينتج عن الإختلاف في المستويات[١] الإقتصادية والإجتماعية.

ب ـ أثر التنشئة المدرسية.

الهدف هو دراسة الآثار الناشئة عن إختلاف شروط التعلم من جهة، والوضع الإقتصادي العائلي من جهة أخرى، وقد دلت الأبحاث على أن مجرد الدوام على مدرسة الحضانة كان يغير القابليات العقلية تغييراً دائماً، ويتيح للأفراد أن يحصلوا على نتائج أفضل، وخلال مراحل دراساتهم الثانوية أو العالية، بيد أن طبيعة التنشئة وكذلك طبيعة الأفراد، هما اللتان تعينان إلى أي حدٍّ يمكن أن تساعد هذه التنشئة على رفع المستوى العقلي.

ولما كان من المؤكد أن الأطفال الذين ينتسبون للأوساط المهنية العليا،

---

(١) كلينبرغ مرجع سابق ص ٣٤٧.

يتلقون تربية أفضل، فإن هذا الوضع يعلل تلك الفروق الملاحظة بين مختلف الرهوط الإجتماعية والأقتصادية فيما يتعلق بنتائج روائز الذكاء.

ج ـ ذكاء الأطفال في حالة التبني.

إن إنتقال الأطفال من وسط سيء إلى وسط حسن أو على الأقل أفضل من الأول، يكشف على قيمة أثر المحيط، والدراسة المشهورة التي قام بها «فريمان» على أطفال في حالة التبني يسكنون مدينة شيكاغو وضواحيها قد تبين إن نتائج تأثير الوسط هو أكثر تأثيراً من العوامل الوراثية.

ولكن ما تجدر الإشارة له أن تأثير العوامل الإجتماعية والإقتصادية لا يلغي العوامل الوراثية، إذن إن الإختلافات بين الأفراد والرهوط الإجتماعية والإقتصادية يمكن أن تفسر بالفروق فيما يتعلق بالإمكانيات التربوية المتاحة لهم.

إن الخصائص السيكولوجية لشخصية الطفل تتأثر «بكلا» العوامل الوراثية والبيئة.

٣ ـ التأثيرات الفسيولوجية على الشخصية والسلوك.

دوافع السلوك: موضوع الدوافع من أكثر موضوعات علم النفس أهمية وإثارة للإهتمام، فإذا أردنا أن نعرف لماذا يميل الطفل إلى الأنطواء على نفسه ورفض اللعب مع الأولاد الآخرين، أو لماذا يكون مطيعاً ومهذباً في المدرسة، ومشاكساً معتدياً في البيت، كذلك فإن الطبيب يريد أن يعرف سبب معاناة مريض يدل فحصه على خلوه من أسباب المرض الجسمي، أو لماذا يهمل أحياناً المريض نصائح وإرشادات الطبيب، إن الطبيب النفساني تهمه الدوافع التي تكمن وراء العصاب والذهان والخيال الهوامي المسبب للقلق، ورجل القانون يريد أن يعرف الأسباب والدوافع التي تدفع المجرم أو المنحرف إلى القيام بالسلوك الشاذ، كذلك فإن صاحب العمل يهمه أن يعرف ما هي الدوافع التي تدفع العمال إلى التمرد بالرغم من كفاية الأجور وإعتدال ساعات العمل؟.

إن معرفة الدوافع لا تقتصر على علاج ضروب السلوك المنحرف أو الوقاية

منه، بل أن هـذه المعرفـة ضرورية لكل من يشرف على جماعـة من الناس، فالمدرس في حاجة إلى معرفة دوافع التلاميذ وميولهم لكي يكون التعلم منتجاً ويرضي دوافع المتعلم. وكثيراً ما يكون تأخر بعض التلاميذ راجعاً إلى إنعدام الميل والإهتمام بمواد التدريس، لا إلى نقص في القـدرات العقلية أو الذكاء.

كذلك فإن موضوع الدوافع يحتل اليوم مركزاً مهماً في الصناعة والعمل، وذلك بهدف رفع مستوى الكفـاية الإنتـاجية لـدى العمال، لإن القـدرة والخبرة والمهارة والتدريب وما يحيط من ظروف مناسبة للعمل لا تعطي النتيجة المرجوة إلا إذا اقترنت بدوافع قوية إلى العمل.

إن جهـل الإنسان لـدوافعه تعتبـر مصدر لكثيـر من المتاعب والمشـاكـل والمعتقدات الباطلة والأزمات النفسية، إن كثيراً من حالات الإنفعال والتوتر والقلق تعود في أساسها إلى أن الشخص لا يعرف ما يريد، وكثيراً من ضـروب التردد والتخبط التي يتورط فيها الفرد ترجع إلى عجزه عن تحديد الأهداف والبواعث التي تحركه وتدفعه تحديداً كافياً. . إن معرفة الإنسان للدوافع الحقيقية للسلوك. لا للدوافع الوهميـة تجعله قادراً على ضبط وتـوجيه والتحكم في الـدوافع من حيث التحكم أو الإرجاء أو التخلي عن السلوك الصادر عنها.

إن أهمية الدوافع لا تقتصر على هذه النواحي فحسب لإن موضوع الدوافع يتصل بجميع موضوعات علم النفس. فهو وثيق الصلة بعمليات الإدراك والتذكر والتخيل والتفكير والتعلم كما إنه أساس دراسـة الشخصيـة.

تعريف الدافع: من أهم تعريفات الدوافع:

١ ـ الدافع هو كل ما يدفع إلى السلوك ذهنياً كان هذا السلوك أم حركياً أم إنفعالياً، إذ لا سلوك بدون قوة دفع وتحريك[1].

ب ـ الدافع «Le motif» هو حالة داخلية جسميـة أو نفسية أو فكـرية تثيـر السلوك في ظروف معينة وتواصله حتى تصل إلى غايتها. الإنسان الجائع يجدّ في

(١) د. كاظم ولي آغا علم النفس الفسيولوجي دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١ ص ١٧٥.

البحث عن الطعام حتى يجده. يدفعه إلى ذلك توتر الجوع، والطالب يسهر الليالي بدافع الرغبة في النجاح أو التفوق.

والدوافع حالات أو استعدادات لا نلاحظها مباشرة بل نستنتجها من الإتجاه العام للسلوك الصادر عنها، فإذا كان السلوك متجهاً نحو الطعام استنتجنا دافع الجوع، وإن كان متجهاً إلى الشراب استنتجنا دافع العطش، وإن كان متجهاً نحو الإجتماع بالناس استنتجنا الدافع الإجتماعي.

١٠٢ تحديد الدوافع وبعض المفاهيم الأخرى في علم النفس:

الدافع والحافز:

الدافع هو قوة محركة موجهة في آن واحد إلى هدف معين، وإذا أثير الدافع وأعيق عن بلوغ هدفه، ظل الفرد في حالة من التوتر، إن الدافع استعداد ذو وجهين، وجه داخلي محرك، ووجه خارجي هو الغاية إلى الهدف.

يسمى الوجه الداخلي للدافع الحافز، وهو حالة من التوتر تولد استعداداً إلى النشاط العام وتجعل الفرد حساساً لبعض جوانب البيئة، الحافز لا يوجه السلوك إلى هدف معين، لإنه مجرد (طاقة دفع من الداخل في حين أن الدافع هو الذي يسعى لتحقيق رغبات وتوترات الحافز الداخلي (دفعه في تجاه معين) ويمكننا القول أن الدافع هو سبب السلوك وغايته في آن واحد.

الدافع والباعث:

الباعث هو موقف خارجي مادي أو إجتماعي يستجيب له الدافع. فالطعام باعث يستجيب له دافع الجوع، ووجود شخص آخر باعث إجتماعي يستجيب له الدافع الإجتماعي، ولا قيمة للباعث دون وجود الدافع، فعندما ما يكون الإنسان في شبع، لا يثير لديه الطعام أي رغبة، فهو إذن لا قيمة له في ذاته، إنما قيمته من الدافع.

الدافع والمنبه:

الأصل في الدافع أن يكون كامناً غير مشعور به حتى يجد من الظروف ما ينشطه ويثيره، والمنبه أو المثير داخلياً أم خارجياً هو ما يحيل الدافع من حالة الكمون إلى حالة النشاط.

مثلاً: إذا لمست اليد جسماً ملتهباً وهو هنا المنبه، الدافع يدفع إلى سلوك معين لتجنب الألم، فالرغبة في الخلاص من الألم هي الدافع.

الحاجة : besoin

وهي حالة من النقص والأفتقار أو الإضطراب الجسمي والنفسي، عدم إشباعها تثير لدى الفرد نوعاً من التوتر والضيق لا يزول حتى يتم إشباع الحاجة، أي حتى زوال النقص أو الإضطراب وإستعادة الفرد توازنه.

أما الرغبة (desire)فهي الميل نحو شخص أو شيء معين، كرغبة الطفل في تقبيل أمة، ورغبة الطالب في مواد علمية معنية، ورغبة السفر، فالرغبة لا تنشاء عن حالة نقص وإفتقار كما هي الحال في الحاجة، بل تنشاء من تفكير الفرد فيها أو تذكره أو إدراكه الأشياء المرغوبة، الحاجة تستهدف تجنب الألم والتوتر في حين أن الرغبة تستهدف التماس لذة.

٢٠٢ ـ أصل الدوافع ونموها:

إن نمو الفرد يتعلق بعاملين: النضج العضوي، ثم التعليم والتدريب، فالمشي عند الولد لا بد فيه من نضج العضلات والأعصاب اللازمة للمشي، ولا بد فيه من شيء من التدريب،كذلك الأمر بالنسبة للكلام لا يتم ما لم تنضج العضلات والمراكز العصبية الضرورية للنطق، وما لم يدربه المجتمع على هذا النطق، إن للوراثة والبيئة أثر في تطور الفرد وسلوكه.

إن الدوافع لدى الإنسان لها علاقة بالعوامل الفطرية، عوامل أخرى مكتسبة نتيجة العلم والتدريب.

إذن هناك دوافع فطرية تنشاء من النضج العضوي وحده، وأخرى مكتسبة بالتعلم والتدريب، ولكن لا بد من القول أن الدوافع الفطرية يؤثر فيها التعليم ويطورها مثلاً دافع الجوع لدى الرضيع يرافقه كيف يصرخ أو يبكي عندما يجوع.

إن للدوافع المكتسبة أثر في إنماء الدوافع الفطرية وتطورها. أن الأكتساب لا يخلق الدافع ولا يجده بل إنه يقوّيه وينميه ويغيّر من مظاهر إشباعه.

٣ ـ أنواع الدوافع ودورها في تفسير السلوك:

إن السلوك الإنساني تحركه طائفة كبيرة من الدوافع من جوع وعطش، وخوف وغضب، حب وبغضاء. . الرغبة في المعرفة والسيطرة على البيئة، وقد بدأت دراسة الدوافع على السلوك الحيواني وكيف يستجيب لمجموعة من القوى الفطرية، ويشترك فيها النوع الواحد وقد دعيت (بالغرائز). وهو سلوك فطري غير مكتسب، يهيىء العضوية باستجابة محددة تجاه ذات المثيرات، إن كل القطط مثلاً تطارد الفئران. وكل العناكب تبني شباكها بطريقة مماثلة، وتتشابه أشكال أعشاش النوع الواحد من الطيور.

وقد ظهرت نظريات كثيرة تصف غرائز الإنسان، وأكثر هذه النظريات شيوعاً وإنتشاراً نظرية العالم الإنكليزي «ماك دوغال» «Mac Dougal»الذي عدد فيها الغزائز على النحو التالي:

ـ غريزة المقاتلة، وإنفعالها الغضب، غريزة الهرب وإنفعالها الخوف، غريزة الوالدية وإنفعالها الحنان، غريزة الإستطلاع وإنفعالها التعجب، غريزة البحث عن الطعام وإنفعالها الجوع، غريزة النفور وإنفعالها الإشمئزاز، غريزة الإستغاثة وإنفعالها الشعور بالعجز، الغريزة الجنسية وإنفعالها الشهوة الجنسية، غريزة الخنوع وإنفعالها الشعور بالنقص، غريزة السيطرة وإنفعالها الزهو، غريزة التملك وإنفعالها حب التملك، غريزة الحل والتركيب وإنفعالها النشاط والعمل، غريزة الإجتماع وإنفعالها الشعور بالوحدة، غريزة الضحك وإنفعالها التسلية وحب السرور.

ويكاد يتفق العلماء على أن هناك نوعان كبيران من الدوافع، دوافع عضوية تستند إلى حاجات جسدية، ودوافع تستند إلى المحيط والبيئة الطبيعية والإجتماعية.

٣ ـ ١ الدوافع ومبدأ إستعادة التوازن:

إن كل كائن حي يميل إلى الإحتفاظ بتوازنه الداخلي الذي يلغيه التوتر، فإذا حدث ما يخل هذا التوازن، قام الجنس من تلقاء نفسه وبطريقة آلية بالعمليات

اللازمة لاستعادة التوازن. إن الجسم إذا إقتحمه جسم غريب أو ضار، قام بالدفاع عن نفسه حتى يسترد توازنه، إن إرتفعت درجة حرارة الجسم زاد إفراز العرق، وإن زاد مقدار ثاني أوكسيد الكربون في الدم زادت سرعة التنفس، فاختلال التوازن الداخلي يؤثر في سلوك الفرد الخارجي ويدفعه إلى إرضائه بالشكل المناسب، إن تفسير السلوك لا يقتصر فقط عند حاجات فسيولوجية، بل يفسر أيضاً إنطلاقاً من دوافع وحاجات نفسية وفكرية واجتماعية.

٣ـ ٢ ـ دور الوظائف الفسيولوجية على الدافع:

إن العوامل الفسيولوجية تؤثر على السلوك بشكل مباشر أو غير مباشر. في «التأثير المباشر» يتغير السلوك العادي نتيجة حدوث تلف في الأنسجة، فمثلاً اضطرابات الأيض (الهدم والبناء) التي تنتج عن الإداء غير المناسب لجهاز الغدد الصمّاء، وقد تحدث آثاراً سلوكية مثل الإفراط في النشاط أو الكسل أو القلق.

ثم إن التلف الذي يصيب المخ نتيجة إصابات عضوية يمكن أن تحدث قصوراً في السلوك التكيفي وتغيرات ملحوظة في علاقة الشخص بالآخرين.

أما «التأثيرات غير المباشرة» فإنها تحدث عندما يكون للحالات الفسيولوجية نتائج إجتماعية تؤثر بدورها على سلوك الفرد. ويعتبر المعوقون جسمياً أمثلة واضحة للتأثير غير المباشر، لإن الإعاقة الجسدية قد تحدث إستجابات مضطربة أو سالبة في الآخرين، الأمر الذي يجعل المعوّق يحس بالنقص، ويحاول تعويض هذا النقص إما بالإنسحاب من العلاقات الإجتماعية أو باللجوء إلى إحدى الصور العديدة من التوافق على المستوى الفكري أو الإجتماعي.

إن آثار العوامل الفسيولوجية على الشخصية والسلوك تتأثر أيضاً بالعوامل الإجتماعية. وإن تفاعل كلا العاملين هو الذي يحدد الناتج النهائي الذي نسميه «شخصية». إن عالم النفس الفسيولوجي يميل ناحية المتغيرات الفسيولوجية في حين أن عالم النفس الإجتماعي يهتم بتحليل التأثيرات الإجتماعية على السلوك.

الفصل الثاني

التركيب العضوي الفسيولوجي وتأثيره على النشاط والسلوك

إن علم النفس حين يدرس السلوك أو النشاط الإنساني، فإنه ينظر إليه نظرة شاملة، أي أن التركيز يكون على الشخص كله بوصفه وحدة بيولوجية متماسكة ومتكاملة تستجيب للبيئة الخارجية بوسائل متنوعة، فالإنسان حين يفكر، أو يتذكر أو ينتبه، فإن النشاط العقلي تصاحبه في الوقت نفسه تغيرات جسمية وحالات وجدانية وإنفعالية: توترات عضلية، نشاط في الحواس، إفراز الغدد، تغيير في التنفس ودورة الدم وعملية الهضم.

كذلك فإن الإنسان حين يشعر بالإنفعال: الخوف، أو القلق أو الحزن أو الغضب، فإن التأثيرات الإنفعالية تصحبها تغيرات واضطرابات جسمية وفسيولوجية[1].

إن معرفة علاقة السلوك المتكامل بوظائف الأعضاء يطرح معرفة بنية الجسم ووظائفه فهماً تاماً.

سوف نحاول أن ندرس في هذا الفصل: المخ، كيف يعمل، النخاع الشوكي الجهاز العصبي المستقل، الغدد وهرموناتها.

١ ـ ما هو الدماغ، وكيف يعمل؟ «Encephale»

إن المخ ليس مجرد كتلة عضوية واحدة يشتمل عليها الجسم، لكنه في الواقع يتكون من مجموعة من الأعضاء، من الناحية التشريحية يمكن التمييز بين

(١) عبد العزيز القوصي أسس الصحة النفسية النهضة المصرية ١٩٥٦ ص ٤١٤.

ثلاثة مواقع أساسية من المخ يقوم كل منها بوظيفة متفردة، لكنها جميعاً تقوم بأدوارها الخاصة بتناسق مع المواقع والأعضاء الأخرى من المخ.

إن تسجيل الجهد الكهربي أو الذبذبات الكهربية التي تصدر عن أجزاء من الدماغ المختلفة يعطينا صورة واضحة بعد تسجيل الذبذبات على شريط حالة الدماغ إن كانت طبيعية أو غير سوية.

ويقاس الجهد الكهربي الذي يصدر عن الدماغ «بالميكرو ڤولت» «أي جزء من الألف بالڤولت»، تحليل الرسم يتم من خلال شكل الموجة، عدد الموجات أو الذبذبات في الثانية الواحدة وسعة الذبذبة.

أما أنواع الموجات التي نصادفها فهي:

أ ـ موجات ألفا (Alpha): وعدد ذبذباتها من (٨ ـ ١٣) في الثانية، وتوجد عادة لدى الشخص الهادىء، والمغلق العينين.

ب ـ موجات بيتا (Beta): وتزيد ذبذباتها عن ١٣ في الثانية وتوجد بنوع خاص في الأجزاء السفلى من الدماغ وتكثر عند المسنين.

ج ـ موجات تيتا (Theta): وعدد ذبذباتها من (٤ ـ ٨) وهي لا تكثر إلا في الحالات المرضية.

د ـ موجات دلتا (Delta): وهي أقل من ٤ في الثانية، لا توجد في الحالات السوّية، وإنما توجد تحت تأثير النوم أو تأثير عقار مخدر أو في بعض الحالات المرضية من فقدان الشعور[١].

١٠١ ـ أجزاء المخ، كيف تعمل، وظيفتها؟.

أن المنطقة الخلفية من المخ تسمى «المخيخ» «cervellet»وهو مركز تنسيق الحركات وتوافقها فضلاً عن أنه المنظم العظيم للحركات اللاإرادية.

أما جذع المخ « bulbe rachidien »فهو الجزء المتصل بالحبل الشوكي،

---

(١) د. كاظم ولي آغا مرجع سابق ص ٩٧ ـ ٩٨.

وفيه تستقر مراكز الوظائف اللاإرادية الضرورية للحياة كالتنفس، وتنظيم دقات القلب، والدورة الدموية وضغط الدم.

أما بقية المخ فهي عبارة عن الجزء الأكبر من حجمه، ويتكون من نصفي كرة المخ، ويتكون نصفي كرة المخ من مادة رمادية تسمى قشرة المخ، وفيها تستقر الخلايا العصبية التي تحكم الملكيات العقلية العليا كالذكاء والإدراك.

٢٠١ - دور اليمين واليسار في المخ:

إن النصف الأيمن من المخ يتولى إدارة الأجزاء اليسرى من الجسم وفيه أيضاً تتركز الوظائف المرتبطة بالحدْس والإنفعال والإبداع وإستخدام الخيال، أما النصف الأيسر من المخ فيتولى إدارة وتحريك الأعضاء اليمنى من الجسم. وعلى هذا فإن توقف العمل في النصف الأيسر من المخ يؤدي إلى حدوث شلل في مناطق وأعضاء يمين الجسم، وإذا حدث الشلل في المناطق والأعضاء اليسرى من الجسم، فأن هذا يعني أن العمل قد توقف في بعض مناطق النصف الأيمن من المخ . . . وللنصف الأيسر أيضاً السيادة من حيث ضبط مراكز الكلام وبعض جوانب التفكير النقدي والتحليلي، والمراكز العصبية التي نضبط نشاط الأحبال الصوتية واللسان والشفتين بهذا فإن شلل النصف الأيسر من الجسم غالباً ما يكون مصحوباً بصعوبات في النطق والكلام والتحليل[١].

ومن المناهج التى أدت إلى نتائج مثيره تحديد الوظائف النوعية للمخ ما يسمى بتسجيل النشاط الكهربي للمخ من خلال جهاز الرسم الكهربي الذي يسجل الموجات الكهربية التى تصدر من المخ « Electro encephalo gramme» وبفضل هذا الأسلوب أمكن إكتشاف مناطق الإحساس بالألم واللذة، فضلاً عن إكتشاف المناطق المرتبطة بتخزين الذكريات القديمة.

ومن المناهج المستخدمة في دراسة وظائف المخ «جراحة المخ» التي تم بفضلها إكتشاف منطقة «بروكا» المسؤولة عن منطقة اللغة، ومنطقة و «يرنيك» المسؤولة عن توليد اللغة، ويتصل بهذه الجراحة جراحات الفص الجبهي الذي

(١) عبد الستار إبراهيم الإنسان وعلم النفس عالم المعرفة عدد ٨٦ الكويت ص ٧٠.

يقع خلف جفن العين، والمسؤول عن العدوان والغضب والإنفعال في الأشكال البدائية.

ومن المناطق المهمة في المخ منطقة «الهيبو تلاموس» ويستقبل أو يرسل «الهيبو تلاموس» الألياف العصبية من عدة أجزاء من المخ. بحيث ترتبط وظيفته بعدة عمليات حيوية في الجسم منها:

التحكم في وظائف الغدة النخامية من خلال أفراز هرمونات تثير هرمونات الغدة النخامية المختلفة كهرمون رافع الضغط، وهرمون معجّل الولادة، والهرمونات التي تغذي الدرقية والكظرية والتناسلية، كما يتحكم في إفراز الماء في الجسم عن طريق الهرمون المضاد لإدرار البول، ويعتبر «الهيبو تلاموس» مركزاً للتحكم في شهية الأكل وبالتالي الجوع والشبع وفي حرارة الجسم وفي النوم واليقظة وضغط الدم من خلال تحكمه في الجهازين العصبيين السمبتاوي والبارا سمبتاوي.

كما يتحكم في عمليات التذكر والتعلم وبخاصة للإحداث القريبة، وفي الرغبة الجنسية (وقد أمكن تهدئة المنحرفين جنسياً ذوي الشبق الشديد عن طريق تعطيل الأنواء البطنية في «الهيبو تلاموس» ويتحكم أيضاً في الإنفعال والسلوك الإنفعالي إذ يقوم بتعديل نشاط اللوزة المهيأة لعمليات الدفاع والهرب والعدوان والعنف.

٢ ـ النخاع الشوكي:

يوجد داخل القناة الفقرية،طوله حوالي٤٥ سم، قطره ١,٥ سم في الشخص الراشد.

هذا وقد أمكن تمييز مناطق مختلفة في المادة التي تتوسط الحبل الشوكي، فالجزء الأمامي أو البطني يحتوي على الخلايا العصبية التي تنشاء منها أعصاب الحركة، أما الجزء الخلفي أو الظهري فيحتوي الخلايا الحسية، والخلايا العصبية الموصلة أو الرابطة، كذلك قسمت المادة البيضاء إلى نوعين رئيسيين:

ـ تلك الصاعدة من النخاع الشوكي إلى المخ، وهي مسارات الأحساس، والأخرى الهابطة من اجزاء المخ المختلفة إلى الحبل الشوكي، وهي مسارات الحركة.

والحبل الشوكي يقوم بوظيفتين أساسيتين هما:

أ ـ يعتبر الحبل الشوكي محطة واصلة بين المخ والأعضاء والأطراف إذ تمر به الإحساسات الآتية من أجزاء الجسم المختلفة حيث تنقل إلى المخ كما يتسلم الأوامر من المخ فينقلها إلى العضلات فتتحرك.

ـ يستقبل النخاع الشوكي عن طريق المراكز المستقلة عن المخ آثار التنبيه من الجذع والأطراف بواسطة الأعصاب الشوكية وتحويلها إلى تيارات عصبية محركة تذهب إلى العضلات مباشرة دون تدخل المخ، وهذا ما يحدث عادة في حالة الأفعال المنعكسة مثل إقفال العين سريعاً إذا فوجئت بضوء قوي، أو ثني الركبة، إذا ضربت الساق أسفل الركبة مباشرة، وهذه الأفعال المنعكسة تقدم فوائد للكائن الحي كالحماية من الأذى وبعضها ضروري لإدامة الحياة كالبلع، وتكون سريعة لرد الخطر[١].

٣ ـ الجهاز العصبي المستقل:

الجهاز العصبي المستقل لا يختص بالحركات الإرادية والإحساسات الجلدية ونحوها، ولكنه يختص بالحياة النامية والحركات المستقلة عن الإرادة كعمليات الهضم وتقلصات الإمعاء، وتنظيم سرعة القلب وإفراز الغدد والإحساسات الحشوية وما إلى ذلك.

ينقسم الجهاز العصبي المستقل إلى قسمين رئيسيين:

أ ـ الجهاز العصبي السمبتاوي:

يختص هذا الجهاز عامة بالإنفعالات وبالسلوك الذي تتطلبه المواقف المستعجلة، أو الحركات العنيفة كالقتال والهرب، ويتولى القيام بأثارة الجسم

(١) أحمد عكاشة علم النفس الفسيولوجي دار المعارف القاصر ١٩٧٧ ص ٢٢.

وأعضائه المختلفة في حالات الخطر أو الإنفعال (توسيع حدقة العين، ورفع الجفن العلوي وبروز العينين)، اليدين تعرق، شدة ضربات القلب وزيادة سرعتها، تضاؤل سرعة التنفس وإرتخاء عضلات الشعب الهوائية مما يؤدي إلى إنقباض الأوعية الدموية، الغدد الدمعية في حالة الحزن، تثار الغدتين: «الإدرينالية» و «البنكرياس» اللتين تفرزان نتيجة لتلك الإستشارة كميات من الهرمونات بحيث ترتفع نسبة السكر في الدم، وبالتالي تتكون طاقة سريعة تحث الجسم للحركة والعمل السريع، إنقباض عضلات الأوعية الدموية وإرتفاع ضغط الدم.

إنقباض عضلات الأوعية الدموية لأعضاء التناسل وبالتالي عدم القدرة على الإنتصاب وسرعة القذف (العنة أو الضعف الجنسي)[1].

ب ـ وظائف الجهاز العصبي البارا سمبتاوي (الوظيفة المهدئة). وهي تعمل بتناسق مع الوظيفة السمبتاوية ولكن في إتجاه سلبي، فإذا كانت الوظيفة السمبتاوية تدفع للفعل، فإن الوظيفة البارا سمبتاوية تحاول أن تقلل من الفعل الزائد. وبذلك تحافظ على الأعضاء الحيوية من التلف السريع نتيجة للإنفعال الدائم. وفي الأحوال العادية من عمل الجهاز البارا سمبتاوي يزداد إفراز الغدد اللعابية، وترتخي عضلات المثانة، وترتخي الأوعية الدموية وبالتالي يتخفض ضغط الدم، وتقل سرعة القلب.

وأهم وظائف الجهاز البارا سمبتاوي:

١ ـ تضييق حدقة العين وخفض الجفن العلوي.

٢ ـ التقليل من سرعة ضربات القلب.

٣ ـ زيادة سرعة التنفس.

٤ ـ تغذية غشاء اللسان بألياف للتذوق وأخرى لإستدرار اللعاب وإفرازه.

٥ ـ قبض عضلات المريء والمعدة والأمعاء الدقيقة.

٦ ـ تنبيه المعدة والبانكرياس لإفراز عصارتهما.

---

(١) محمد عماد الدين اسماعيل المنهج العلمي وتفسير السلوك النهضة المصرية القاهر ٦٢م ص ٩٤.

٧ ـ تغذية الغدد اللعابية.

٨ ـ قبض عضلات المثانة، وإرخاء عضلاتها العاصرة ويتبع ذلك كثرة التبول.

٩ ـ توسيع أوعية أعضاء التناسل يؤدي إلى انتصاب القضيب في الذكر والبظر في الأنثى وهناك نظرية يدعوها عالم النفس الإنكليزي المشهور «هانز إيزنك» حيث يعتقد أن بعض الأفراد يولدون ولديهم نشاط في إحدى الوظيفتين أكثر من الأخرى. وفي رأيه أن الأشخاص الذين يولدون ولديهم زيادة في الوظيفة السمبتاوية هم طائفة من الأشخاص استشارتهم الإنفعالية سهلة وتسيطر عليهم المخاوف المرضية وتتكون لديهم في الحالات المتطرفة حالات القلق والمخاوف المرضية والوسواس.

أما في الحالات الخفيفة فيوجد منهم الإنطوائيون الذين يتجنبون اللقاءات الإجتماعية وتزداد حساسيتهم للنقد والخجل.

أما الأشخاص الذين تزداد لديهم وظيفة البارا سمبتاوي فيميلون للبطء في الحركات والنوم الكثير، وتهبط حساسيتهم للأشياء وتقل دوافعهم ونشاطاتهم، ومن الواضح أن الصحة النفسية تتطلب توازناً في إداء الوظيفتين. ولا بد من الإشارة أن ثمة علاقة وثيقة بين بعض الغدد الصماء والجهاز العصبي المستقل[١].

٤ ـ الغدد الصماء وهرموناتها وفعاليتها في الجسم:

إن الغدد التي يحتوي عليها الجسم تعمل بتناسق مع الجهاز العصبي وهناك نوعين من الغدد[٢]:

الغدد غير الصماء وهي التي تفرز هرموناتها خارج الجسم وذلك كالغدة اللعابية، والغدد الدمعية والغدد العرقية. أما المجموعة الثانية فهي مجموعة الغدد الصمّاء وهي تتصل بالأوعية الدموية وتفرز هرموناتها مباشرة في الدم.

إن الوظيفة الأساسية للغدد الصماء فهي إفراز مواد يطلق عليها إسم

(١) د. كاظم ولي آغا مرجع سابق ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) لازاروس الشخصية مرجع سابق ١٦٦.

الهرمونات، وكلمة هرمون «Hormone» من أصل اغريقي وهي تعني «محرك» أو «دافع»، والهرمونات تلعب دوراً أساسياً في الوظائف الجسمية والنفسية المختلفة والتي منها:

نمو الجسم، عمليات الهدم والبناء، ظبط السلوك الإنفعالي ونمو الخصائص الجنسية، وتحقيق الكامل الكيميائي وتنسيق مختلف العمليات الجسمية.

وثمة ست غدد لكل منه دورها الخاص وهي:

الغدة النخامية، الغدة الدرقية، الغدة الكظرية، الغدة الإدرينالية، البنكرياس، ثم الغدتين الجنسيتين[1].

الغدة النخامية:

تقع بين تنايا الأجزاء المركزية للمخ، تفرز أنواعاً مختلفة من الهرمونات لكل منها دورها الخاص:

أ ـ هرمون النمو: ويعمل على نمو الجسم في السنوات المبكرة من العمر، إن نقص هذا الهرمون يرتبط بالقصر الشديد أو ما يسمى بالقزامة، أما زيادته فترتبط بالطول الشاذ أو «العملقة». عند البلوغ تقوم الغدة النخامية بافراز نوع من الهرمون منشط للغدد الجنسية. فضلاً عن ذلك تقوم الغدة النخامية بإفراز أنواع أخرى من الهرمونات منها التي تنشط إفراز اللبن لدى الأم بعد الولادة، ومنها يذهب إلى الغدد الدرقية لتنشيطها، ومنها يذهب إلى الغدة الإدرينالية فيؤدي إلى ضبط حجمها وإفرازها الهرموني.

ويعتقد البعض أن إفرازات الغدة النخامية تتم بفعل «الهيبو تلاموس». «والهيبو تلاموس» هو أحد أجزاء المخ المتوسط ويتصل من خلال قنوات الدورة الدموية بالفص الأمامي للغدة النخامية ومن وظائف «الهيبو تلاموس»: إثارة الأعصاب السمبتاوية والبارا سمبتاوية، النوم واليقظة، والشهية للأكل، وضغط

(١) أحمد عكاشة علم النفس الفسيولوجي القاصر دار المعارف ١٩٧٠.

الدم، ومن المعروف حالياً أن «الهيبو تلاموس» هو الذي يتحكم في النشاط الجنسي. وإن إثارة هذه الجزء من المخ يخلق نشاطاً جنسياً زائداً «الشبق»، وإن إثارة هذه المنطقة تثير مراكز اللذة الجنسية وقوة الإحساس باللذة الجنسية، وهذا يؤكد القول القائل بأن اللذة الجنسية في جزء كبير منها تنشأ من فعل المخ ونشاطاته.

الغدّة النخامية تفرز أيضاً هرمون «الأستروجين» «Estrogine» الذي ينظم الدافع الجنسي، ويعمل على نضج البويضات و«ظهور الطمث عند الأنثى أي الحيض».

أما في الذكر فيؤدي إلى إفراز الهرمون التناسلي الذكري المعروف بالتستوستيرون «Testosterone» وهو يعمد بدورة على نمو الأعضاء التناسلية الذكرية وسائر مظاهر الرجولة.

ـ الهرمون المكوّن للحليب «Proclatine» ويعمل على نمو الثدي وغدد الحليب في سن البلوغ، عند الوضع يعمل الأستروجين على تكوين الحليب، وتعمل الرضاعة إنعكاساً على زيادة البرولاكتين.

ـ هرمون قابض الرحم.

ويساعد على تقلص عضلات الرحم عند الوضع ليساعد على خروج الجنين، ثم يعمل على إنكماش الرحم وعودته إلى حجمه الصغير بعد خروج المشيمة، كما يساعد هذا الهرمون على قذف الحليب من الثدي إلى الخارج.

الغدّة الدرقية:

أما الغدّة الدرقية فتتكون من فصين على جانبي القصبة الهوائية وتتولى عمليات الأيض. «Assimilation» وهي العملية التي تقوم خلايا الجسم خلالها بتمثيل المواد الغذائية وتحويلها إلى طاقة أو خلايا جسمية جديدة، ومن المعروف أن زيادة إفرازات الغدة الدرقية تؤدي إلى نتائج سلوكية واضحة تشمل التفكير والإنفعال والإدراك، إذ يأخذ التفكير في التفكك وتحدث أنواع مختلفة من الخلط

والهذيان، كذلك تحدث تغييران جسمية منها زيادة سرعة عمليات الهدم والبناء، وزيادة ضغط الدم.

ويزداد عدم الإستقرار الإنفعالي والتوتر.

أما نقص إفراز الهرمون الدرقي يؤدي إلى تساقط الشعر والإحساس المفرط بالبرودة والخمول والكسل. هذا إلى جانب تغيرات أخرى تطرأ على الجسم من أهم أعراضها بطء النمو وجفاف الجلد.

ب ـ زيادة إستهلاك المواد الزلالية مع تحويل الكثير منها إلى السكر.

ج ـ توقف جميع عمليات الإلتهاب والحساسية والإلتئام (مما يؤدي إلى زيادة قابلية الجراثيم للإنتشار في الجسم وكذلك ضعف التئام الجروح والإصابات).

د ـ مقاومة حالات المحن والتعب والجوع، وزيـادة الشهية وتنشيط بعض العمليات العقلية.

كذلك من وظائف هرمونات الغدة الإدرنيالينية تنظيم توزيع الأملاح والماء في الجسم ودرجة إفراز كل منها.

هـ ـ إفراز هرمون الرجولة، وهو موجود في الذكور والأناث في إختلاف في الكم، وتؤدي إلى بزوغ الشعر في الأبطين والعانة، وإلى زيادة نمو الجسم، والى تنبيه الغدد الدهنية بالجلد (مما يساعد على ظهور حب الشباب) وإن زيادة إفراز هذه الهرمون يؤدي في الأناث إلى تضخم سمات الرجولة فيغلظ صوتهن تخزين الكالسيوم والفسفور، وتكوبن العظام والنشاط العصبي والعضلي.

أما نقص هرمون هذه الغدد، فيؤدي إلى نقص الكالسيوم في الدم مع تهيج الأعصاب وتوتر العضلات وتقلصها، وظهور بعض الإضطرابات العقليـة كالقلق والإكتئاب والملل.

ـ البنكرياس.

وهو غدة كبيرة تقع تحت المعدة، ويتراوح وزنها ما بي ٨٠ ـ ٩٠ غراماً.

ويفرز البنكرياس هرمون الأنسولين ووظيفته تنظيم عملية الأيض Assimila-tion الغذائي للمواد السكرية، وتؤثر زيادة الأنسولين أو نقصة على درجة تـركيز السكر في الدم والأنسجة وعلى تخزينه، وعلى إكمال عمليـات إحتراق المـواد الدهنية، كما يؤثر على نشاط الجهاز العصبي المركزي والمراكز العليـا للجهاز العصبي المستقل.

يؤدي نقص الأنسولين إلى الأصابة بمرض السكري، وهو مرض تختل فيه عمليات التحول الغذائي بالجسم، وتزداد نسبة السكر في الدم، حتى إذا بلغت هذه الزيادة حداً معيناً، ظهر السكر في البول أيضـاً، ولصاحب ذلـك الخمول والشعور بالهبوط وقابلية التعب، والذهول، والخلط الذهني.

أما زيادة الأنسولين فيؤدي إلى هبوط نسبة السكر في الدم، وينتج عن نقص السكر، الشعور بالجوع الشديد والإحساس بالتعب، وصعـوبة المشي، وتعـذر القيام بالحركات الدقيقة، وإزدياد إفراز العرق، وشحوب الوجه، والإحساس بالبرد ويصبح المريض قلقاً مهمومـاً سريـع التهيج، تنتـابه نـوبات شـرود وتصرفـات هستيرية.

ـ غدتا فوق الكليتين: وتسمى أيضاً الغدة الإدرينالينية، ويخضع إفراز هذه الغدة لتنبيه من الجهاز العصبي اللاإرادي، وعندما يتم هذا التنبيه تفرز نوعين من الهرمونات اللذين يتحكمان في إستجابات الجسم للمواقف الإنفعالية الطارئة مثل تنظيم ضغط الـدم ومقاومة التعب العضلي وتنظيم دقات القلب وزيادة إفرازات السكر في الجسم في المواقف العصبية.

وأهم وظائف الهرمون الذي تفرزه الغدة الإدرنيالينية:

أ ـ زيادة نسبة السكر في الدم، وتخزين بعضه في صورة «جليكو جين» في الكبد وليس في العضلات، وقد يتسـاقط شعر الرأس وينبت شعر اللحية، أما في الأطفال فيؤدي إلى تبكير النضج الجنسي مع تضخم القضيب وضهور العلامات الذكرية الثانوية كنبت الشارب واللحية وشعر العانة.

ـ **الغدتان الجنسيتان:** فهما يتكونان من الخصيتين عند الذكور وتفرزان الحيوانات المنوية، والمبيض عند الإناث ويفرزان البويضات الأنثوية.

وتحدد كل غدة جنسية فضلاً عن إفرازاتها الهرمونية، الخصائص المميزة لكل جنس، كخشونة الصوت، ونمو الأعضاء التناسلية، وقوة العضلات، وشعر الشارب، واللحية عند الذكور، وترسيب الدهن وتكوين الثديين وتنظيم العادة الشهرية عند الأناث.

إن موضوع الشخصية يتوقف على أمرين: الأول وجود وأنماط من الإداء الوظيفي السيكولوجي يختلف بإختلاف الأشخاص، والثاني وجود فروق فردية واضحة في هذه الأنماط.

إن بعض السمات السلوكية قد تكون نتيجة مقادير مختلفة من الهرمون فمثلاً إن درجة العدوان قد تكون مصحوبة بإفراز مقادير مختلفة من الهرمون الجنسي الذكري مثلاً. ومن المحتمل أن تقوم خبرة الفرد الإجتماعية بدور هام أيضاً في زيادة أو تلطيف العدوان المشكّل بيولوجياً. فنمط السلوك الناتج هو بلا شك ثمرة التفاعل بين العوامل الهرمونية والإجتماعية، ولا يمكن أن تكون الشخصية أو أية صفة مزاجية هي نتيجة التأثير الفسيولوجي وحده فقط.

٥ ـ الإحساسات: أنواعها ومظاهرها.

تمهيد: يولد الكائن الحي في هذا العالم وهو مزود بقوى هائلة، تنقل العالم الخارجي إليه، وأولى هذه القوى الإحساس، ويستقبل الإنسان المؤثرات الحسية من نواحٍ ثلاثة.

أ ـ **من البيئة الخارجية:** وتستقبلها العين والأذن والأنف واللسان والجلد وهذه الأعضاء تنقل إحساسات البصر والسمع والشم والذوق واللمس وكذلك إحساسات الدفء والحرارة والألم.

ب ـ **من البيئة الداخلية:** وتنقلها أعضاء مستقبلة داخلية، وأصدق مثل على هذه الإحساسات (الجوع وإمتلاء المثانة وإمتلاء الإمعاء).

ج ـ من العضـلات والمفـاصـل: وتنقلهـا الأعصــاب المستقبلة لهـا في العضلات والمفاصل والمؤثرات التي تبعثها هي الحركة وتقلص العضلات.

هذا وتعتبر الخبرات الحسية عن طريق الحواس أساساً لردود أفعال الإنسان وعليها تتوقف معرفته بنفسه وجسمه وبيئته الداخلية والخارجية. ولا تخلو عملية من العمليات النفسية كالتعلم والتفكير والإنفعالات وما اليها منها.

تعريف الإحساس:

«الإحساس هو استجابة نفسية لمنبه يقع على عضو الإحساس، ويسير في عصب حسي حتى يصل إلى مركز معين في الدماغ».

والإحساس هو دارية الكائن بحدوث تغيير فيه بواسطة أي منبه، فنحن في الواقع لا نحس بالشيء الخارجي ولكننا نحس بإستجابة أعضاء الحس لهذا الشيء وتأثرها به. فالمدركات الحسية هي أشياء خارجية لها القدرة على تنبيه أو إثـارة أعضاء الحس المختلفة، فيدركها العقل على نحوٍ مـا، فنحن لا ندرك الأشيـاء الخارجية وإنما نتلقي بعض تأثيراتها، فالجسم الأحمر مثلاً ليس بأحمر ولكنه من مادة لها القدرة على إمتصاص أغلب الموجات الضوئية التي يحتويها الطيف، ما عدا ذلك النوع من الموجات الذي لا يمتصه الجسم بل يعكسه إلى العين، ويؤثر على أعصاب معينة في الشبكية، تنقله إلى الدماغ حيث يترجم هذا الإحساس إلى إدراك الحمرة، أي يخلع العقل صفـة الحمرة على الجسم الخـارجي، وهكذا الحال في سائر أنواع الإحساس أو الإدراك التي هي معان ذاتية يصوغها العقل. وإن كنا نسقطها على الشيء الخارجي.

صفات الإحساسات:

تختلف الإحساسات فيما بينها في النوع والدرجة وفي النقاوة[1].

١ ـ من حيث النوع: إذ إن كل عضو حسي ينقل إلينا الإحساس الخاص به، فهناك إحساسات بصرية وأخرى سمعية ولمسية... كما تختلف هذه الإحساسات

---

(١) سامي الدروبي الموجز في علم النفس مطبعة العلم دمشق ١٩٥٤ ص ١٤٣.

التي تنقلها الحاسة الواحدة فيما بينها في النوع، ففي مجال الإحساس البصري مثلاً تختلف إحساسات اللون الأخضر عن إحساسات اللون الأحمر أو الأزرق كما تختلف إحساسات الذوق مثلاً فهناك المر والحلو والمالح .

كيف تتم عملية الإحساس؟

جسم الإنسان ممتليء بالحيوية والحركة والنشاط، لذلك تستمر حواس الإنسان في التأثر بالمنبهات دائماً، حتى في حالة النوم، تستمر الآذان بالتقاط المنبهات الصوتية، والجلد بالتقاط المنبهات اللمسية، ومن المحتمل طبعاً أن تكف معظم هذه المنبهات عن العمل في الجهاز العصبي أثناء النوم، ولكن لا يكاد يصل الصوت إلى حدٍ من القوة حتى تجد الإنسان يتقلب في فراشه، نفهم من ذلك، إذن أن الإنسان حتى عندما لا يكون شاعراً بالإحساسات أو الإستجابة لها، تحدث هذه الإحساسات رغم ذلك، وتمر في خطواتها الثلاث المعتادة في فعالية الإستجابة[1]:

١ ـ تستثار بعض الخلايا المتسلمة عن طريق وجود تنبيهات معينة، تستثيرها دون غيرها.

٢ ـ تنقل البواعث الناجمة عن الإستثارة إلى الجهاز العصبي.

٣ ـ تستثير هذه البواعث العصبية فاعلية أعضاء الإستجابة كالعضلات والغدد في الجسم[1].

(١) د. كاظم ولي آغا مرجع سابق ص ١٣٠



الباب الثالث

النمو المعرفي عند الطفل

يعتبر بياجيه أن العمليات العقلية للإدراك والمعرفة تتكون من خلال التفاعل والتأثير المتبادل بين الكائن الحي والبيئة. إن التعلم والتدريب حسب بياجيه لا يكـونان فعـالين إلا إذ جاءا في وقت مـلائم من النمو بمـا تفرضـه المرحلة من استعدادات، إن تعليم هذه القدرة أو تلك يجب أن يتم عندما يكون الطفل مستعداً لذلك. أن تدريب الطفل على اللغة أو التفكير المجرد لا يتم في مراحل العمر المبكرة حيث يعتمد فيها تفكير الطفل على المحسوسات. يري بياجيه أن الطفل لا يتعلم آلياً كالببغاء بل يتعلم ويدرك بيئته بحسب استعداداته العصبية والفكرية خلال مراحل النمو المختلفة[1]:

(١) Piaget «psychologie et pedagogie, Paris, meditations 1969.



الفصل الأول

مراحل النمو حسب بياجيه

يعتبر بياجيه أن الإدراك عند الطفل يختلف بـأختلاف النمـو الفكري ففي مرحلة الطفولة المبكرة يرى الطفل نفسه مركزاً للكون «Egocemtrisme» ، وإنه لا وجود للكون خـارج إطار ذاتـه، ومع التـطور الفكري فـإن الطفـل ينتقل من المرحلة، التي كان يعتبر فيها أن إختفاء شيئاً ما ، لا يعني إنه لم يعد موجوداً في العالم، حجب اللعبة عن نظر الظفل الذي يقل عمره عن سنة يعني ببساطة أن لعبته لم يعد لها وجود، إن الإدراك الجديد للطفل يأتي مواكباً لنمو في عالم التفكير محورة القدرة على الفصل بين الذات والعـالم. وهكذا فـإن تطور الـطفل على مستوى الفهم والتفكير يتم في مراحل متعددة حيث تكشف كل مرحلة عن مدى التفاعل بين خبـرات البيئة، واستعـدادات الطفـل النفسية والفكـرية والهـوامات الخيالية.

وقـد قام بيـاجيـه بعـدد من الأبحـاث ليثبت دور العـلاقـة المتبـادلـة بين الإستعدادات العصبية أو الفكرية والخبرات البيئية في تطور ذكاء الطفل ونمو قدرته على المنطق[1].

وقد اتخذ بياجيه من أطفاله الثلاثة (جاكلين، لوسيان ولورنت) مـوضوعـاً لاثبات نظريته التي تدور حول المراحل المختلفة التي يتطور فيها التفكير والذكاء إبتداءً من الفترات المبكرة من الطفولة وقد نشر تجاربه على أطفاله الثلاثة في أشهر كتب ثلاثة هي :

---

(١) عبد الستار إبراهيم الإنسان وعلم النفس مرجع سابق ص ١٤٢ - ١٤٣ .

أصول الذكاء عند الأطفال: اللعب والأحلام والمحاكاة عند الأطفال؛ وبلورة الواقع عند الطفل.

١ ـ نظرية بياجيه حول المعرفة عند الطفل:

تتمحور حول تطور التفكير في مراحل أربع هي[١]:

١ ـ مرحلة التفكير الحسي ـ الحركي: هذه المرحلة تستمر خلال العامين الأولين من حياة الطفل وفيها يكتسب الطفل قدرته الأولى على التفكير والإستنتاج من خلال الصور العقلية الحسية وليس من خلال اللغة المجردة.

٢ ـ مرحلة ما قبل التفكير الإجرائي وتستمر خلال الفترة التي يكون فيها الطفل في سن بين ٢ ـ ٧ أعوام.

وتبدأ هذه المرحلة في البداية بفترة يتمكن الطفل خلالها من التعرف على الكلمات والرموز من خلال الموضوعات التي يصادفها أي التطابق بين الكملة والموضوع. وفي نهاية هذه المرحلة يبدأ الطفل في التمييز بين الرمز أو الكلمة المرموز إليه أو الموضوع.

٣ ـ المرحلة الإجرائية ـ العيانية: تبدأ هذه المرحلة بين عمر ٧ ـ ١١ سنة. وفيها ينتقل الطفل إلى المعالجة الفكرية دون ضرورة وجود المحسوسات.

٤ ـ المرحلة الإجرائية ـ الشكلية، تقع هذه المرحلة بين ١٢ ـ ١٥ سنة من عمر الطفل، وهذه المرحلة أقرب إلى التفكير المجرد في أعلى صورة.

إن نظرية بياجيه في المعرفة هي نظرية شكلية نمائية فهو لم يعالج كما فعل فرويد العمليات الدافعية والإنفعالية كالدافع الجنسي وما يتصل به من مشاعر وتطورات خيالية وكبت، لقد ركز بياجية على النمو المعرفي، أي العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة حتى الرشد.

إن فرويد درس النمو في الطفولة، من خلال حياة وصف الراشد لحالته

---

(١) Piaget «la naissance de l'intelligence chez l'enfant» Paris, de la chaux 1963.

الوجدانية في فترة الطفولة أثناء جلسات العلاج النفسي، أما بياجية فقد درس النمو المعرفي بإعطاء الأطفال مشكلات لحلها ثم فحص الطرق التي اتبعوها في حلّ هذه المشكلات في أعمار زمنية مختلفة. إن بياجيه ينظر إلى السلوك كعملية تكيف مع الحياة حيث يحافظ الفرد من خلالها على حالة التوازن بين نفسه والبيئة. إن التغيرات التي تحدث في البيئة تؤدي بإستمرار إلى اضطراب هذا التوازن، ويعود الفرد إلى حالة التكيف، من خلال تغيير الفرد لنفسه (أي الملائمة مع البيئة) أو معالجة البيئة، إن التفكير العقلي عند الطفل ينمو ويتطور من خلال عملية التغيير التكيفي المستمر بين الفرد والبيئة.

إن بياجيه في نظريته يكشف المراحل المختلفة التي يتطور خلالها التفكير العقلي من خلال التفاعل مع البيئة، إن الطفل خلال الشهر الأول يكون سلوكه محصوراً في «الأفعال المنعكسة» مثل المص، بين شهر وأربعة أشهر ينتقل الطفل إلى مرحلة «الأستجابات الدائرية الأولية» وتمتد من شهر إلى أربعة أشهر فيها يكرر الطفل، من أجل التكرار وحده، القيام بأعمال بسيطة وأن الطفل يعيد بصورة لا متناهية نفس الصوت، والذي يحدث أن الطفل يسمع الصوت الذي يخرج منه والناتج عن وضع عضوي معين، ما يحدث أن تجربته السمعية قد تصبح المؤثر الشرطي الذي يعيد نفس الرد الحركي. ويمكن حوالي الشهر الثامن أن يقلد الأصوات التي يحدثها الآخرون، عندما يبلغ الطفل عمر الشهر الثامن عشر نراه ينهمك في تجريب اسلوب المحاولة والخطاء على البيئة، فالطفل يدرك أن في إمكانه التأثير على عالم الأشياء، كما يدرك أن هذه الأشياء مستقلة عن ذاته، في هذه المرحلة يبدأ الطفل في الفهم الكلامي حيث نرى أن الطفل يبدأ بالجواب عن الأصوات التي يحدثها الآخرون بحركات خاصة ويمكن أن نعلل ذلك بمبدأ المنعكس الشرطي مثال: لعب الطفل في الحمام، حيث يشاهد الماء يبدأ بنفس الحركات المصحوبة دوماً بنفس الأصوات.

إن المرحلة الكبرى في النمو الفكري عند الطفل هي التي يبدأ فيها بالتعبير الكلامي، حيث يظهر التفكير المستقل نوعاً ما عن الوجود الظاهر للإشياء إن

الأشياء تأخذ معنى رمزياً، إن الطفل يستجيب إلى لعبه من البلاستيك أو المطاط كما لو كانت تمثل أحد الأباء أو الأخوة، وابتداءً من سن الحادية عشرة تقريباً، ينتقل الولد إلى المرحلة التي يتحرر خلالها التفكير كلية من معالجة الموضوعات العينية والحسية، فالولد يمكنه من الآن تصور الأحداث ومعالجتها رمزياً.

ويظهر عنده التفكير والتقييم والتخطيط دون الإتصال المباشر بالمظاهر المادية لهذه الأحداث، أي بمعنى إنه يستطيع إدراك الشيء دون أن يراه أو يلمسه حيث أن التفكير يكون مجرد وقادر على التكيف إلى حدٍّ بعيد[1].

٢ ـ مقارنة بين فرويد وبياجيه.

إن بياجيه درس الشخصية من خلال تحليل نمو التفكير وتكيفه مع البيئة. أما فرويد فقد حلّل الشخصية من خلال نمو المراحل النفسية الجنسية[٢].

لقد نظر فرويد أن شخصية الراشد تحمل آثاراً من صراعات ما قبل المرحلة التناسلية « phallique » حيث أن لكل مرحلة من مراحل النمو يقابلها نمطاً خاصاً للشخصية، كما هو الحال في إنماط الشخصية الفمية أو الشرجية أو القضيبية، حتى أن الشخص «العادي» يحمل آثاراً نفسية للمراحل قبل التناسلية. كما في حالة المداعبة الجنسية السابقة على الجماع.

حسب نظرية فرويد فإن التقبيل هو من الآثار الباقية (للجنسية الفمية). كذلك ظاهرة الكتابة على حوائط دورات المياة (المراحيض) والتى يغلب فيها النكت الجنسية الفمية والشرجية.

إن فرويد إعتبر أن نمو المراحل النفسية الجنسية للطفل تتأثر بأسلوب التنشئة من حيث الدلع (التدليل) الزائد أو القسوة الزائدة حيث أنه من المحتمل أن يحدث ذلك تثبيتاً لطاقة اللبيدو مما يعيق التقدم والنمو إلى المرحلة التالية.

بياجيه اعتبر أن الملامح الأساسية الحقيقية لتكيف السلوك العقلي والنفسي

---

(1) Piaget «la formation du symbole» Paris, Delachaux 1954.

(٢) لازاروس الشخصية مرجع سابق ص ٩٠ ـ ٩١.

والحركي تتمثل في القدرات العقلية للفرد وأساليب تفكيره.

حسب بياجيه إن حياة الفرد الدافعية والإنفعالية والإجتماعية تتمحور وتتحدد إلى حدٍّ كبير بالسؤال:

بماذا وكيف بفكر الفرد في نفسه وفي العالم الذي يعيش فيه؟ إن العمليات المعرفية التي ينميها الفرد هي الأساس في كل شيء بما في ذلك الخبرات الإنفعالية والدافعية والإجتماعية.

إن موضوع الفروق الفردية في مراحل النمو المختلفة يتحدد عند فرويد من خلال التثبيت والنكوص. حيث أن بعض الأفراد يبقون عند مستويات قبل تناسلية (فمية أو شرحية)، كذلك فإن بعض الأشخاص تحت ضغط ظروف قاهرة تظهر متأخرة في الحياة، ينكصون إلى مستوى غير ناضج من العمل، فالفصام مثلاً، هو في نظر فرويد نكوص إلى مستوى فمي مبكر جداً، والبارانوما نكوص إلى مستوى شرجي مبكر، والعصاب نكوص إلى مستويات نفسية متأخرة شرجية أو قضيبية. إن آخر مستوى من النمو يصل أليه الفرد هو الذي يحدد حياته الدافعية والوجدانية ويحدد أيضاً نمط العلاقات الإجتماعية.

لقد كان هم بياجية إثبات العلاقة بين النمو والنضج والخبرات البيئية في تطور ذكاء الطفل ونمو قدرته على المنطق العقلي والتفكير، إن النمو حسب بياجيه ما هو إلا الانتاج لقوة الإستعدادات الطبيعية وقدرتها النوعية على الاستجابة للقوى الخارجية، وعناصر البيئة (الإجتماعي والطبيعي).

إن علم نفس الطفل عند بياجيه هو علم نفس تطور الذكاء.

الفصل الثاني

التغييرات التي تحدث في مراحل النمو

إن التغييرات العقلية والفكرية التي تحدث عند الطفل خلال مراحل النمو المختلفة هي نتيجة لقوة الإستعدادات الطبيعية والفطرية عند الطفل ونوعيتها وكيفية استجاباتها للبيئة الخارجية، وقد قسم بياجيه مراحل السلوك عند الطفل إلى ستة مراحل هي[1]:

١ ـ المرحلة الجنينية وتمتد (حتى الميلاد).

٢ ـ مرحلة النمو الحسي ـ الحركي وتمتد (من الميلاد حتى السنتين).

٣ ـ مرحلة الطفولة المبكرة وتمتد (٢ ـ ٦ سنوات).

٤ ـ مرحلة الطفولة المتوسطة وتمتد (٦ ـ ٨ سنوات).

٥ ـ مرحلة الطفولة المتأخرة وتمتد (٨ ـ ١٢) سنة.

٦ ـ المراهقة أو البلوغ.

١ ـ المرحلة الجنينية: يمر الجنين قبل أن يتكون في مدة تسعة شهور في رحم الأم في مراحل ثلاث متميزة.

- تلقيح البويضة (من ٤ ـ ٧ أيام).
- بداية تشكيل الجنين (تنتهي بنهاية الأسابيع الثمانية من الحمل).
- مرحلة الجنين (تستغرق الشهور الستة الباقية من الحمل).

إن ما يحدث في رحم الأم خلال فترة الحمل له نتائج هامة على الصحة العامة للطفل، فضلاً عن حالة الأم الصحية أثناء الحمل وحالتها النفسية.

---

(١) حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو بيروت دار العددة ١٩٨١.

٢ ـ مرحلة النمو الحسي الحركي (من الولادة ـ حتى السنتين) ينتقل الطفل من بيئة الرحم الداخلية، إلى بيئة العالم الخارجي، بيئة معقدة، مليئة بالمثيرات، مزوداً بمجموعة من الإستعدادات الحسية والعصبية تساعد الطفل على النمو، إن الطفل حديث الولادة يقوم بحركات عشوائية، لا يقدر على ضبط عضلات يديه ورجليه، يختلج، يرتعش، يعطس، يبكي، تنفسه ودرجة حرارته غير منتظمة، خلال هذه الفترة لا يوجد فاصل بين الوظائف النفسية والوظائف الفسيولوجية، غالبية سلوك الطفل يتصل بالوظائف الفيزيولوجية الأكل، النوم، الإبراز[1].

١ ـ النمو الجسمي:

أ ـ الوزن والطول: الوزن عند الميلاد حوال ٣ كلغ، الطول حوالي ٥٠ سم، يزيد الوزن نحو ٣/٤ كلغ شهرياً، يزيد الطول ٢,٦ سم، خلال الأشهر الأربع الأولى، هناك عدة عوامل كثيرة تؤثر على طول الطفل ووزنه، وهي تتعلق بظروف الأسرة، الجنس الذي ينتمي إليه الطفل، حالة الطفل الصحية.

ب ـ بروز الأسنان: تبدأ في الشهر السادس أو السابع، ويتأخر إلى الثامن. يظهر أولاً القاطعان الأسفلان الأوسطان، ثم القاطعان الأوسطان العلويان في نهاية السنة الأولى يصبح مجموع اسنان الطفل ٦. ٤ في الفك الأعلى و٢ في الفك الأسفل، وفي سن ١٨ شهراً، يصبح مجموع الأسنان ١١ سناً، وتظهر الأنياب بين ١٨ ـ ٢٠ شهراً، وفي نهاية السنة الثانية يصبح مجموع الأسنان ١٦ سناً.

ج ـ النوم: النوم ضروري للطفل حديث الولادة، فهو ينمو أثناء النوم، كلما زاد عمر الطفل الزمني، قل نومه، في نهاية الشهر السابع قد ينام الطفل فترة تصل إلى ٩ أو ١٠ ساعات.

٢ ـ النمو الحركي:

في الأيام الأولى يبدأ الطفل بتحريك جسمة كله، ثم يتجه النمو الحركي من الرأس، إلى القدم، لا يمكن القول أن الأطفال كلهم يسيرون في ذات النمو.

(١) عاقل فاخر علم النفس الجزء الثاني دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦.

إن عملية المشي تختلف بأختلاف الصحة العامة والوزن والذكاء، ولا يجوز تعليم الطفل المشي في عمر مبكر لإنه يلزم لعملية المشي نضج وممهدات وتنسيق بين حركات الأعضاء. للمشي أهمية كبيرة في حياة الطفل العقلية، فهي تكسب الطفل الإستقلال والإعتماد على النفس، وإكتشاف العالم الخارجي، وتزوده بكثير من الخبرات الإدراكية والإنفعالية وإلى النمو الإجتماعي.

٣ ـ الحواس:

أ ـ البصر: تعمل العينين منذ الميلاد ، يستجيب الطفل للأضواء بجفنيه، ويتبع برأسه وعينيه شيئاً يتحرك أمامه. مع الزمن تقل حركة الرأس وتنمو حركة العينين (حوالي ٤ أشهر)، تنمو قدرة الطفل على تتبع الشيء أفقياً قبل قدرته على تتبعه عامودياً، ويتبع الأشياء التي تتحرك ببطء قبل الأشياء التي تتحرك بسرعة، ثم يبدأ التوافق بين اليدين والعينين، وتتولى العينان توجيه حركات اليدين والرجلين[١].

ب ـ السمع: ينتفض جسم الطفل حديث الولادة للأصوات العالية المفاجئة، كما يقابل الأصوات الهادئة بغلق جفنيه في الشهر الرابع يميز صوت الأم عن بقية الأصوات، إن طبيعة الأصوات (الهادىء ـ الحاد والمفاجىء ـ الضجيج) تؤثرعلى نمو الطفل الإنفعالى وعلى جهازه العصبي. يميز بين أصوات أفراد الأسرة حوالي الشهر الخامس، يبدي الدهشة لدى سماعه صوتاً غريباً لم يألفه، يتأثر بإنفعال الأم في الحديث والمداعبة والتحذير والغضب.

ج ـ الذوق: الطفل حساس للحلو والمالح.

د ـ الشم: حاسة الشم عند الطفل تنمو ببطء شديد، بل هي ابطأ الحواس في النمو.

٤ ـ النمو الإدراكي:

يرى بياجيه أن معظم نشاطات الطفل في السنة الأولى هي من النوع

(١) علي زيعور مريم سليم حقول علم النفس دار الطليعة ١٩٨٦ ص ٩٢.

الإنعكاسي، التي تقتصر على الإستجابات الحسية المباشرة للبيئة، الطفل عاجز عن الفصل بينه وبين العالم الخارجي، وعي الطفل للعالم الخارجي يتم من خلال الإستجابات للمؤثرات التي تقع في مجاله البصري واللمسي، في بداية العام الثاني يبدأ الطفل يعي أن الأشياء توجد منفصلة عن ذاته ومستقلة عنها.

بين ٣ـ ٦ أشهر، يملك الطفل القدرة على التعرف على والديه، وهذا يدل على ظهور نوع من الذاكرة والإنتباه.

بين ٦ ـ ٩ أشهر، يقلب الطفل الأشياء بين يديه للتعرف عليها. يتعرف على الوجوه، يستعمل راحة يديه للقبض على الأشياء، إذا نزع منه شيء يبكي[١].

٥ ـ نمو الكلام، واللغة.

يسير النمو اللغوي عند الطفل مرافقاً للنمو العقلي والإجتماعي، ويتأثر النمو اللغوي بعدة عوامل منها:

العمر، الصحة العامة، الجنس، مستوى الذكاء، ظروف البيئة، ظروف الأهل من حيث الظروف الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والعمر.

٦ ـ إدراك الطفل لنفسه وللعالم الخارجي:

يبدأ الطفل حياته بالتركيز على نفسه، فيخلط بين ذاته وبين الأشياء الخارجية، الطفل يدرك العالم الخارجي إدراكاً أجمالياً لا تفصلياً، وينتج عن التركيز على الذات والإجمالية نتائج عديدة، كما استخلصها بياجيه:

١ ـ اللاواقعية عند الطفل:

نظرة الطفل إلى العالم الخارجي غير واضحة، يميز بين الرغبة والتمني وما هو موجود في الواقع.

(١) Piaget, «sixetudes de psychologie» Paris, médications 1967.

يرى حلماً فيظنه واقعاً، إذا رأى لعبة في الحلم، يسأل عنها، عندما يستيقظ قد يبكي ويطالب بها.

٢ ـ الإحيائية « Ani misme » : يتخيل الطفل أن الأشياء الجامدة حية، إنها تحس وتتألم، نراه يضرب الحصان الخشبي، النبت تطعم لعبتها.

٣ ـ الإصطناعية: يعتبر الطفل الأشياء حوله وكأنها من صنع الناس، أن لكل شيء وظيفته: الشمس خلقت لتدفئنا، المطر ليسقي الأرض، الأرض لنمشي عليها، ويعتقد أن والديه صنعا الأشياء من أجله، لذلك فهو يعزو إلى والديه قوة خارقة[١].

---

(١) Piaget, «Mes idees» Paris, rheditations, 1973.

الباب الرابع

تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية على السلوك وسمات الشخصية

إن السلوك الإنساني لا يتحدد فقط بالعوامل النفسية والفكرية والفسيولوجية، ولكنه يتأثر أيضاً بالظروف الإجتماعية والنماذج الثقافية والإنماط الإقتصادية. إن كل سلوك يتضمن مَوقفاً إجتماعياً سواء كان الفرد لوحده أو مع جماعة من الناس، عندما يوجد الإنسان مع شخصٍ آخر، فإن وجود الآخـر له تأثير قوي على كيفية السلوك من خلال التفاعل والإستجابة.

إن كل شخص يمر، خلال مراحل نموه، ومنذ اللحظات الأولى للحياة بعد الولادة، بعدد من الخبرات مع الآخرين، وهذه المهارات والقدرات تؤثر في بناء الشخصية النامية التي تحكم بدورها السلوك الإجتماعي.

يعتبر وليم جيمس أن الشخصية التي تنشأ من مجموعة من الغرائز وتطور بتأثير الظروف الإجتماعية (الدور والمركز) دراسات جيمس تطورت مع بلدوين (Baldwin) ، وكولي (Cooly)وميد (Mead)[1].

١ ـ نظريات بلدوين الإجتماعية تتعارض مع نظريات داروين البيولوجية، بالنسبة إليه المجتمع لا يشبه الكائن البيولوجي ولكنه كناية عن تنظيم نفسي ـ أجتماعي، حسب بلدوين البعد النفسي لا ينتج عن الإجتماعي والعكس بالعكس، الثنائية فرد ـ مجتمع ليس لها أساس في الواقع الإجتماعي، الفرد والجماعة في الحقيقة عنصران وجزءان لذات واحدة، هذا ما نراه في دراسة المراحل المختلفة لتكوين «الأنا» عند الطفل، في المرحلة الطفولية الأولى، شخصية الفرد ليست سوى استجابات لمجموع مثيرات البيئة، في المرحلة اللاحقة، يبدأ الطفل بالإستجابة لتأثير الأشخاص المحيطون به، في المرحلة الثالثة يتعلم الطفل أن يعي استجابات الآخرين نحوه، ويبدأ في تقليد نفسه كما لو أنه شخصاً آخر، وعي الذات يبنى على صورة سلوك الآخرين، في المرحلة الرابعة من النمو، صورة الآخرين بالنسبة للطفل تنبع من هواماته وتخيلاته الخاصة، أهمية نظرية بلدوين تكمن في رفضه للوعي الذاتي كمعطى مستقل عن وعي الآخرين (وعي الذات ووعي الآخر يتشكلان من خلال التفاعل وجود الأخر يتم من خلال وعي الذات.

الشخص الثالث هو (il) يستعمل كنموذج لبناء الأنا (moi) والذي بدوره يساهم في وعي الأنت (toi).

ب ـ كولي يعتبر أن المجتمع والفرد يشكلان وحدة لا تتجزأ في كتابة « The indivi dual and society » (١٩١١)، يذكر أن الخطاء المشترك لعلم النفس وعلم الإجتماع هو كيفية معالجة الفرد، حيث إنهما درسا المؤسسات والأليات الإجتماعية كمعطيات مستقلة.

---

(١) Jean stoctzel la psychologie sociale Flammarion, Paris 1978.

في كتابة الطبيعة الإنسانية والنـظام الإجتماعي la nature humaine et »
« l'ordre social (١٩٠٢)، يبين كولي كيف أن العادات والإتجـاهات ومـظاهر السلوك تتكون داخل العائلة خلال التفاعل بين أشخاص الأسرة، «أفكارنا، قيمنا، ليست نتيجة استجابات للتفكير المجرد، ولكنها نتيجة اسلوب التفكير والعقليـة للجماعة الأولية: العائلة، جماعة الرفاق» الشخصية حسب كولي تتأثر بنمط الحياة الصناعية حيث تستبدل العلاقات الثانوية لتحل محلها العلاقات الأولية.

يتفق كولي مع بلدوين أنه بعد تكوين الشعور بالأنا، تكتسب الشخصية من خلال التفاعل مع الآخرين تأثير المؤسسات الإجتماعية.

ج ـ الـطبيعة الإجتمـاعية للشخصيـة ووعـي الـذات تبرز في أعمـال ميد (Georgu Herbest Mead) ١٨٨٣ ـ ١٩٣١)، الأنا (le moi)حسب ميد، يبرز في السلوك عندما يصبح الفرد كائناً إجتماعياً من خلال التجربة الخاصة، حسب ميد «الأنا» عند الفرد هو معـطي إجتماعي، في سبيـل فهم الدور الإجتمـاعي علينا ملاحظة الولد خـلال اللعب، القواعد والنظم التي تفرضها نماذج الألعاب، تساهم في بناء وتنظيم شخصية الولد.

إن الولد أثناء اللعب يتفاعل إجتماعياً، لإنه يتصور نفسه مكان الآخرين، تتعدد الأدوار التي يقوم بها الفرد بتعدد الوظائف الإجتماعية لإنماط السلوك، إن تعدد الأدوار لا يبني الشخصية، المهم أن تتكامل وتتوحد «Intègration » الأدوار في بناء موحد للإنا مما يؤدي إلى تطور وتقدم الأفكار والمواقف، نقطة الإنطلاق التجارب الحسية ـ الحركية والأدوار المتمـايزة. سلوك الـولد لا يتجـاوز مستوى الأدوار، في حين أن الشخص الراشد يدمج «Intègre » في شخصيتـه المفاهيم العامة للجماعة التي ينتمي إليها.

يقول ميد: «يوجد مرحلتان في تطور الأنا».

ـ المرحلة الأولى: يتكون الأنا من خلال تنظيم الإتجاهات الخاصة للآخرين من خلال المشاركة والتفاعل معهم.

ـ المرحلة الثانية: تطور الأنا الفردية، يتم من خلال تنظيم الإتجاهات الإجتماعية للآخرين أو الجماعة التي ينتمي الفرد لها، يبلغ الأنا تطوره الأعلى من خلال تنظيم إتجاهات الآخرين في إطار إجتماعي.

حسب ميد الشخصية لا تتكون فقط من خلال الأنا الضمير (le moi) ولكن أيضاً من خلال الأنا الفاعل (Je) الأنا الفاعل هو وعي لأنا الضمير.

إن مراحل النمو المختلفة للطفل تساهم في إنتقال الأنا العضوي، إلى وعي، لا وعي، من خلال الترابط الفكري للتجارب الأجتماعية، الأنا لا يوجد فقط على مستوى الفكر ولكن أيضاً على صعيد العمل الإجتماعي. أي بمعنى أن الشخصية ليست فقط إجتماعية على صعيد وعي الذات (le moi) ولكن أيضاً على صعيد وعي الأنا (Je) الإجتماعي.

الفصل الأول

الفرد والثقافة

إن سلوك الفرد في بيئة (طبيعية، إجتماعية) معينة لا يمكن فهمه إلا من خلال الإطار الثقافي للمجتمع، من الضروري فهم النماذج الإجتماعية والثقافية للمجتمع لكي نفهم السلوك الحسي للكائن وما يقابله على المستوى النفسي. في الواقع حقل السلوك هو إجتماعي وثقافي. ما يميز الحقل هو البناء الإجتماعي حيث تبرز المواقف والأدوار. يضاف إلى الوسط الإجتماعي، الوسط الطبيعي الذي يلعب دوراً مهماً على صعيد سلوك الفرد.

فكرة الوسط الفيزيائي هي جزء من ثقافة المجتمع، الوصف الفيزيائي للوسط يتضمن في الواقع وصفاً لثقافة المجتمع. هذه الفكرة كانت قد لوحظت من قبل عالم الإجتماع أميل دور كايم «Dur Kheim» في كتابة «الأشكال الأولية للحياة الدينية) (١٩١٢)، حاول دور كايم في كتابة أن يكشف السمة الأجتماعية للوسط الطبيعي، وذلك من خلال دراسته لجماعة اليورك (York) الذين يقطنون على ضفاف نهر كلامات «Klamath» شمال كاليفورنيا[١].

في هذا الوادي الضيق، يعيش الهنود على صيد سمك السومون، الوادي مغلق، صغير ومحدود، له ثغر، مفتوحة على المحيط، حادث غريب يحصل كل عام في ظروف غريبة في هذه المنطقة، عدد كبير من سمك السومون يأتي من محيط الباسفيك يقطع النهر ويقع بالآلاف في شباك الصيد لقبيلة اليورك. في حين أن القسم الآخر من سمك السومون يتابع سيرة نحو قمة المجرى ثم يموت. بعد

(١) Stoctzel la psychologie sociale OP. cit Page. 78.

عدة أشهر صغار السومون تترك النهر وتختفي في المحيط. قبل الصعود في مجرى النهر، سمك السومون يتوقف عن تناول الطعام حيث تصبح معدته فارغة.

خلال صعود مجرى النهر، الأعضاء التناسلية للسومون تنمو وتتطور، السومون في حالة صيام، عندما يذهب أفراد قبيلة اليورك إلى صيد السمك، فإنهم يتشابهون مع الفريسة، حيث يبتعدون عن كل أحتكاك جنسي، ويمتنعون عن أي طعام.

ما يهنا هنا هو المظاهر الثقافية للوسط الطبيعي، والتي ترتبط بفلسفة العيش عند جماعة اليورك. البناء الإجتماعي يبدو مشابهاً للبناء القبلي. النهر هو المركز الأساسي لنمط الحياة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية ونظام المعابير والقيم.

بالنسبة للمساكن نلاحظ نمطين من البيوت، بيوت النساء لها فتحة واحدة، وبيوت الرجال لها فتحة ضيقة، مما يوجب الفرد أن يظل محافظاً على نحافته ورشاقته، لا يأكل كثيراً، بسبب مشاكل الغذاء، وأن لا يستعمل عدداً كبيراً من النساء.

بالنسبة للإعياد عند جماعة اليورك، غاية العيد هو تجديد القوة والنشاط، إنه عودة إلى الحياة البدائية، يبدأ العيد السنوي، بعد إحتجاز سمك السومون، يركب الأهالي في عوامّة كبيرة، يمارسون التهريج والحرية الجنسية. نلاحظ أن مظاهر الحياة الإجتماعية والثقافية لجماعة اليورك تتأثر بالوسط الطبيعي، إن إدراكهم لإشكال المكان والجغرافية والإتجاهات وحجم وشكل الأشياء تتحدد من خلال طبيعة النهر، إن سلوك الفرد لا يتحدد فقط من خلال الوسط الطبيعي ولكن من خلال المعنى الثقافي لهذا الوسط.

١ ـ الطفل والثقافة:

يولد الطفل وهو مزوداً بإستعدادات حسية وحركية وبيولوجية تسمح له بأن يستجيب للبيئة الخارجية (الإستجابة للأصوات، للأضواء، للرضاعة والغذاء).

يذهب بعض علماء النفس أن شخصية الطفل تبدأ بالتشكيل خلال وجوده

في رحم الأم، ويعتبر البعض الآخر أن صدمة الولادة تحدث بذاتها حدثاً مؤثراً يترك تأثيرات على الشخصية. إن علاقة الطفل الرضيع بالبيئة الخارجية ترتبط إرتباطاً وثيقاً بعلميات الأكل والإخراج. إن هذه الخبرات تؤثر تأثيراً قوياً في تكوين الشخصية، ويعتقد بعض علماء النفس أن الشخصية تتأثر بالبيئة الثقافية والمادية، أما بعض علماء الانتروبولوجيا فيعتقدون أن العناصر البيولوجية المتوارثة هي التي تسهم في بناء الشخصية، يرى لينتون أن شخصية الفرد هي ثمرة عوامل ثلاثة: العنصر البيولوجي الموروث، وتأثير الثقافة والبيئة على الفرد، ثم تأثير الخبرات والمهارات الخاصة المميزة التي يتكسبها الفرد.

إن المعرفة بالمحددات البيولوجية للشخصية لم تزل غامضة وغير دقيقة، فالبعض يرجعها إلى الجينات الموروثة من الأهل. والبعض الآخر يرجعها إلى توازن الغدد وغير ذلك من العوامل الفسيولوجية.

ومن المعلوم أن الطفل المولود ليس له شخصية مميزة عند الولادة إلا بعض السمات الناتجة عن العوامل الوراثية والإستعدادات البيولوجية، بعدها الشخصية تتطور من خلال تفاعل الكائن مع بيئته المادية والإجتماعية والثقافية.

لقد أوضح بعض علماء النفس أن القدرة على الإستجابة للمثيرات الخارجية تظهر في أعمار مختلفة من عملية التطور البشري، وإنه إذا لم تظهر المثيرات المناسبة والملائمة في المرحلة المناسبة من مراحل النمو والتطور، فإن الكائن الحي سوف يفقد القدرة، تماماً على الإستجابة.

وتدل التجارب على تأثير التنشئة الثقافية والتربية على الأطفال الرضع، في بعض الثقافات الطفل يُرّضع عندما يصرخ ويُسمح له أن يستغرق الوقت الذي يحلو له، ويلاعبه عدد كبير من أفراد الأسرة، ويسمح له بقدر كبير من الحرية في الحركة. ، في حين نجد في ثقافات أخرى أن الطفل لا يُرضّع إلا في أوقات محددة، وأحياناً يربط بأحكام في مهده بحيث تتقيد حركة ذراعية، ويرفع في اليوم مرتين من مكانه لتنظيم الإخراج والنظافة، إن هذه الفروق في أساليب المعاملة تترك آثارها البالغة الأهمية في إرتقاء شخصية الطفل. ومما لا شك فيه أن

الإختلافات في الخبرة الشخصية للطفل خلال مراحل النمو تؤثر في تكوين الشخصية، مثلها مثل الإختلافات الثقافية في أساليب التربية والتنشئة.

إن الطفل الرضيع يتعرف على بيئته الخارجية من خلال الحواس (النظر، السمع، اللمس) كما يتعرف إلى بعض أفراد الأسرة من خلال الوظائف والأدوار التي يقومون بها، إن الطفل الرضيع يتعرف على الأب أنه الشخص الذي يداعبه وليس الشخص الذي يطعمه.

وقد قامت الباحثة «دي بوا» ببحث عن مرحلة الطفولة، الأولى لشعب «اتيملانج» الذي يعيش في جزيرة ألور في «جزر الهند الشرقية»[1] فعند هذا الشعب تبقى الأم في المنزل من أربعة إلى ستة أيام بعد الولادة تكرس وقتها لتغذية الطفل الوليد وتغنيجه، ويعطي للطفل حمام دافىء كل يومين أو كل ثلاثة أيام. ويستمر ذلك حتى يصبح الطفل قادراً على المشي. حيث يستحم بعدها بالماء البارد. ويتحمل خال الطفل ثم في المرتبة التالية الخالات والجدة للأم المسؤولية الكاملة عن تلبية الحاجات الأساسية للأم والطفل خلال فترة الأيام الأربع الأولى للولادة.

أما الأب فيُبعد طوال تلك الفترة، ويعكس هذا الاستبعاد للأب حقوق أقارب الأم مسؤولية الإهتمام بالطفل.

رغم استبعاد والد الطفل خلال تلك الفترة، إلا أنه يخضع لإلتزامات وقيود عديدة، من المعتقدات أنه إذا مارس عملاً بالغ الصعوبة، فإن ذلك يعرض الطفل للموت، وروحه للضياع، على الأب أن يتذكر هذه المخالفة، وأن يحدد المكان الذي ارتكب فيه الخطاء، لكي يعيد إلى الطفل روحه من خلال ممارسة بعض الطقوس والشعائر الدينية.

ويرتبط خروج الأم من المنزل بإحتفال ديني بسيط، ويضاف إلى غذاء الطفل الموز المهروس والممزوج بالخضار، ويصبح الطفل مركز إهتمام أفراد

---

(١) Stoctzel la psychologie sociale OP. cit P 98.

الأسرة من الجنسين، بعد الولادة بعشرة أيام، تذهب الأم إلى العمل في الحقل إذا كان الموسم خصباً، خلال عمل الأم يبقى الطفل في البيت مع أخوته الأكبر سناً، أو مع أجداده أو مع أبيه، وقد تقوم بعض المرضعات بإرضاع الطفل خلال غياب الأم وكذلك من النادر أن نجد طفلاً لم ترضعة أمراءة أخرى من وقت لآخر، بعد عودة الأم من الحقل، ترضع طفلها وتدلله وتناولة الثدي كلما احست أن الطفل قلق. وينام الطفل الرضيع خلال الليل مع أمه، عندمنا يصبح الطفل قادراً على الجلوس والحبو فإنه يستمر في النوم على فراش واحد مع الأهل أو يوضع أحياناً إلى جانب أحد أفراد الأسرة من الأخوة والأخوات خصوصاً خلال الإتصال الجنسي للأهل.

خلال مرحلة الطفولة المبكرة، لا يبدل أي جهد لتدريب الطفل على اكتساب المفردات اللغوية، ما عدا تكرار اسم الطفل، أو بعض الأغاني التي يغينها الكبار لتسلية الطفل وتهدئته، كما إنه لا يبذل أي جهد لحث الطفل على المشي وتصليب القامة، ولا تحاول الأم بتدريب الطفل على الأخراج في مرحلة ما قبل المشي، كما أن الأهل لا يبدون تعبيرات من الإشمئزاز وعدم الرضا إذا ما لوّت الطفل نفسه بالبراز، لا تبدأ عملية فطام الطفل إلا عندما يبدأ بالمشي.

إن ملامح الطفولة الأولى في هذا المجتمع تتميز ببعض السمات المميزة لعلّ أهمها أن الطفل لا يلقى الإهتمام في حال الجوع أو القلق، بسبب غياب الأم في الحقول.

بعض الثقافات الآخرى، الأم تصحب الطفل معها إلى الحقل، لا ترضعه إلا عند الضرورة، من الملامح البارزة تغذية الطفل بالموز المهروس والخضار في عمر مبكر[1].

عند شعوب الهنود الحمر الأمريكيين، يربط الطفل في مهده على لوح خشبي مستطيل يشل حركات جسمه، ويؤدي هذا الوضع إلى تقييد حركات أذرعه

(١) د. محمد جوهري الأنتروبولوجيا. دار المعارف القاهرة ١٩٨٠ ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

الطفل ورأسه الظفل لا يرفع من مهده إلا خلال الرضاعة والإخراج، إذا ما أزداد صياح الظفل فإنه يوضع على أحد جنبيه، أو يعلق ـ وهو داخل مهده، في جزع شجرة خارج الكوخ حتى يهدأ من غضبه، إن الطفل يمضي غالبية الوقت في سريره، حتى يبلغ مرحلة المشي، إن اسلوب التربية والتنشئة للطفل يعيق التآزر الحسي ـ الحركي والعضلي للطفل مما يقيق نمو الأدراك للمكان والوسط عند الطفل. يرى بعض علماء النفس أن الصبر والهدوء التي تميز سكان الهنود الحمر الأمركيين تعود إلى ظروف التنشئة في مرحلة الطفولة المبكرة.

مما لا شك فيه أن اسلوب التربية وتعلم اللغة وإقامة العلاقات الإجتماعية الأولى خلال مرحلة الطفولة المبكرة تؤثر تأثيراً قوياً على تشكيل الشخصية.

أ ـ تنشئة الطفل في قبائل الألور والكرو[1]:

إن بداية مرحلة الكلام واللغة عند الطفل هي من الآليات الأساسية التي تساعد الطفل على توسيع شبكة الإتصال والتفاعل مما يوسيع آفاق شخصيته وتساعد في تسهيل عملية تربية الطفل.

خلال إنتقال الطفل من مرحلة الرضاعة إلى المرحلة التالية، نلاحظ أن الطفل يتعرض للإهتمام من قبل المحيط حيث تفرض عليه الضوابط التي تضبط سلوكه، حيث يمنع من الإقتراب من النار، أو لمس الأشياء التي تسبب له الأذى، أو أكل المواد السامة، والخروج عن القواعد الدينية المقدسة، إضافة إلى ذلك، يمر الطفل بمرحلة تدريب تتفاوت من حيث الشدّة والصرامة، على كيفية التحكم بوظائف الجسد الفسيولوجبة (الغذاء، التدريب على الأخراج. . .) كما إنه يتعرض إلى التغيير المفاجىء في عاداته الغذائية.

ويقدم «دي بوا» وصفاً مفصلاً للطفل في مجتمع الألور، حيث يقمط الطفل لفترة طويلة، عندما يبدأ الطفل خطواته الأولى فإنه يسمح له بالخروج للعب تحت مراقبة طفل آخر أكبر منه سناً أو رجل مسن، خلال وجود الأم في الحقل، فإن

---

(١) محمد الجوهري الأنتروبولوجيا مرجع سابق ١٢٥.

طعام الطفل يقتصر على ما يقدمه له الأطفال الأكبر منه سناً، ولا يحصل ذلك إلا بعد إلحاح الطفل المتكرر.

إن حمل الأم الجديد، يساعد على فطام الطفل، كما أن الطفل الرضيع ينقطع عن الرضاعة بعد ولادة طفل جديد، الفطام يبدأ عادة بأبعاد الطفل عن ثدي الأم، إذا أصرّ الطفل على الرضاعة فإنه يضرب ويرسـل إلى بيت أحد الأقارب حتى تنتهي الأم من مرحلة الرضاعة للمولود الجديد.

التدريب على الإخراج للطفل في مجتمع «الألور» يترافق مع خطوات الطفل الأولى، بعدها يبدأ الطفل بالتعود على الحمام البارد.

لا تفرض الأسرة على الظفل أوقاتاً منظمة لنوم الطفل في المساء، لذلك غالباً ما نرى الأطفال تأخذ هم سنة من النوم خلال أوقات النهار.

يكتسـب الطفل في مجتمع الألور التعلم على اللغة وإستعمال المفردات اللغوية دون تدريب من الأهل، ومن الأمور الملفتة للنظر عن الطفولة في مجتمع الألـور عدم الإنسجـام في معاملة الـطفل من قبـل الأهل والأقـارب، فالأطفال يتعرضون للمضايقـة، والسخرية، والأهمال، والمدح، على نحو لا يمكن التنبؤ به على الإطلاق. إن قواعد ضبط السلوك غير متناغمة ومتناسقة إن هذا الإسلوب في التربية والتنشئة يعرّض الطفل لتقلبات مزاجية حادة.

خلال مرحلة الطفولة المتأخرة، تبدأ قواعد ضبط السلوك تأخذ أشكالاً من العنف والقسوة والتهديد والتي تحل محل المضايقة والسخرية، يتعين على الأطفال أن يجدوا الطعام بأنفسهم، حيث يمضون غالبية الوقت في التفتيش عن الطعام، إن عدم الإهتمام بالتدريب والتشجيع إلى جانب قواعد صارمة وجازمة للتربية تؤدي عند الطفل إلى ظهور القلق والشعور بعدم الثقة، إن الطفل الذي لا يملك أيـه وسيلة للدفاع عن نفسه أمام أساليب الضغط والعنف والقسوة والضرب يدفع في غالبية الأحيان الأطفال إلى الهرب من ظلم الأهل واللجؤ إلى أحد الأقارب طلباً للحماية من المعاملة السيئة.

إن إسلوب تربية الطفل في مجتمع «الألور» ترتبط دون شك بثقافة المجتمع، إن النشاط الإقتصادي الأساسي في مجتمع الألور هو النشاط التجاري الذي يركز على المساومة والتبادل السلعي والمالي، وما يتضمنه من غش وخداع وعدم الثقة، من هنا فإن التربية تأتي منسجمة مع واقع المجتمع وقيم النشاط التجاري، إن التربية تزود الأطفال منذ نعومة الأظافر بعدم الثقة في البيئة التي ينتمون إليها وإلى عدم الثقة بالآخرين وهذه التربية تهيء الأطفال للإنخراط والتكيف والإندماج في المجتمع الذي ينتمون إليه.

على الرغم أن معاملة الهنود الحمر الأمريكيين لإطفالهم تتميز بالصرامة والقسوة والتدريب على النظام. إلا أن الأطفال الأكبر سناً يمارسون ألعاباً يقلدون فيها الأعمال التي يقوم بها الأهل (ألعاب صيد الأرانب، صيد الطيور، قتل الجاموس المقيد) كما إنهم يلعبون لعبة «خطف العروس» أو لعبة «خطف الزوجات» وذلك تقليداً لسلوك الكبار في المجتمع.

يتعلم أطفال «الكرو» على إحترام كبار السن، ويدرب الطفل على الهدوء والشجاعة والكرم، في سبيل التكيف مع مجتمع الأهل.

ب ـ الشخصية والثقافة عند الأباشي:

سوف نعرض الآن صورة عن الطرائق التربوية في مجتمع الشيركاهوا باتشي «الهندي الأحمر»[1]. أن الشيركاهوا جماعة من الرحل تعتمد في غذائها على جمع الثمار وتعيش في جنوبي شرقي الاريزونا، جنوب غرب مكسيكو.

يعتقد الأباتشي إن الحياة محفوفة بالمخاطر، وتنشاء عادة من إهمال الفرد، أو نتيجة مكيدة سحرية، التحصّن ضد المخاطر يتم من خلال مجموعة من الطقوس والشعائر، الجوانب التربوية عند الأباتشي ترتبط وتتحدد من خلال الطقوس والشعائز الدينية.

يتعرض الطفل منذ ولادته لهذه الطقوس، فتقوم «الداية» «المرأة التي تشرف

(١) محمد الجوهري الأنتروبولوجيا مرجع سابق ص ١٣٨.

على ولادة الطفل»، بغسل «المولود الجديد» بالماء الفاتر، ثم تلفه في ثوب ناعم، بعدها تؤدي طقساً دينياً بسيطاً، حيث تقوم بنثر الرماد أو الغبار في الإتجاهات الأربعة، وتوجه الطفل بنفس الطريقة إلى هذه الإتجاهات الأربعة، وتوجه الطفل بنفس الطريقة إلى هذه الإتجاهات، عادة ما تصاحب هذه الأجراءات بعض الصلوات والشعائر. بعد مرور أربعة أيام من الولادة، يصنع عادة أحد الكهنة (الشامان) سريراً للطفل، ويعلّق عليه التمائم والشعائر لحماية الطفل من الأذى. يقضى الطفل غالبية الوقت في السرير مقمطاً مع ترك الحرية لتحريك الرأس واليدين، عادة يرضع الطفل عندما يصرخ.

خلال الفترة الممتدة بين الشهر السابع وبداية السنة الثانية لعمر الطفل يستدعي الأهل أحد الكهنة لتأدية طقساً يعرف بإسم «طقس إنتقال الحذاء»، ويتم هذا الطقس ضمن إحتفال بسيط تكريماً للطفل على خطوات المشيء الأولى، خلال تأديه الطقس، يحصل الطفل على الحذاء الأول كما يحصل أيضاً على ثوب جديد مصنوعاً من الجلد، وغاية الطقوس هي مباركة الظفل، إن الطقس هو تعبير عن مناسبة اجتماعية، تحضرها الأسرة والأقارب والأصدقاء، بعد الأنتهاء من شعائر الطقس، تقام وليمة الطعام للجميع وتقدم الهدايا للطفل.

فصل الربيع الذي يلي مناسبة «إنتقال الحذاء» يختار الأهل أحد الكهنة لحلاقة «شعر الطفل»، يرافق عمليبة قص الشعر ممارسة الطقوس والشعائر الدينية والدعاء للطفل بالحياة الطويلة والصحة الجيدة.

يقص الكاهن شعر الطفل ببطء تاركاً خصلة أو خصلتين فقط ويكرر هذا الطقس أربع مرات خلال أربع فصول متتالية. بعدها يترك شعر الطفل (الذكر والأنثى) دون قص. يبدأ فطام الطفل عادة في الوقت الذي يمارس فيه طقس «حلاقة شعر الرأس»، يقدم إلى الطفل الطعام الجديد، إذا رفض الطفل الطعام وأصر على الرضاعة من ثدي الأم، فإن إبعاده عن الثدي يتم من خلال مسح الحلمتين للثدي بمواد حامضة أو حرّة.

ما تجدر الإشارة إليه أن الطفل في مجتمع الأباتشي ينتسب في الإنتماء إلى

عائلة الأم، وعلاقته بنسب الأب تكون من خلال الزيارات التي يقوم بها الطفل في أوقات محددة إلى المخيم الذي قدم منه الأب.

خلاصة القول: إن «الشركاهوا اباتش»، يكونـون مجتمعاً صغيـراً، يعيش حياة غير مستقرة في بيئة فقيرة، هاجسهم الأول هو حماية الأطفال من الأذي، قلق الأهل نحو الطفل يدفعهم إلى منحه العطف والدعم الضروري للنمو والإرتقاء.

الطفل يتعلم القيم والعادات الإجتماعية من خلال الملاحظة والمشاركة، يدرب الأهل الطفل على أسـاليب الحياة، والعـلاقات الإجتمـاعية وقيم وثقـافة الاباتشي، بقدر ما يقترب الولد من مرحلة البلوغ أو المراهقة.

٢ ـ المظاهر النفسية للتنشئة الإجتماعية.

إن الفرد يتكيف مع ثقافة مجتمع ما، من خلال أساليب التنشئة والتعليم، مواقف الأفراد واتجاهاتهم النفسية والفكرية تختلف بإختلاف النماذج الثقافية[١].

يقول دوركايـم: «إن التنشئة هي ممارسة القمع والضغط على الفـرد في سبيل إدخال مفاهيم وقيم الجماعة»، إن شخصية الـولد وسلوكـه تتأثـر بتفاعـل الإنساق «Processus» الثلاث: الفسيولوجي، النفسي، والإجتماعي، المجتمع يعلّم الفرد على احترام قدسية الشخص الآخر، إحترام الملكية الخاصة، بعض الحيوانات والأمكنة تعتبر كمحرمات «Tabou»، هدف التنشئة الإجتمـاعية هـو التكيف مع الممارسات الإجتماعية: البروتوكول، القـواعد والنـظم الأخلاقيـة، توزيع الأدوار، الممارسات الإجتماعية للطقوس الدينية، التعامل التجاري، . . . .

إن التربية والتنشئة الإجتماعية تسعى إلى جعل الفرد يتكيف إجتماعياً مع النماذج الثقافية، إن القيم والمعايير الإجتماعية لا تفرض بـالقول والعنف ولكن التعلم يتم من خلال الملاحظة والتقليد والتدريب.

اللغة، المفاهيم الفكرية، الإطار المرجعي للمعايير، هي مفاهيم ضرورية

---

(١) أرجايل ميشيل «علم النفس ومشكلات الحياة الإجتماعية» القاهرة دار الكتب الجامعية ١٩٧٤.

للتعبير عن القيم، إن التنشئة الإجتماعية للولد تتم من خلال تجارب الحياة اليومية. الغاية مساعدة الفرد على التكيف في المجتمع الذي ينتمي إليه، إن التعلم والتدريب الإجتماعي لا يتم بشكل عفوي ودون صعوبات، إن الفرد يعاني غالباً من أزمات خلال عملية التنشئة، إعاقة ميل من ميول ورغبات الفرد تؤدي إلى حالة من التوتر ينشأ عنها بعض المظاهر للسلوك العدواني. زيادة التوتر تؤدي إلى زيادة الميول العداونية .والعكس بالعكس، في حال الإستمرار، يقع الفرد ضحية الإنهيار النفسي «Anxiété » ، إن سلطة الأهل القمعية خلال التنشئة تعلب دوراً مهماً في تكوين دوافع الشعور بالكراهية لدي الطفل وإلى بروز الدوافع العدوانية والشعور بالذنب.

٣ ـ الطبقة الإجتماعية وتأثيرها على الشخصية:

إن إنتماء الفرد إلى طبقة إجتماعية معينة، تطبع الشخصية بطابع مميز، إن اسلوب الحياة والقيم التي تستند إليها الحياة تختلف بـإختلاف الطبقات الإجتماعية، إن إختلافات الطبقة الإجتماعية تخلق حواجز قوية نوعاً ما في التفاعل الإجتماعي بين أعضاء كل طبقة. الطبقة الإجتماعية لا تؤثر فقط في التفاعل الإجتماعي بين الأشخاص بعضهم ببعض، بل وتؤثر أيضاً تأثيراً قوياً في الخصائص المتصلة بالشخصية كالدوافع والقيم وأساليب العيش والطرق التي يرى بها الناس أنفسهم، عن طريق خبرة الحياة والتجارب واسلوب تربية الأباء لإبنائهم، وقد أوضح روجر براون (Roger Brown) هذا الأمر في الفقرة التالية[١]:

«إن الإختلافات في اسلوب الحياة تتسع لتشمل حتى أبسط الأمور، فالطبقة العليا من الأميركان تفضل «المارتين» قبل العشاء. والنبيذ مع العشاء، والبراندي بعد العشاء، بينما تعتبر البيرة مشروب الطبقة العاملة. وإذا كانت الطبقة العليا من من الأميركان تفضل السلطة الخضراء الممزوجة بالزيت والخل، فإن الطبقة الدنيا

(١) لازاروس الشخصية مرجع سابق ص ١٩٣.

تفضل سلطة الخس يضعون عليها توابل جاهـزة لهذا الفـرض في زجات، وإذا كنـت من ابناء ابناء الطبقة الوسطى فإنك تقول توكسيد «Tuxedo » (ملابس سهرة نصف رسمية للرجال) على حين يقول ابناء الطبقة العليا سترة العشاء (Dinner Jacket) ، وفي انجلترا تقول مرآة Mirror، بينما تقول الإرستفراط منهم -Look ing glass) ، وإذا كنت ترفع بنطلونـك قليـلاً عندما تجلس حتى لا يتكسر عند الركبة، فإنك ولا شك تنتمي إلى الطبقة الوسطى) (١٩٦٥ - ص ١٣٢ - ١٣٣).

إن أهمية الفروق في الطبقة الإجتماعية تكمن ليس فقط في أساليب التعبير ومظاهر الحياة الخارجية، وإنما في قيم الحياة العليا وإنماط السلوك التي يتبناها الفرد، فكل طبقة إجتماعيـة تميل إلى المعيشة في منطقة سكنية معينة يقطنها أناس يشتـركون معهم في الصفـات الإجتماعيـة، الإقتصـاديـة والتـربـويـة والمهنيـة، والإتجاهات الشائعة، وإنماط القيم.

والنـاس الذين ينشـأون في أحياء مختلفـة من المحتمـل أن يكشفـوا عن شخصيات ذات قيم وإتجاهات مختلفة نحو التعليم، والطب النفسي، والجنس قبل الزواج، وخارج رباط الزواج، والدين، والفكر السياسي الحر في مقابل الفكر السياسي المحافظ.

إن امتع وأهم الإختلافات في اسلوب الحياة التي ترتبط بعضويـة الطبقـة الإجتماعية، تلك التي تهتم بأساليب التنشئة الإجتماعية، في الدراسة التي قام بها ديفز، لاحظ فروقاً ملحوظة بين الطبقات في تنشئة الطفل، فلقـد وجد أن آبـاء الطبقة الوسطى أكثر صرامة مع ابنائهم من آباء الطبقة الدنيا، كذلك فقد لاحظ أن أمهـات الطبقـة الوسـطى يفطمـون ابناءهم ويبـدأون معهم التدريب على ضبط الإخراج في سن مبكرة عن تلك التي نجدها عند آباء الطبقة الدنيا[١].

من الباحثين في مجال نمو الطفل نذكر البحث التي قامت به «ديانا بومرند و أ بلاك» (١٩٦٧) من معهد نمو الإنسان بجامعة كـاليفورنيـا والتي استغرق ثمـان

(1) DAVIS. «social class and colour differences in cheldrearing, Americain sociology revien 11: 698 — 710.

سنوات لمجموعات ثلاث من أطفال مدرسة الحضانة، وقد وجدت أن الآباء الذين كانوا يتسمون بالحنان والتسامح كان ابناؤهم يتصرفون بكونهم الأقل إعتماداً على النفس وحب الأستطلاع وضبط النفس، وعلى العكس، كان ابناء الآباء المسيطرين قانطين منزوين ولا يثقون بالغير.

أما المجموعة الوسطى التي كان الآب فيها من النوع الضابط ولكنه الحنون العاقل المتقبل للطفل، فقد اثبت الأبناء إنهم الأكثر إعتماداً على النفس وحب الإستطلاع وضبط الذات والرضا عن انفسهم وعن علاقاتهم بغيرهم، وعلى ذلك يبدو أنه: لا التطرف في التسلط أو في التسامح، يؤدي إلى وجود الكثير من سمات الشخصية التي تقيّم تقييماً إيجابياً[1].

إن أساليب تنشئة الطفل بعد هام من ابعاد التأثيرات الإجتماعية للنمو، لإن الخبرات الإجتماعية للإطفال هي الأساس الإجتماعي في تكوين الشخصية. وليس ثمة شك أن سلوك الأم تجاه الطفل هو الذي يعد في التحليل النهائي أحد المتغيرات الإجتماعية الحاسمة للتأثير الإجتماعي للنمو.

---

(1) Baumrind, Diana, and Black, A.E. Socialization practices associted with diiensions of competence in preschool boys ans girls, Children Development 38 (N.ˉ), 1967, P 291 — 327.

الفصل الثاني

التأثيرات الاجتماعية والثقافية على الشخصية

إن الأنسان يكتسب من خلال خبرته الإجتماعية معايير أو مستويات المجتمع الذي يعيش فيه، إن الطفل الذي ينشاء في أسرة ريفية يحتمل أن تكون خبراته بالنظام مختلفة تمام الإختلاف عن طفل آخر ينشاء في اسرة مدينية، لإن الطفل في الريف يكوّن مجموعة من الخبرات عن ذاته، تختلف تمام الإختلاف عن تلك التي يكونها طفل المدينة.

إن الفرد ينمو ويتأثر ليس فقط بتأثير الثقافة والطبقة الإجتماعية والجماعة العنصرية والأقليم، والجماعات الحضرية والريفية، بل ويكون له جماعة خاصة من الآباء، وعلى ذلك، يكون لأسرة كل طفل خصائصها المميزة لها كوحدة إجتماعية، نستطيع القول إذا أردنا أن تزيد الأمور تعقيداً، إنه حتى وحدة الأسرة الوالدية هي تركيب من شخصين متميزين هما الأب والأم، ولكل منهما شخصيته المميزة ونظام قيمه. إن كل فرد يختلف عن الآخر في أمور عديدة حتى لو أغفلنا موضوع الفروق الفردية في التكوين البيولوجي، إن المعايير الإجتماعية تؤثر على نمو الشخصية.

أعمال «روث بندكت» (١٩٣٤) بينت أن السمات الحضارية لمجتمع ما ليست نتيجة تراكم وتراصف للعادات والقيم والمعابير ولكنها ترتبط بالبناء الإجتماعي والثقافي الكلي، «بندكت» اعطت أمثلة على مجتمعات الهنود الصغيرة، فجماعة الزوني (Zuni) في الجنوب الغربي للولايات المتحدة الأمريكية، أفراد هذا المجتمع يمتازون بحب التعاون، مزاجهم لطيف وهادئ،

يتقيدون بالنظام والشعائر والطقوس الدينية بعكس سكان جماعة «آبولونيان» (Appollimien) ، الذين يمتازون بالشدّة ورباطة الجأش، لديهم إحساساً بالبؤس.

«مرغريت ميد» حاولت أن تبين تأثير الشعور بالتعاون والتنافس وإرتباطه بالقيم للأنا والشعور بالأمان الشخصي.

«كاردنر» في نظريته (الشخصية الأساسية)، اعتبر أن العناصر الأساسية التي تكون الشخصية هي[1]:

- آليات التفكير، أي الطريقة التي يفكر بها الفرد تجاه الواقع وكيف تؤثر فيه».

- مظاهر وأنماط الأمان التي تتجسد في وسائل الدفاع التي يلجأ إليها الفرد في مقاومته للقلق والحصر الناتج عن القمع والكبت للواقع الطبيعي والإجتماعي.

- مفهوم الأنا الأعلى (Sur — moi) الذي يختلف عن مفهوم الأنا الأعلى في التحليل النفس، والذي يرتكز على الرغبة في التقدير وصداقة الآخر.

- الإتجاهات والمواقف الدينية، من خلال ممارسة الشعائر والطقوس الدينية، الإلتزام الديني للفرد وتأثير القيم الدينية على السلوك الفردي.

«كاردنر» يعتبر أن الركائز الأساسية الأربع للشخصية تتفاعل مع المؤسسات الإجتماعية، وهي بدورها ناتجة عن المؤسسات التي ندعوها المؤسسات الأولية والتي تنتج بدورها مؤسسات خاصة بها (المؤسسات الثانوية). لكن «كاردنر» لم يكن واضحاً في التمييز بين المؤسسات الأولية والمؤسسات الثانوية، كذلك بالنسبة للتميز بين عناصر الشخصية الأساسية والمؤسسات. باختصار، إن السمات الأساسية للشخصية تتحدد من خلال النماذج الثقافية للمجتمع[2].

---

(١) لالف لينتون دراسة الإنسان ترجمة عبد الملك الناشف المكتبة العصرية صيدا ١٩٦٥.

(٢) أوتوتو كلينبرغ علم النفس الإجتماعي مرجع سابق ص ١٩٢ - ١٩٣.

إن نظرية «كاردنر» حول الشخصية الأساسية تتوضح من خلال الدراسة التي قام بها «لينتون» ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ لجزر الماركيز في جنوب المحيط الهادىء[1].

لاحظ «لينتون» أن الظروف المعيشية للسكان في هذه الجزر تخضع لتأثير عاملين:

ـ خطر القحط والجفاف حيث يقضي على ثلث السكان بسبب المجاعة وسؤ التغذية.

ـ هيمنة عدد الرجال على عدد النساء.

إن حياة السكان في جزر الماركيز قد تأثرت نتيجة هذه المعطيات الإجتماعية، إن الماركيز يمارسون أكل البشر، والعائلة تتسم بتعدد الزوجات، عادة أكل اللحوم البشرية يقوم به الرجال مما يجعل الأولاد والأطفال يشعرون بالخطر في حال الإبتعاد عن الأهل، الطقوس الدينية تسمح بالتضحية بالبشر، في العائلة المتعددة الزوجات، هناك زوج رئيسي يساعد الأزواج الثانويين في الأعمال؛ والنشاطات الأقتصادية. الأب الحقيقي لكل ولد من أولاد الماركيز يكون عادة معروفاً من قبل الجميع ولكنه لا يكتسب أية هيبة إجتماعية ولا يمارس أية سلطة، الرجال الذين يتحملون أعباء الحياة الإقتصادية هم الذين يحظون عادة بالإحترام والتقدير.

النساء اللواتي يأخذن المبادرة في التعبير عن عواطفهن وميولهن الجنسية لا يحظين بأي احترام وتقدير إجتماعي ويحتقرن من قبل الرجال، ويصبحن موضوع كراهية.

خلال ممارسة الطقوس الدينية، النساء يمثلن الأدوار السيئة التي ترمز إلى الشر، موضوع الولادة يرمز إليه بصور سيئة، حيث أن الطفل المولود، يصّور وكأنه يسبح في جدول أو ساقية مياهه متجمدّة، والطفل يفطم باكراً، غذاء الطفل هو الخبز المبلول بلعاب الأم، الأم لا تراقب الطفل خلال تناوله الطعام، الذي يهتم

(١) Kardiner.A. The individual and hid dociety. N.P. Colombia press university 1939.

بالولد هم أزواج المرأة، يقوم الولد بأي عمل يرغب به دون تدخل الأهل، الولد لا يدرب على تنظيم الإخراج إلا متأخراً والأهل لا يمارسون ضده أي ضغط أو تهديد، العلاقات الجنسية بين البنات والصبيان تتميز بالحرية التامة، أن عقدة الخوف عند الطفل تتمحور حول القلق من أن يؤكل، تبدو ملامح الطفولة المبكرة سيئة، بعدها، الطفل ينمو بشكل طبيعي وملائم، تتمحور الحياة الدينية حول نوعين الآلهة والأنصاب: الأنصاب الكبيرة لا تتمتع بأهمية كبرى، والأنصاب التي تكون غالباً على شكل إنسان، تحمل فكر الرجال الخالدين.

الموتى عند، الماركيز يتمتعون بقوة خفية حتى بعد الموت في حال المرض الشديد أو الموت لإحد الأفراد، الإعتقاد السائد، أن روح الميت فارقت الجسد وابتعدت عن الجسم، في سبيل إعادة الروح إلى جسد المريض يوضع قرب المريض أو الميت الطعام لإعادة الروح إلى الجسد، إن ظروف الحياة الطبيعية والإجتماعية لسكان الماركيز إنعكست على حالتهم النفسية: ولادة طفل جديد لا تثير أية عاطفة إنفعالية، ممارسة الجنس هو مجرد ظاهرة طبيعية، الحب الرومانطيقي غير مرغوب فيه، مشاعر الحسد نادرة، الحسود ينظر إليه بسخرية» إن صدّ الرغبات الجنسية للرجل من قبل زوجته لا تعتبر إهانة أو الحطّ من كرامة الشخص، ليس لديهمن مفاهيم واضحة حول الرجولة والعجز الجنسي، تخليد وتمجيد الأباء لا معنى له، عقدة أوديب لا تبرز عند أطفال جزر الماركيز، إن الطفل لا يرغب بأمه بالمفهوم الفرويدي لأنه لا يعاني من الكبت تجاه الأم، العلاقة مع الأم تتميز بالعلاقات والإنفعالات العداونية، إن الولد لا يعاني من الشعور بالذنب تجاه الأب، بإعتبار الأب لا يمارس أية سلطة على الإبن، علاقة الولد بالأب تتميز بالعقلانية.

ظروف الحياة العائلية لسكان جزر الماركيز وما تتميز من غياب عاطفة الأم نحو الإبن يمكن ردّه إلى عدة أسباب: تعدد الآباء للطفل الواحد، غياب القواعد والنظم التي تنظم السلوك، غياب القمع وسلطة الأب في تربية الأولاد على صعيد الحياة الدينية، ليس هناك أفكار واضحة عن مفهوم الأله، مفهوم الإدراك للإله هو

إدراك عقلاني ، إذا طلب أحدهم طلباً معيناً من الأله ولم تتحقق رغبته ، هذا يعني أن الإله غير قادر على تحقيق هذه الرغبة، مما يدفع الفرد إلى التوجه نحو إله آخر، القلق الوحيد عند سكان جزر الماركيز هو القلق الناتج عن الخوف من فقدان الطعام والغذاء، لإن ذلك يثير لدى الفرد الهوام الخيالي بإنه سوف يستبدل بالغذاء لتأمين استمرارية حياة الأخرين.

١ ـ الشخصية الأساسية لسكان جزر الماركيز:

«آليات التفكير» تتمحور حول تأمين الغذاء، القلق من فقدان الغذاء يؤدي إلى هيمنة النشاط الفمي في السلوك، عن طريق الفم يمكن أعادة الروح للمريض أو الميت، السيطرة على الشيء تبدو من خلال إمساكه بالفم (العاب الأولاد). الكاهن يبرهن على قدرته من خلال الصوم الطويل، الماركيز لا يعانون من العصاب النفسي بالمفهوم الغربي للتحليل النفسي، العجز الجنسي لا يثير القلق والعصاب النفسي عند الفرد، الأب لا يمارس أي شكل من أشكال السلطة على أولاده، حب التملك يكاد ينحصر في تملك بعض أنواع النقود الضرورية لممارسة الشعائر والطقوس الدينية.

إن القلق لسكان جزر الماركيز يكاد ينحصر بشكل أساسي في ندرة الغذاء.

الأنا الأعلى للشخصية في الماركيز لا يمكن مقارنته بالأنا الأعلى عند فرويد، ليس من كبت وقيود للغرائز الجنسية، القيم والمعايير الإجتماعية لا تمارس أي ضغط على الشخصية الأنا الأعلى يكاد ينحصر في حب التقدير وصداقة الآخرين، الإتجاهات الدينية تتمركز حول أنصب لها الشكل الإنساني، الدوافع لممارسة الشعائر الدينية تعود ألى الخوف من فقدات الغذاء، الخصائص للشخصية الأساسية في جزر الماركيز تبدو مستقلة عن الشخصية الفردية والإدراك الفردي، مظاهر الشخصية الأساسية تلعب دوراً مهماً في تفسير أساليب التنشئة والتثقيف والتكيف الإجتماعي.

٢ ـ التنشئة الإجتماعية للطفل.

التنشئة الإجتماعية تتم من خلال مجموعة من الآليات النفسية والفكرية والإجتماعية والتي تنظم السلوك من خلال مجموعة من القيم والمعايير الإجتماعية، أهم هذه الآليات:

التوحد والتماهي (Idente fication) ، الإستدخال (Introjetion)الإسقاط (Projection) ، التنشئة الإجتماعية (Socialisation)حسب فرويد التوحد أو التماهي يتم من خلال الإمتصاص اللاشعوري لقيم الأهل بحيث تصبح جزءاً راسخاً وعميقاً من نظام القيم للشخص ذاته، إن التوحد يتم من خلال آلية الإستدخال، الأسس النظرية التي تقوم عليها آلية التماهي[1]:

أ ـ إن التوحد يتم على أساس «تشابه» بين الشخص وموضوع التوحد، يعتبر فرويد، أن الطفل يمتص عادة قيم الأب وبالعكس تمتص البنت قيم الأم، وذلك بسبب التشابه الذي يدركه الطفل بالأب والبنت بالأم، يدرك الطفل دور الذكر، ونزعة البنت لتبني دور الأنثى.

ب ـ إن التماهي يقوم على أساس الشعور «بالحسد» أو الرغبة في تملك أشياء حسنة في الحياة، إن .الطفل يميل إلى التماهي والتوحد مع الأشخاص الراشدين الذين في نظرة يمتلكون أشياء وخصائص وسمات حسنة في الحياة.

ج ـ يقوم التماهي والتوحد عند الطفل بسبب شعوره بالعجز والضعف إلى التوحد مع «القوي والمعتدي» إن الطفل حسب النظرية الجنسية عند فرويد يكبت حوافز الجنسية (الأدويبية) نحو الأم، ومشاعر العدوان تجاه الأب، تجنباً لخطر الخصي، خلال هذا الصراع النفسي، الطفل، يستدخل «Imterioise » قيم الأب ويصبح مشابهاًله، نظرية فرويد في التماهي والتوحد مع القوى والمعتدي تعتبر الأساس في تكوين الأنا الأعلى أو الضمير عند الطفل.

إن أساليب التنشئة الإجتماعية للطفل تختلف بإختلاف النماذج الثقافية.

---

(١) Bettelheim, B. The informed heart,N.Y. Free Press of glendoe, I,N,C. 1960.

٢٠١ ـ أسلوب الرضاعة والفطام للطفل:

إن علاقات التفاعل بين الأم والطفل الرضيع هي العلاقات الأولى على الصعيد الجسدي والإجتماعي والنفسي، إن عالم الطفل الرضيع يكاد ينحصر بين الأم والسرير، الإنطباعات الأولى للطفل تشكل الإطار المرجعي للإنسان لإنها تحمل في ذاتها العواطف والقيم وتلعب دوراً أساسياً في تكوين الإدراك للعالم الخارجي، بعض علماء النفس التحليليين يرجعون الفروقات الفردية بين الأفراد إلى الخصائص والسمات المميزة لشخصية الأم، وإلى الحوادث التاريخية المهمة في مرحلة الطفولة.

إن مظاهر العناية والإهتمام بالطفل تختلف بإختلاف الظواهر الطبيعية والإجتماعية والثقافية. ففي بعض المجتمعات الأفريقية نلاحظ أن الطفل يحمل بكيس خاص على ظهر أمه خلال فترة الطفولة المبكرة، كذلك بالنسبة لسكان مدغشقر الذين درسهم لينتون[١]: الطفل يقمّط يحزم ويترك بعيداً عن أمه، الأم لا تقترب من الطفل إلا في حالة الغذاء، الطفل ينام ليلاً في سرير أمه ولكنه يوضع داخل اسطوانة من الخشب، كذلك هناك مجتمعات لم تزل عادة التقميط منتشرة فيها وخصوصاً في المناطق الريفية، بعض الباحثين درس النتائج المهمة لعادة التقميط على المستوى النفسي للطفل، هيبو قراط اعتبر أن التقميط يصنع رجالاً اشداء.

٢٠٢ ـ فطام الطفل:

إن ظروف الفطام للطفل تختلف بإختلاف النماذج الثقافية والإجتماعية، هناك الفطام المبكر، والفطام المتأخر، والفطام الفجائي، والفطام المتدرج على مراحل، عند «الآرابيش»، المرأة في حال عدم الحمل، ترضع الطفل حتى يبلغ ٣ أو ٤ سنوات من العمر، النتائج النفسية للفطام المتأخر «الآرابيش» هو تميزهم بالعطف والحنان، الفطام عند سكان «مند يفيمور «Mumdugumor » » يحصل

(١) رالف لينتون دراسة الإنسان مرجع سابق ص ١٢٣.

بشكل مبكر وفجائي، الأم ترضع طفلها دون أي مظهر من مظاهر الحنان، أحياناً الطفل يرضع واقفاً، النتائج النفسية لهذا الأسلوب من الرضاعة والفطام إنعكس على السمات المميزة للسكان الذين يتميزون بالميول العدوانية والخبث[1].

إن أساليب الأختلاف في تربية الطفل الرضيع لا تتحدد فقط على مستوى الأختلاف في مظاهر العناية والأهتمام والتفاعل مع الطفل على الصعيد الجسدي، ولكن تتحدد أيضاً بالعامل الزمني أي الفترات الزمنية التي يتم خلالها تنظيم حياة الطفل، ففي المجتمعات الغربية نلاحظ أن مواعيد رضاعة الطفل تتم خلال فترات زمنية منتظمة حيث يتم بعدها تنظيم غذاء الطفل بثلاث وجبات يومياً. عند الشعوب البدائية، النظام الغذائي للطفل غير منتظم، إن اسلوب التنشئة التربوية والإجتماعية يختلف بإختلاف النماذج الثقافية.

إن مظاهر العناية والإهتمام بالطفل كما رأينا، لا تخضع فقط لمؤثرات مادية وبيولوجية، ولكنها تخضع أيضاً لعوامل إجتماعية وثقافية وعاطفية، اسلوب الرضاعة والفطام يختلف بإختلاف العادات والتقاليد، هناك مجتمعات حيث أن مسؤولية العناية بالطفل هي من إختصاص الأم، في حين بعض المجتمعات الأخرى، الجماعة تهتم بالطفل، عند سكان الماركيز الرجال هم الزين يهتمون بالطفل، أن نظرة الوسط للطفل تختلف باختلاف المجتمعات، هناك الوسط حيث ينظر إلى الطفل بإهتمام من الجميع، يمنحونه العاطفة والثناء، في حين بعض المجتمعات الأخرى، يعامل الطفل باسلوب يغلب عليه طابع الجدية والقسوة.

---

(١) Jean stoclzel la psychologir sociale OP. cit. P135.

الفصل الثالث

التفاعل بين الاستعدادت البيولوجية والظروف الاجتماعية

تكاد تتفق غالبية نظريات الشخصية، أن الأنسان كائن حي بيولوجي، وأن له طبيعة موروثة، على الرغم أن هذه الطبيعة الموروثة وطبيعة عملها لم تزل موضوع جدال ونقاش، إن الإختلاف الرئيسي بين نظريات الشخصية يكمن أن بعضها يعطي وزناً كبيراً للمعطيات البيولوجية ودورها في تنظيم الشخصية، والبعض الآخر يؤكد على دور الخبرة والبناء الإجتماعي في تشكيل الشخصية.

لقد نظر فرويد إلى الثقافة كعامل يساعد على كشف الطبيعة البيولوجية للإنسان، فالأختلاف في المظاهر الثقافية بنظر فرويد هو نتيجة للمعطيات البيولوجية، نظر فرويد إلى المراحل النفسية الجنسية باعتبارها أنماطاً عامة قد حدّدت بيولوجياً بحيث توجد بصرف النظر عن النظام الإجتماعي الذي تنمو فيه. والأنظمة الإجتماعية بحد ذاتها هي نتاج لهذه العوامل البيولوجية. فليست خبرة الطفل الإجتماعية هي التي تساعد على النمو النفسي الجنسي ولكن التغييرات خلال مراحل النمو المختلفة هي نتاج النضج البيولوجي.

أما الفرويديون المحدثون على الرغم من تقبلهم لفكرة المعطيات البيولوجية إلا أنهم عبّروا عنها بمصطلحات إجتماعية، فلقد تحدثوا عن الإستقلال الذاتي، والإنتماء، والهوية، والقرابة وغيرها. فقد عبروا عنها في إطار العلاقات الشخصية المتبادلة، وعلى ذلك، فرغم عدم رفضهم للمعطيات البيولوجية، فإن هذه المعطيات قد وُجهت بوضوح تجاه الوجود الإجتماعي للإنسان، ويمكن توضيح ذلك من خلال مفاهيم عقدة أو ديب، لقد نظر فرويد إلى عقدة أو ديب

كنتاج للقوى البيولوجية التي تعبر عن نفسها في حوافز ليبدوية معينة في اختيار موضوع الحب.

أما كارن هورني «Karen Horny » (١٩٣٧) قد اتخذت موقفاً مضاداً: لقد ذهبت إلى أن عقدة أو ديب ليست عامة، وإنها إذا ظهرت، فإن جذورها تكمن في البناء الإجتماعي للإسرة، وعلى ذلك فأسبابها إجتماعية وليست بيولوجية. وترى هورني أن الصراع بين الأب والإبن ليس نتاج الحوافز الليبدوية نحو الأم، ولكن يصدر عن حسد الإبن للسلطة الإجتماعية للأب[١].

إن الطفل يرغب أن يحل محل الأب بسبب توزيع الأدوار الإجتماعية في الاسرة، وإنماط السلطة، وليس بسبب الحسد الجنسي للأب، إن هورني تعتبر أن الخبرة الإجتماعية وتدريب الأبناء على التركيز على مناطق معنية من الجسد خلال مراحل النمو هو الذي يساهم في تحديد إنماط النمو التي نلاحظها.

بعض علماء الأنتروبولوجيا تقبّلوا موقف فرويد ولكن مع إدخال بعض التعديلات عليه، من هؤلاء ابرام كاردنر (Abram Kardiner) ، الذي اقترح أن هناك عدداً من الأختلافات الأساسية بين النظم الإجتماعية المختلفة، وقد افترض أن هذه الإختلافات تنشأ عن الإختلافات في العوامل المادية في البيئة كالعزلة الجغرافية وأحوال التربة والمياه وكفاية موارد الطعام والطقس وغيرها[٢].

حسب نظرية «كاردنر»، لكي نفهم التفاعل بين الثقافة ونمو الشخصية، يجب أن ندرك التدريب الثقافي والتربوي في تنشئة الطفل بالنسبة لكل مرحلة من مراحل النمو النفسي الجنسي، فإذا كانت الثقافة تفرض النظام والإمتثال والنظافة بمبادىء وقواعد صارمة، فسوف تؤثر في نتاج المرحلة الشرجية لنمو الطفل بحيث تظهر لدى الطفل نزعات الشخصية الوسواسية القهرية، بينما يظهر نوع آخر من الشخصية مختلف تماماً وذلك في إطار الثقافة التي يتسم سلوكها نحو التدريب

(١) Karen Horney Neurotic personality of ourtimes N.Y. Nortonand Cimpany 1937.

(٢) Kardiner, A. The individual and his society, OP. cit.

على الإخراج بالهدوء والتمهل وعدم الإلحاح. ويمكن القيام بمثل هذه التحليلات لأساليب الثقافة. فيما يتصل بالتغذية والفطام وأثرها على المرحلة الفمية إن كاردنر يرى في الإختلافات الثقافية محددات هامة للشخصية بسبب الطريقة التي تسهل أو تعوق التقدم النفسي الجنسي للطفل.

وثمة إتجاه آخر يمثله إريك فروم (Erch Fromm) لقد رفض فروم النظرية النفسية الجنسية ونظر إلى الشخصية بمنظور مختلف مما عند فرويد وكاردنر، باعتبارها نتاج القوى الثقافية، لقد ذهب فروم إلى أن الإختلافات الثقافية ليست هامة بسبب تأثيرها على المراحل النفسية الجنسية، ولكن بسبب تأثيرها على الجو العام السائد في العلاقة بين الوالدين والطفل، إن الطفل الذي ينمو في جو من المحبة والعاطفة، يختلف عن الطفل الذي يكون منبوذاً ويعامل بعاطفة باردة، لأن ذلك يؤثر على كيفية معالجة الطفل لأمنه واستقلال حاجاته خلال النمو ولنمط سلطة الأهل تأثير هام على شخصية الطفل إن استجابة الطفل للأب الذي يمارس سلطة الجزم والردع، إما أن تكون الخضوع الزائد عن الحد أو النبذ التام للسلطة[١].

نستطيع أن نستنتج أن التفاعل مستمر بين القوى البيولوجية والبيئة، ويؤثر أحدهما على الآخر بالتفاعل والتبادل، فعند ما يأتي الطفل الوليد إلى هذا العالم الأجتماعي، فإنه يكون مزوداً بقدر ملحوظ من الخصائص المزاجية أو الإستعدادية الفطرية التي تؤثر في كيفية استجابته للبيئة، واستجابة البيئة الإجتماعية له، كما أن البيئة الإجتماعية تؤثر بدورها في الطريقة التي سيتم بها النضج البيولوجي.

فالطفل سريع الإهتياج، سريع الغضب قد يمثل خبرة سارة للأب النشط، على حين يكون مصدر إزعاج وضغط شديدين للأب الخامل، وعلى العكس فإن الطفل المتبلد قد يكون عبئاً على الأب الأول، ولكن ليس كذلك بالنسبة للثاني، أو أن مثل هذا الطفل قد يحتاج إلى قدر من الأستثارة يمكن للأب النشط تقديمها، وعلى كل حال فإن مثل هذه الإستجابات الوالدية التي تظهر نتيجة الخصائص

(١) Fromm. E. Escape from freedom. N.Y. holt and winston 1941.

الكامنة للطفـــل، سوف تؤثر كذلك بـــدورها على الطفل خلال مراحل النمو المختلفة.

١ ـ تـأثير الـظروف الإجتماعيـة على المظاهـر العاطفيـة والإنفاعليـة للسلوك.

على الرغم أن المظاهر الخارجية للتعبير العاطفي والإنفعالي تشكل لغة بحد ذاتها، ولكن هذه الأشكال من التعبير تختلف وتتغير بإختلاف النماذج الثقافية، أوتو كلنبرغ (Otto Kleinberg)[1]. لاحظ أن التغييرات الثقـافية للسلوك العـاطفي تتغير على صعيد الحركات والأيماءات بتغيير الدافع الإنفعالي، لاحظ كلينبرغ أن التعبير عن الخوف يتشابه بالنسبة لسكـان الصين والغرب ولكن الحـالة تختلف بالنسبة للتعبير عن دافع الغضب، الصيني في حالة الغضب يفتح عينيه بشكل دائرة (هذا ما يجعل الصينيين يعتقدون إنطلاقاً من مفهومهم للغضب أن الأوروبيين هم دائماً في حالة الغضب).

بالنسبة للصيني إخراج اللسان هو تعبير عن حـالة المفـاجاءة، البصق في بعض المجتمعات لا يعتبر كـأشارة للتحقيـر. إن التعبير عن الـدوافع العـاطفية والإنفعالية هي عامة لدي كل الناس ولكنها تختلف بمظاهرها ودلالالتها بإختلاف النماذج الثقافية. إن البكاء ليس فقط تعبيراً للدلالة على حالة الحزن، ولكنه أيضاً في بعض الحالات يبدو كمظهـر من مظاهر الفرح (لقاء شخص عزيز بعد طول غياب)، الضحك والإبتسامة لها تفسيرات مختلفـة، ففي اليابـان الإبتسامـة هي للتعبير عن الإرتباك، أو سماع خبر سيء، عند الساموراي المراءة تبتسم عندما تُخبر بنباء وفاة زوجها أو ابنها في المعارك، على العكس، الياباني لا يبتسم أبداً عندما تؤخذ له صورة فوتوغرافية.

كـذلك الأمـر بالنسبـة للتعبير الإنفـاعلي عند ولادة التـوأم، فإنـه يختلف بإختلاف المجتمعات. ، ففي «دلتا النيجر»، ولادة توأم تدل على العار والغضب،

---

(١) أوتوكلينبرغ علم النفس الإجتماعي مرجع سابق ص ٢٤٧ ـ ٢٨٥ .

الأم والتوأم يتعرضون للموت، في حالة التسامح، تعـزل الأم عن المجتمع في مجتمع «الباميكا» في الكـاميروز الذي لا يبعد كثيراً عن المجتمع الأول، يختلف التعبير الإنفعالي لولادة التوأم، حيث تكون مناسبة للفرح، الأب يضع في معصميه سوارين، والأم تحمل في رقبتها عقدين.

إن الحزن كما نعلم هو التعبير الإنفعالي لظاهـرة الموت، في الأسكيمـو الموت هو ظاهرة للتعبير عن الفرح لإنه يرمز إلى الخلود.

٢ ـ الضبط الإجتماعي لدوافع الإنفعال:

إن التنظيم الإجتماعي للإنفعال بما يتلاءم مع القواعـد الأخلاقيـة يتم من خلال التنشئة الإجتماعية، إنه يساعد الفرد على فهم الغير وفهمه لذاته.

أحياناً يقول الفرد لذاته أو للآخرين، لقد فعلت كذا وكذا لإنني كنت بحالة من الغضب الشديد والإنسان في حالة الغضب هو أشبه ما يكون بالأعمى. هذه التبريرات ضرورية لفهم السلوك الإنفعالي من زاوية علم النفس الشعبي.

إن تفسيـر السلوك الإنفعالي إنـطلاقاً من المفـاهيم الشائعـة هو نـوع من الخداع، لإن هذه الوسيلة للتحليل والفهم والتفسير لا تمت إلى العلم بصلة، وهي اشبه بالنظريات السحرية والفلكورية وعلم التنجيم والأبراج، نظرية علم النفس الشعبي تضع على المحك المعايير الإجتماعية، لكي نفهم السلوك الإنفعالي في مجتمع من المجتمعات يجب أن نفهم نظام القيم والمعايير الإجتماعية السائدة في هذا المجتمع، وأن نفهم التعبير الإنفعالي من خلال علاقته بنظام القيم.

٣ ـ الأدراك:

إن آلية التفكير تتعلق بإرادة الفرد الـذاتية، في حين الإحسـاس والشعور والإدراك، لا يمكن تفسير مظاهرها ودوافعها إلا ضمن الإطار الإجتماعي.

إن الأشخاص الذين ينتمون إلى جماعات ثقافية مختلفة يتميـزون بسلوك إدراكي مختلف الأختلاف في الإدراك يظهر بوضوح بالنسبة لموضوع الألوان. ففي

أفريقيا، نلاحظ بوضوح، أنه في نفس المكان، هناك جماعات إثنية مختلفة لا تميز الألوان بذات الطريقة، بعض الأفراد لا يميز بين الألوان الفاتحة (أحمر، برتقالي، أصفر) البعض الأخر يخلط مفهوم الألوان الداكنة والغامقة (اخضر، بني، أسود)[١].

الإدراك للمكان والزمان يختلف أيضاً بإختلاف النماذج الثقافية بعض المجتمعات تعبر عن قرب المسافة بتعبير (طير عصفور)، (رمية حجر)، وللدلالة على الزمن نستعمل مفردات ناتجة عن البيئة الإجتماعية ففي الصحراء تستعمل مفردات «طبخة جراد»، في اليابان (طبخة رز)، وهي ترمز إلى فترة زمنية مدتها نصف ساعة.

المكان والزمان يختلف بالنسبة للمجتمعات البدائية، الفرد في بالي (Bali) ، لا يهتم بالمستقبل، إنه يعيش الحاضر (اللحظة المعاشة)، لغة الهوبي، لا تحتوي على كلمات تجعل من الزمن غاية وهدف، ليس هناك مفردات لغوية للدلالة على الشتاء أو الصيف، الأفعال ليس لها مدلول زمني، الفكر وآليات التفكير تنظم ضمن اطار المكان والزمان.

تؤثر الطبيعة الفيزيائية في طبيعة الفكر بأشكال مختلفة ومن الممكن أن تحدد اللغة أنماط وآليات التفكير يرى الدكتور هوستيه (Hushih) ، أن الصفة الحسية في اللغة الصينية، لا تساعد على نمو الدقائق الميتا فيزيكيه ولكن الجواب على ذلك يكمن بأن قلة الإهتمام بمثل هذه الدقائق هي المسؤولة عن نقص المفردات في هذا المجال.

إن الأدب الهندي يحتوي على كلمات متعلقة بالتفكير الفلسفي والديني أكثر عدداً مما في اللغات الأغريقية والاتينية والألمانية معاً[٢].

إن الفرد الذي يولد في محيط له ثقافة خاصة، سيفكر بالإعتماد على

---

(١) Jean Stoetzel la psychologir sociale OP. cit P 237.

(٢) أوتوكلينبرغ علم النفس الإجتماعي مرجع سابق ص ٧٤ ـ ٧٦.

مفردات تتصل بوسيلة التعبير الشائعة في جماعته، أي بـالطريقـة التي تعبر بهـا المفردات عن إهتمامات الشعب: مثال الصور العديدة لتسمية «الجمل» في اللغة العربية ويقال إنه يوجد تقريباً حوالي ستة آلاف كلمة ذات علاقة بالجمل، يتضمن هذا أسماء فئات مختلفة من الجمال تبعاً لوظائفها نوق الحليب، جمال الركوب، جمال الذبح، واسماء درجات النبل حسب الفروع والأصل، والأصل الجغرافي، واسماء للعدد، كلمات للدلالة على الغاية منها، للرعي، للقافلة، للعدو، ويوجد حـوالي خمسين كلمة للدلالـة على الناقـة في حال الحمـل، مراحـل الجنين، الأمهات التي ترضع صغارها، والتي لا ترضع، والتي اقتربن من ساعة الوضع.

كذلك بالنسبة لكثرة الكلمات المستعملة في الأسكيمـو لتسمية «الثلج». وكثيراً ما قيل بأن فقدان الكلمات من القاموس قـد يشير إلى بعض النقص في نموذج التفكير الذي تمثله هذه الكلمات.

على سبيل المثال، إن لغات الأبتدائين تفتقر إلى الكلمات المجـردة وأن تفكيرهم محصور بالمحسوس وأنهم ليسوا قادرين على التجريد.

إن الرد يتجه إلى اعتبار أن النقص في بعض الكلمات المجردة، ناشيء على الأرجح عن كون هؤلاء لا يهتمون كثيراً بالمجردات. وهذا ليس ناتج عن كونهم عاجزين عن بلوغها.

كذلك الأمر بالنسبة لإدراك الزمان فهو يختلف بإختلاف النماذج الثقافية. عـام ١٩٣٣ لإزار سفيلد درس العـاطلين عن العمــل في النمسـا. لاحظ أنهم يتأخرون عن الموعد المحدد مع الباحث لعدة ساعات، إن مفهوم الزمن والمكان يختلف أيضـاً بإختـلاف الجنس والعمـر، السكنى الـوضـع المهني والمستـوى الثقافي، مفهوم هدر الزمن هو من الأسباب التي دفعت للتخـطيط في إستعمال الروزنامة، والمفكرة، التخطيط للأيام، الأسابيع، الأشهر وأيضاً السنين.

في كتابة «الحياة الجنسية للبدائيين في الشمال الغربي من ماليزيا»، «ما لينو فسكي» يروي إنه إرتكب خطأً في الدلالة على التشابه بين الأخوين، في جزر

التروبرياند إدراك التشابه مع الأم هو شيء محرّم ، كذلك التشابه مع أخوة واخوات الأم، إن الإدراك للتشابه بين الأخوة في التروبرناند غير مسموح به، لإنه محرم.

إلى جانب المظاهر الإجتماعية والثقافية للإدراك، إن سمات الشخص الفردية ككائن اجتماعي له مركز ودور إجتماعي يؤثر أيضاً على خصائص ومحتوى الإدراك.

إن الإدراك يتعلق بالدرجة الأولى بالشخص ذاته، الإدراك يختلف بإختلاف طبيعة الشخص، الأبحاث عند ليڤين، مورفي، لدراسة مفهوم الإدراك من خلال ظاهرة الصيام، كانت تعرض على الأفراد صوراً بعضها اسود وأبيض والبعض الآخر بالألوان، هذه الصور ليس لها معنى محدد، صور تمثل الطعام وأدوات المنزل. نلاحظ أن الإدراك لصور الأطعمة يزداد بإزدياد مدة الصيام. . الإدراك له عتبة معينة، حيث أن الصورة إذا لم يعدلها المدلول الإشباعي، فإن الشخص لم يعد تثير إهتمامه، إنه يريد أن يأكل.

إن الإدراك هو وسيلة يستعلمها الفرد في سبيل المحافظة على نفسه ضد المخاطر التي تهدده، إن المركز والدور الإجتماعي للفرد داخل الجماعة يؤثر على مفهوم الإدراك.

٤ ـ تأثير القيم والمعايير على الإدراك.

إن الوسط الإجتماعي المحيط بالبيئة الطبيعية الذي يتفاعل فيه الفرد يؤثر تأثيراً ملحوظاً على سمات شخصيته وقيمه الأخلاقية. إن تأثير القيم والمعايير والمواقف الإجتماعية تبدو واضحة من خلال تنوع الأدوار التي يقوم بها الشخص في المواقف الإجتماعية المختلفة.

بسبب الضغوط الإجتماعية والإقتصادية والسياسية قد ينقلب الشخص من إنسان هادىء إلى إنسان ثائر واحياناً مجرم، إذن المواقف الإجتماعية بما تتضمنه من تقاليد وقيم تضغط على الفرد ويستجيب لها تبعاً لظروفه النفسية والإجتماعية. إن الضغط الذي يفرضه الموقف على الشخص يدفعه لرؤية المشكلة بشكل

جديد، يتلاءم أو لا يتلاءم، مع مجموعة الأتجاهات التي يفرضها الدور على الفرد في مواجهة المواقف المتعددة[1].

إن أوسبورن «Osborn» في كتابه «الخيال في مجال التصنيف» يكشف تأثير التفاعل الإجتماعي على شخصية الفرد، يكتشف اوسبورن ان تفاعل الفرد مع جماعة متسامحة ومشجعة تثير لديه أطلاق الطاقات الخلاقة. ومن المفاهيم التي طرحها اوسبورن هوما يسمى بأسلوب «التوليد الفكري»، ويتبلور هذا الأسلوب في تشجيع الفرد على الإنطلاق بأفكاره خلال التفاعل مع جماعة معينة دون أي تقيم مباشر لهذه الأفكار ولكي ينجح اسلوب التوليد الفكري هناك أربعة شروط وقواعد تحكم جلسات التوليد الفكري داخل الجماعة: الإمتناع عن النقد، الترجيب بالأفكار المطروحة الإهتمام بالكمية دون الكيفية، تنمية الأفكار التي تطرح اثناء المناقشة مع إضافة عناصر جديدة لها[2].

إن جلسات التوليد الفكري ذات فاعلية في إكتشاف الكثير من الحلول للمشاكل التي يعاني منها الجماعة.

٥ ـ تأثير المعايير الجماعية ورأى الأغلبية على الإدراك الفردي.

من المعلوم أن الفرد يستجيب للمواقف الإجتماعية المختلفة بإنماط من السلوك تختلف في مظاهرها بإختلاف المعايير الإجتماعية للجماعة التي يتفاعل الفرد معها، إن المعايير كما هو معلوم تفرض ضغطاً على أفراد الجماعة، إن الجماعة تشكل معاييرها من خلال طبيعة الأعضاء (العمر، الجنس، المستوى الثقافي، البيئة الجغرافية والإقتصادية، الوضع المهني)، الخبرات والأهداف التي تسعى لتحقيقها.

إن معايير الجماعة تتشكل من خلال الخبرات المتراكمة للجماعة عبر التطور

---

(١) أرجايل، ميشيل، علم النفس ومشكلات الحياة الإجتماعية ترجمة عبد الستار إبراهيم دار العلم الكويت ١٩٧٩.

(٢) إبراهيم عبد الستار آفاق جديدة في دراسة الإبداع، الكويت، وكالة المطبوعات ١٩٧٩.

الزمني، قد تكون هذه المعايير مكتوبة (القوانين والدساتير: ، أو غير مكتوبة (العرف الإجتماعي). والقواعد الإجتماعية الأخلاقية.

إن الجماعة تحاول أن تفرض معاييرها على الأفراد بشتى الوسائل، من الأبحاث المهمة لتأثير المعايير على تشويه الأحكام الحسية، البحث الذي قام به «مظفّر شريف». فقد استنتج شريف إن إدراكنا للإشياء يتأثر بإدراك الآخرين كما يعبرون عنه أمامنا[1].

وقد كشف «شريف» أن الفرد يغير من أحكامه ومعياره الشخصي حتى يساير معيار الجماعة، حتى وإن كان معيار الجماعة يختلف عن المعيار الشخصي للفرد.

قد أيد آسش «Asch» هذه الحقيقة حيث برهن أن إدراك الفرد يميل للخضوع لحكم الأغلبية بالرغم من إنه يختلف عما تراه عيناه وحواسه[2].

إن من أهم أسباب انصياع الفرد لمعايير الجماعة هو تجنبه من العقوبات الخاصة المادية والمعنوية التي تفرضها الجماعة على أفرادها.

إن سمات الشخص الفردية ومفاهيمه الخاصة عن الآخرين تلعب دوراً كبيراً في زيادة قدرته على الأنصياع أو إنخفاضها، إن الشخص الذي يفتقر إلى الثقة بالنفس وعدم الأمان غالباً ما يخضع للضغوط أكثر من الشخص الذي يتميز بقدر من إرتفاع الثقة بالنفس والمركز الأجتماعي.

كذلك فإن لرأي الخبراء والمختصين تأثير على تكوين المعايير والإدراك، لكن علينا أن نشير أن السمات الشخصية للفرد ليست هي التي تحدد المظاهر المتعددة للسلوك في المواقف المختلفة. ولكن الدور للوظيفة الإجتماعية التي يقوم بها، وتوقعات الآخرين لهذا الدور هي التي تملي عليه سلوكاً معنياً، فالأب يسلك مع إبنه بحسب ما يمليه إداركه لدوره كأب، وبحسب توقعات الأبن عنه.

---

(١) Zanden, H.W. Social psychology. N.Y. Random Hause 1977.

(٢) Asch, S.E. Opinions and social pressures, scientific Amerciain 1955 P 31 — 35

قد يقوم الفرد في موقف واحد بمجموعة من الأدوار، فالرجل في المنزل هو أب وزوج، وينتقل الأب والزوج من دورٍ إلى آخر تبعاً لما تمليه عليه الظروف والتوقعات الإجتماعية بالنسبة لكل دور، وعندما يطرق عليه الباب ضيوفاً أو أقارب فإن الأب والزوج يقوم بإداء الدور الثالث وهو دور المضيف، إن سمات الشخص الفردية واسلوبه ومركزه الإجتماعي قد تسمح له أداء هذه الأدوار بإنسجام، وقد يرتبك في إداء هذه الأدوار عندما يحصل تعارض بين الأدوار، كأن يبدأ أحد الأطفال في البكاء والصياح بينما يحاول هو أن ينصت لحديث ضيوفه. هنا يبدأ الصراع بين الدورين: دور الأب ودور المضيف[1].

إن صراع الأدوار في المواقف المتعارضة قد يؤدي إلى التوتر والقلق، إن الشخص الذي يكون محافظاً وتقليدياً، قد يشعر بصراع الأدوار عندما يجد نفسه مرغماً على التخلي عن هذا الدور في إحدى الحفلات حيث يرغم على شرب الكحول والرقص.

٦ ـ تأثير الوسط الطبيعي (البيئة والمكان) على سلوك الشخص.

١٠٦ ـ الأثار النفسية: إن الفرد قد يصاب بالحرج والإزعاج إذا عرف أن شخصاً ما يتلصلص عليه من خلف الباب، أو يفتح خطاباً خاصاً، أو يفشي سراً، إن الإنسان يشعر أن لديه حاجة ماسة بأن يبقى جزءاً من حياته الخاصة بعيداً عن آذان وعيون الآخرين، ويحاول أن يحافظ على هذا الجزء ويحتفظ به دون تدخل الآخرين.

وللخصوصية ٣ حالات يفصلها وستن «Westin»[2].

أ ـ الوحدة: أو الإنفراد في مكان ما بعيداً عن انظار الآخرين. حالة القيام بعمل شخصي (الدراسة، الكتابة، الإستلقاء الحر).

---

(١) عبد الستار إبراهيم الإنسان وعلم النفس مرجع سابق ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢) Dempsey.D Psychology and you, N.Y: scott , Foresman 1978.

ب ـ المكان العائلي وهو يتعلق بخصوصية اثنين أو أكثر يتقاسمون العيش في مكان ما (منزل، سيارة، قارب شخصي).

ج ـ المجهولية: الفرد يشعر بالراحة أو الهدوء إذا كـان مجهولاً في بعض الأماكن العامة (مكتبة عامة، سينما، مسرح، مقهى). علينا أن نميز بين الوحدة والعزلة، وحاجة الإنسان للخصوصية: يقول أحد المساجين:

«لقد فصلوني عن أسرتي وحرموني حتى من لمس طفلي الصغير، وجردوني من كل حاجياتي الصغيرة، وحجبوا عني الشمس والقمر والنجوم تركوني دون شيء وأبـدلوا الـزهور، والشجـر الأخضـر والـدفء، والنعـومـة بـالصلب والبـوابـات الحديدية».

«وبالرغم من الإكتئاب الذي يتملكني والـرغبة في الإنهيـار فإن اكتشـافي لنفسي وأفكـاري يمنحني البهجة، وإلى أن يجـدوا اسلوباً يحـرمونني بـه نعيم إفكاري الخاصة، فإنني حر.

إن الإنسان يستطيع أن يعيش دون حرية في الحركة، ولكنه لا يعيش دون حرية عقلية»(1).

إن العزلة تسمح للفرد أن يقيم أفكاره، إن البحوث توضح أن الأشخاص الذين يمتلكهم القلق... دون معرفة مصادره.. يفضلون البعد أكثر من الإختلاط بالآخرين، أمـا الأشخاص الـذين يتملكهم القلق لأسباب محـددة فهم يفضلون الإختلاط أكثر من الأنفراد بالذات، الإنعزال محـاولة لـلإنفراد فتـرة محددة من الزمن، لتحقيق هدف معين إنفعالي أو عقلي، أما العزلة فهي على العكس تشير إلى الإحساس بأن إنفراد الفرد في مكان محدد مفروض عليه «دون سبب واضح» أو بسبب أحساسه بالنقص والعجز عن الإختلاط والإلتقاء بالآخرين.

٢٠٦ ـ المسافة في التفاعل الإجتماعي.

المسافة بيننا وبين الآخرين تتأثر بعدة عوامل منها: العمر، الجنس، المركز

(1) Zinbardo, P.G. Pathology of imprisonmet, Society, April 1972.

الإجتماعي، الحضارة، الديانة، وتبين التجارب إننا نسمح للإطفال بالأقتراب الوثيق أكثر مما نسمح للبالغين وتزداد المسافة تدريجياً كلما نما الطفل.

وتختلف المسافة بين الأشخاص عند تبادل حديث معين من حضارة إلى حضارة، فالمسافة في البلاد العربية تكون قصيرة لدرجة التلامس والإحساس برائحة الفم والتنفس، وبينما يكون ذلك مقبولاً في العالم العربي، فإن تقبل الغربيين لذلك أقل. ولهذا تكون المسافة أبعد، ويكون تبادل النظرات عند الحوار هو أكثر قبولاً.

٣٠٦- ظاهرة الإزدحام المكاني.

إكتظاظ المكان والإزدحام يؤديان إلى التدهور في أشكال السلوك السوّي وأنهيار كامل للنظام الإجتماعي هناك دراسات تبين أن الإزدحام في المناطق الشعبية يكون من بين العوامل التي تساعد على الإنحراف وانتشار الجريمة، والأمراض الجسمية والنفسية والشذوذ. وبينت الدراسة إن الإستجابة للإزدحام تختلف بإختلاف الجنس فالرجل يستجيب للزحام بالعدوان والمنافسة، بينما تتقبل النساء الزحام برضا، ويزداد ميلهن للتعاون تحت هذه الظروف. دراسة «فريدمان» تبين أن وجود المراءة يقلل من الآثار السلبية للزحام عند الرجل، فتقل الميول العدوانية، ويقل الميل للتنافس[١].

إن عالم الإجتماع «شور» الذي درس الأماكن الشعبية المزدحمة وعلاقتها بعدد من الأمراض النفسية والجسدية والإجتماعية، فتبين له وجود إرتباطات قوية بين الظروف المعيشية السيئة في الأماكن الشعبية المزدحمة، وإنتشار الأمراض الجسمية، والإحباط الجنسي، والشعور بالسخط والعدوان والشعور بعسر الحياة[٢].

كذلك هناك دراسة تبين الآثار السلبية والإيجابية لمفهوم العلاقات

---

(١) Freedman, J.L psychological perspectives on propulation N.Y Basic 1973.

(٢) Schorr, A.L. Slums and insecurity, washington, Government printing office, 1963.

الإجتماعية في كل من المدينة والقرية (مفهوم الصداقة). إن تكوين الأصدقاء في المدينة يتم بصورة أبطأ، ولكن الصداقة غالباً ما تكون أعمق وأكثر اشباعاً عاطفياً من الصداقات الجديدة في المناطق الريفية. لكن ما تجدر الإشارة إليه بالنسبة لعالم المدينة هو تغيير البيئة المادية وبناء السدود، والمناطق السكنية الضخمة، والتكنولوجيا الهائلة، لكن ذلك لا يجب أن ينسينا النتائج السلبية التي تتراكم بفعل هذا التقدم فمع التقدم التكنولوجي يأتي التلوث الجوي، ومع الضخامة في بناء المدن والمساكن تأتي مشكلات الإغتراب والجريمة ومع بناء المصانع الضخمة تأتي مشكلات الأحباط والتوتر.

الفصل الرابع

تقييم الشخصية

إن عالم النفس البريطاني المشهور «هائتز إيـزنك» دعي عـام ١٩٧٢ إلى أحدى جامعات بريطانيا ليحاضر عن آخر تطورات مقـاييس الذكـاء، قبل البـدء بالمحـاضرة، فوجىء بمنشورات تطلب عدم الأصغاء «لا يزنك» لإنه يتخذ بحوثه وسيلة للهجوم المباشر على الطبقات الفقيرة والعلماء المتقدمين. ولأنه فـاشستي وداعيه للبرجوازية باسم العلم، وفي زيارته الثانية لمدرسة لندن للعلوم الأقتصادية إندفعت إحدى الطالبات خلال المحاضرة معترضة بالقول «على هذا الإستعماري العنصري المسمى بأيزنك الذي يحاضر هنا ولا يملك حتى الشجاعة لكي يعرض علينا أفكاره العنصرية عن الإنحطاط العقلي للملونين»(١).

الذي حدث أن العالم النفسي البريطاني ايزنك قد زّيف عن عمد بحوثه التي يثبت فيها أن ٨٠٪ من الذكاء يخضع للوراثـة. أن قضية الـذكاء اصبحت مصدراً للغضب والأقتتال بين أنصار الوراثة وانصار البيئة.

عندما يريد عالم النفس الحديث أن يحدد ذكاء شخص معين ـ لأغراض أكاديمية أو علاجية ـ فإن ما يفعله يتلخص في الحقيقة في ملاحظة اداء هذا الفرد على مجموعة من الأعمال أو الإختبارات ـ وأن يقارن هذا الإداء بمعيار عام يمثل في الحقيقة متوسط اداء الفرد ـ من نفس العمر ـ في المجتمـع الذي ينتمي لـه هذا الشخص.

(١) Ellis, A. A new guide to rational living, Hollywood, Cal, 1975.

ويمكن بناء على هذه المقارنة ان تحدد موقع هذا الفرد من حيث مستوى ذكائه بالنسبة للآخرين.

إن أقرب تصور لمفهوم المقياس النفسي للذكاء هو أن نتصوره شيئاً أقرب ما يكون إلى الأمتحانات المدرسية، إلا إنه أكثر تعقيداً وأكثر دقة، لإنه يعكس القدرة الفعلية للفرد على الفهم، والإستيعاب وإدراك العلاقات المكانية، والتجريد، ومعالجة الرموز، والإستفادة من الخبرات العقلية، وإلى غير ذلك من الخصائص التي ننسبها أو نربطها بمفهوم الذكاء.

إن المقياس النفسي للذكاء يستخدم الأساليب الإحصائية والتفكير العلمي في سبيل الوصول إلى القوانين السلوكية بوضوح ودقة، وإلى اكتشاف جوانب التفوق والضعف في شخصية الفرد.

١ ـ أول مقياس للذكاء ونسبة الذكاء.

إن أول مقياس للذكاء بمقاييس دقيقة ظهر في العالم، يعود إلى العالم الفرنسي الفريد بينيه«Binet» عام ١٩٠٥)[1]. إن بينيه وضع مقياسه للذكاء بدوافع ديمقراطية وإنسانية. فقد استجاب بينيه لدعوة من وزير التعليم الفرنسي لدراسة مشكلة التخلف الدراسي ولوضع طريقة موضوعية لتشخيص المتخلفين لوضعهم في مدارس خاصة تقدم فيها تدريبات أعمق على التفكير والتعلم وذلك منعاً لهم من الأحباط والقلق الذي يصيبهم من جراء وجودهم في فصول عادية.

فقد فكر بينيه في أنه يجب قبل وضع برنامج لتدريب المتخلفين أن توضع وسيلة موضوعية تعيننا على التمييز بين المتخلفين والأذكياء بدلاً من الأعتماد على التقديرات القائمة على التخمين الذاتي للمدرسين أو الأداريين.. وقد تمخضت محاولة بينيه عن وضع قياسه المعروف في كل أنحاء العالم بأسم مقياس بينيه للذكاء.

وعلى هذا تكوّن مقياس بينيه للذكاء من اجزاء متنوعة بعضها لفظي كالأسئلة

(١) Kneller, G.F. The art and science of creativity, N.Y. Holt 1965.

التي تـدور حول المعلومـات العامـة، والفهم العام، وبعضهـا تضمن مشكلات حسابية وأرقاماً يطلب إعادتهـا من الذاكرة، وبعضها يتضمن مشكلات علمية ولعباً مقننة لتقدير المهارة على الحل والتركيب والتفكير المجرد.

وقد رتب بينيه بنود مقياسه بحسب مستوى صعوبتها بحيث بدأ بأسهل البنود وانتهى بأصعبها حسب مستوى إجابات الأطفال الذين طبق عليهم هذا المقياس، وقد أدى به هذا في النهاية إلى مفهوم العمر العقلي الذي أمكن من خلاله وضع مجموعة البنـود التي تضمنها الأختبـار في فئات عمـرية، إذا نجـح الطفـل في إحداها ـ وليكن في مجموعة البنود الممثلة لسن ثلاثة سنوات مثلاً ـ فإنه يمكن القول بأن العمر العقلي لهذا الطفل هو ثلاثة. أي بمعنى أن الطفل قادر على حل المشكلات العقلية بنفس كفاءة الأطفال في سن ثلاثة.

فإذا كان العمر الزمني لهذا الطفل هو سنتان فإننا نحكم بأنه متقدم في عمره العقلي من عمره بما يساوي سنة من النمو العقلي.

كذلك فقد اكتشف بينيه مفهوم نسبة الذكاء I. Q الذي يعطينا قيمة عددية تمكننا من مقارنة العمر العقلي للطفل بعمره الزمني، لكي نعرف ما إذا كان هذا الطفل متقدماً في عمره العقلي عن عمره الزمني أم متخلفاً.

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠$$

وعلى هذا فإن نسبة الذكاء ١٠٠ تعبر عن درجة متوسطة من الذكـاء (أي درجة يتناسب فيها العمر العقلي مع العمر الزمني) ويكون الشخص متخلفـاً إذا كانت نسبة ذكائه منخفضة عن ذلك إنخفاضاً كبيراً، ويكون متفوقاً أو ذكياً إذا كانت نسبة ذكائه أعلى من ذلك كثيراً.

مقاييس وكسلر للذكاء.

من أشهر مقاييس الذكاء في الوقت الحالي مقياس وكسلر لذكاء الراشدين، ومقياس وكسلر لذكاء الأطفال. إن مقياس الأطفال يلائم الأعمار من سن واحدة

حتى ستة عشر عاماً، بينما يلائم مقياس وكسلر لذكاء الراشدين الأعمار من ستة عشر فما فوق[١].

٢ ـ الذكاء بين الوراثة والبيئة.

إن الخلاف بين المتخصصين في العلوم السلوكية يرجع إلى جوانب السلوك التي تورث وتلك التي تكتسب، فالبعض يعطي للوراثة وزناً أكبر، والبعض الأخر يعطي للبيئة وزناً أكبر، ويأتي البعض الثالث بمحاولات توفيقية نعطي للبيئة وزناً أكبر منّ الوراثة في بعض الجوانب مثل الإتجاهات والرأي وتعطي للوراثة وزناً أكبر من البيئة في موضوعات مثل الذكاء والأمراض النفسية.

وقد برهن «غالتون» على أن الشهرة والعبقرية والمراكز المرموقة تنتشر في أسر دون الأخرى بشكل مميز.

قد كان غالتون نفسه عالماً في أسرة بها كثير من العلماء كابن عمه دارون الذي يعتبر من العبقريات القليلة في تاريخ الفكر البشري، وبنفس القول يمكن تتبع كثير من العظماء بملاحظة نبوغ أسرة الموسيقار «باخ» في الموسيقى وأسرة «هكسلي» في العلم، كل هذه الأمثلة اتخذها غالتون ليؤكد نظريته في وراثة الذكاء. كذلك فإن «سيريل بيرت» أكد أن دور الوراثة أهم بكثير من دور البيئة الإجتماعية في تحديد مستوى القدرات العقلية، وقد برهن في أحد بحوثه أن البيئة تساهم بما يقرب من ٢٥٪ في الذكاء[٢] أما الباقي فتحكمه الوراثة.

إن أكبر تحدٍ للنظريات الوراثية جاء مرتبطاً بانتشار مقاييس الذكاء، لقد كشف استخدام مقاييس الذكاء أن بعض الأجناس والطبقات الإجتماعية الفقيرة تحصل دائماً على درجات ذكاء أقل من أفراد الطبقات المتوسطة أو العالية، وعلى سبيل المثال نجد أن الزنوج في أمريكا ينخفضون دائماً بما يقرب من ١٥ درجة ذكاء بالمقارنة بالمتوسط العام للبيض. كذلك ينخفض ذكاء الأطفال في المناطق

(١) إبراهيم عبد الستار اصالة التفكير دراسات وبحوث نفسية، القاصر الانجلو المصرية ١٩٨٠.
(٢) مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفني، القاهرة دار المعارف ١٩٥٩.

الريفية أو الجبلية المعزولة عن الأطفال الذين يعيشون في المدن الكبرى.

إن المقياس كما قلنا يحتوي على بنود لفظية وبنود تعكس القدرات الحسابية واللغوية، فإن من الطبيعي أن يحصل الفرد الذي نشاء في بيئة لا تهتم بهذه الجوانب من الطبيعي أن يحصل على درجة منخفضة بمقارنته بطفل من الطبقة الوسطى يعيش في بيئة تحفزه منذ بداية حياته على القراءة والإطلاع والتحصيل.

إن علماء النفس في دراستهم للذكاء ينظرون في الوقت الحالي إلى الجوانب الاجتماعية التي تساهم بالنجاح والتفوق والثروة في داخل المجتمعات الغربية[1].

إن علماء التربية يرجعون الفروق بين الأجناس في الذكاء إلى المفهوم النظري الذي يكمن وراء وضع مقاييس الذكاء الغربية.

إن نتائج بحوث تدريب الذكاء تشير إلى أنه بالأمكان من خلال التدريب والتوجه والتنشيط العقلي والأجتماعي زيادة نسبة الذكاء.

لكن متى ـ يجب أن يبدأ التدريب والتوجه العقلي للطفل؟ تبين الدراسات ان الإمكانيات العقلية للطفل تبدأ في التبلور اعتباراً من سن الثالثة.

فمن الممكن التنبؤ بنجاح الأطفال في المستقبل من خلال ملاحظة انشتطتهم وتصرفاتهم العقلية في هذه السن، وعلى هذا فمن الأفضل أن نبدأ في تدريب قدرات الأطفال العقلية في سن مبكرة، ويرى بعض العلماء أن من الممكن القيام بالتنشيط العقلي للإطفال ابتداءً من المهد، فالطفل في الشهور الأول يمكن أن يتعلم التمييز بين الألوان والأشكال إذا ما عرضت عليه يومياً، وينصح العلماء بأن تبدأ تمارين تنشيط الإمكانيات العقلية للإطفال في فترة مبكرة من أعمارهم على أن تكون مناسبة للإمكانيات ولطبيعة المرحلة الطفلية، ففي الشهور الثمانية الأولى من الممكن استخدام كلمات حسية تشير إلى الأشياء التي يستخدمها الطفل، كذلك يجب أن نسمح للطفل بحرية التجول والحركة في المكان لتنشيط

---

(١) أوتو كلينبرغ، علم النفس الإجتماعي، مرجع سابق ص ٤٢٦ ـ ٤٥٢.

قدرته على حب الإستطلاع، وحكاية قصص صغيرة لهم قبل النوم، ومن الألعاب التي ينصح بها في هذه السن المكعبات ذات الأشكال والألوان المختلفة ـ ويجب أن تتطور تدريبات التنشيط العقلي بحيث تغطي وظائف مختلفة كلما تقدمت السن بالطفل حتى يمكن أن نصل بألعابهم لمستويات معقدة من التفكير، على أنه يجب في كل الأحوال أن تكون التدريبات ملائمة، كما يجب البعد عن الإرغام أو محاولة الفرض والقهر ومن المهم أيضاً إثارة الدافع والإهتمام بشتى الوسائل الممكنة دون أن تتحول رغبتنا في إثارة الدافع إلى التهديد والإرغام.

إن البيئة التي تفتقر لمثل هذه الأستشارة تنخفض فيها نسبة ذكاء الأطفال بما يعادل عشرين درجة وهي درجة تكفي لنقل النابغين إلى مستوى العاديين في الذكاء أو أقل.

٣ ـ طرق قياس الشخصية.

يمكن قياس الشخصية عن طريق المقابلات والملاحظة والإختبارات مثل الإختبارات الاسقاطية والموقفية[1].

أ ـ الاختبارات الموقفية: هذه الاختبارات تهدف إلى تهيئة مواقف من سمات وظروف وأعمال يؤديها المفحوص فتبرز ما لديه.. سمات يراد قياسها، من أهم هذه الإختبارات اختبار «هارتشون» و«ماى» لقياس سمة التعاون. ويتلخص في أن يقدم المعلم لكل تلميذ من تلاميذه هدية مكونة من أقلام ملونة ومساطر ودفاتر... ويخبرهم أن لكل منهم أن يتصرف في هذه الأشياء كيفما يشاء... فقد اصبحت ملكاً له، ثم يتقدم أليهم بعد ذلك الملعم باقتراح مفادة أن كثيراً من تلاميذ مدرسة أخرى يحتاجون ألى هذه الأشياء، فمن أراد أن يمنحهم شيئاً من عنده فليضعه في مظروف يكتب عليه اسمه ثم يدعه عند ناظر المدرسة، ومن لم يرد فلا لوم عليه، ثم تسجل نتائج الأختبار بطريقة مقننة، وتقدر

---

(١) د. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، المكتب المصري الحديث الإسكندرية ١٩٧٠ ص ٤٩٣ ـ ٥٠١.

درجاته في مقياس التعاون، وقياس معامل الإرتباط بين المعلومات الأخلاقية والتعاون.

٢ ـ الإختبارات الاسقاطية:

لمفهوم الاسقاط في علم النفس أكثر من معنى؛ عند فرويد يعني ميل الفرد إلى أن ينسب عيوبه واخطاءه ورغباته المكبوتة إلى غيره من الناس والاشياء، فالبخيل الذي لا يفطن إلى أنه بخيل ينسب البخل إلى غيره، وكذلك الأناني والمغرور، أي أن الشخص يقوم «بأسقاط» الحالات الشعورية واللاشعورية على الغير.

أن الإختبارت الاسقاطية تساعد على تجسيد الأحوال النفسية الشعورية واللاشعورية من خلال الالعاب والرسوم والقصص والتعبير اللغوي بالانشاء والأحلام وغيرها.

أهم الاختبارات الاسقاطية:

إختبار بقع الحبر لرور شاخ «Rorschach» ويتكون من عشر بقع من الحبر، منها خمس ملونة وخمس غير ملونة، تعرض الواحدة بعد الأخرى على المفحوص ويطلب إليه أن يذكر ما يراه فيها، وأن يعلق عليها تعليقاً حراً، فيذكر ما يتوارد على ذهنه من خواطر بصدد الصورة، وله أن يدير الصورة في أي اتجاه يشاء، ويمكن أن يسأله المحلل عما إذا كان:

- يرى فيها صورة أناس أو حيوانات أو نباتات؟.
- يرى البقعة في جملتها أم يرى ما بها من تفاصيل؟.
- يتأثر بشكل البقعة أم بلونها.
- يرى الناس والأشياء في حالة سكون أم حركة؟.

ومن مفاتيح تصحيح هذا الأختبار أن رؤية البقعة في جملتها لا في تفاصيلها تشير إلى أن الشخص يتسم بالقدرة على التأليف والتجريد، وأن رؤية التفاصيل تشير إلى تفضيله الأشياء الحسية، وأن التأثير بالألوان يدل على الإندفاع.

وهناك بعض مفاتيح استجابات المفحوص تفيد الباحث، فالحيوانات ترتبط بعدم النضج الإنفعالي ورؤية الظلال ترتبط بالشعور بالنقص والقلق، ورؤية الأسود ترتبط بالشعور بالانقباض.

٢ ـ اختبار تفهم الموضوع T.A.T

يتكون من ٢٠ صورة غامضة لكنها ليس في غموض بقع الحبر، بعضها صالح للذكور وبعضها للإناث، وبعضها للأطفال، كل صورة تحتوي منها على شخص يمكن أن يتقمصه المفحوص أي على شخص من جنسه، ثم يطلب إليه أن يروي القصة التي توحي بها الصورة إليه، ويتحدث عن أحوال من فيها من الأشخاص، وقد لوحظ أن المفحوص في وصفه وتأويله غالباً ما يتكلم عن حياته هو وعن رغباته ومتاعبه دون أن يفطن إلى ذلك. ومن المميزات القيمة للأختبار كشفه للميول المكبوتة الخفية التي لا يرغب المفحوص أو المريض في الإعتراف بها أرادياً، أو التي لا يمكنه الإعتراف بها لعدم شعوره بها.

٣ ـ اختبار الأصوات الخافتة.

يطلب إلى المفحوص الأصغاء إلى صوت إنساني مسجل وخافت ثم يسأل عما سمعه، فقد يجيب بأن الصوت يقول «كن حذراً» أو «لماذا فعلته»؟ أي أنه يؤول ما يسمعه في ضوء حالته النفسية، رغم أن الشريط عبارة عن حروف متحركة لا تسمع جيداً.

٤ ـ اختبار تكميل الجمل.

من الأختبارات الاسقاطية أيضاً اختبارات تكمله الجمل، ويتكون من بضع جمل ناقصة، يطلب من المفحوص أن يكمل كل واحدة منها بأسرع ما يستطيع دون توقف أو تفكير مثل:

ـ الطريقة التي كانت تعاملني بها والدتي تشعرني...

ـ اشعر بالسعادة حين....

ـ أصدقائي لا يعرفون أني أخاف....

ـ أحب.....

ـ أكره . . . . .

ـ أريد أن أعرف . . . .

ـ لو كنت أملك مالاً . . . .

ـ لو كان أبي . . . . .

ويلاحظ أن الأسئلة تلمس أوتاراً حساسه معينة للصراعات اللاشعورية .

إن لعملية تقييم الشخصية أهمية بالغة للإدارة العملية لكثير من المشكلات الإنسانية، فهناك مجالان تطبيقيان للتقييم فيهما أهمية خاصة وهما: اختبار الأفراد والعلاج العيادي لسوء التوافق، أما بالنسبة لإختبار الأفراد فمن المهم عادة أن نكشف عن الأفراد الذين يمكنهم أن يؤدوا وظائفهم بفاعلية في مواقف معينة، كالخدمة العسكرية والصناعة، والمدرسة، وبرامج التربية الخاصة والحرف المختلفة إلخ . . . .

وبالتأكيد، فإن من الأفضل لمعظم الناس أن يؤدوا في حياتهم الأعمال التي تتفق وقدراتهم وميولهم الخاصة، والتقييم والإختبارات هي الوسيلة الممكنة للقيام بذلك إن الرضى الإنساني والكفاية والعدل تتوقف على مثل هذا الأختبار السليم، وذلك على عكس الأختبار الذي يقوم مثلاً، على أساس الخلفية الأسروية، والسلالة، والمعايير الإجتماعية والأقتصادية والأصل العنصري والديني الخ . . . .

الخلاصة

إن شخصية الطفل وسلوكه ليست مجموع دوافعه البيولوجية وما ينتج عنها من حالات نفسية، أو هي تطوره الجسدي والنفسي خلال مراحل النمو المتعددة، وليست ناتجة عن تأثير المعطيات الإجتماعية والثقافية على التركيب العضوي، إنما شخصية الطفل هي تفاعل وتداخل وتعارض وتناقض المستويات: البيولوجية، النفسية، الفكرية، والأجتماعية، بشكل دينامي كلي شامل[1].

إن المدرسة السلوكية في علم النفس عالجت موضوع الشخصية من خلال استجابة الفرد للوسط (الطبيعي والأجتماعي) الذي ينتمي إليه وما تتركه هذه الأستجابات من انعكاسات على شخصية الفرد من حيث التكيف والإندماج.

إن المفاهيم والإنماط التي استعملتها السلوكية في وصف الشخصية مثل: شخصية سيئة، شخصية جيدة، سلوك سوي، لا سوي، كانت إنعكاساً لمفهوم الوسط الذي يتفاعل معه الفرد.

إن الحالات الداخلية على مستوى الشعور والإحساس، الوعي، والسمات الوراثية، لا معنى لها في مفهوم المدرسة الواطسونية للسلوك، إن الكائن الحي بنظر السلوكية هو كائن يتمتع بمجموعة من القدارت والإستعدادات العضوية الفطرية، التي لا معنى لها خارج إطار الاستجابات والتفاعل مع الوسط، الوسط هو الذي يعطي معنىً للنشاط الإنساني، إن سلوكية واطسون ليست كافية لتحليل

(١) Pierre Naville la psychologie decomportement Gallinard Paris 1963.

الشخصية من جوانبها المتعددة، لإن حصر علم النفس ضمن الإطار المادي للبيئة لا يمكن أن يكون هدف وغاية علم النفس أن الشخصية لا يمكن إعتبارها كمجموعة من الأنشطة، والدوافع والحاجات التي يستجيب لها الكائن في الوسط، لإن ذلك يهمل جانباً أساسياً من جوانب الكائن الإنساني، كعامل الوراثة، واللاوعي، وإهمال الخصوصية المميزة لمراحل النمو المختلفة: الطفولة، البلوغ، المراهقة، وفي مواجهة الدور الإجتماعي لمفهوم السلطة بمظاهرها المتعددة والمتنوعة: سلطة الأهل، سلطة المعلم، سلطة القانون... وإغفال حالات الإنفعال في مواجهة الأدوار الإجتماعية على مستوى العلاقات الإجتماعية المهنية والإجتماعية، يضاف العنصر الأساسي للشخصية والذي نجد تعابيره في علم النفس الشعبي والذي يركز على الجانب الجنسي وما يتضمن من إنفعال وجاذبية وإيحاء وما ينتج عنها من مشاعر التعاطف والإنسجام والجذب أو النفور.

إن الإنسان كائن بيولوجي، يتفاعل في البيئة التي ينتمي إليها (الطبيعية، والاجتماعية، والثقافية)، الناتج لهذا التفاعل هو ما تسميه السلوكيه بالشخصية..

لكن ما تجدر الإشارة إليه إن تطور الشخصية لا يمكن فهمه إلا من خلال السياق التاريخي لمراحل النمو المتعددة، إن الشخصية ليست كما تدعي السلوكية هي مجموعة من العادات التي تكونت خلال الاستجابات العضوية للفرد (الحسية ـ الحركية) للمؤثرات الفيزيائية والاجتماعية، لأن التجارب اثبتت أن الأشخاص من ذات المجموعة يستجيبون بأشكال مختلفة خلال التفاعل لذات المؤثرات الخارجية.

إن النزعة الطبيعية لدراسة السلوك والشخصية تميل إلى استبعاد الشعور والوعي واللاوعي والوراثة، وتنظر إلى الحالات النفسية كجزء من الطبيعة العامة، وبذلك تحاول أن تجعل من علم النفس وموضوع الشخصية علماً يناظر العلوم الطبيعية الأخرى، حاولت أن تعالج الحالات النفسية كأشياء خارجية حسية ومادية.

أما علم النفس التحليلي فآنه يعتبر أن الحالات النفسية تنتج من الصراع بين

الدوافع الغريزية (اللبيدو) وبين عوائق الواقع الخارجي (قيم، معـابير، سلطة، الأهـل). تتكون الشخصيـة من خلال التفـاعل بين الـداوفع البيـولوجيـة والبيئة الخارجية، وما ينتج عن هذا التفاعل من حالات الكبت، اللاوعي هو كبت الرغبات الجنسية الطفولية.

إن التحليل النفسي يسعى إلى بلوغ الطبقات العميقة للجهاز النفسي، في سبيل كشف مضمون اللاوعي.

كذلك فإن مقياس بينية للذكاء لا يمكن أن نستند عليه كعامل تفسير وفهم للشخصية، لإن المقياس تتحكم فيه عوامل المحيط، أي بمعنى، أن المقياس لا ينظر إلى الشخصية كوحدة كلية، لإن الحياة الإجتماعية والثقافية تتغير بإستمرار وهي غير ثابتـه، كذلـك فإن الحـالات النفسية الـداخلية، والجـوانب الفكريـة والبيولوجية ليست ثابتة وهي دائمة الحراك تبعاً للتغييرات والتحولات في البيئـة الطبيعية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية، فعندما نقوم بتطبيق الأختبار نفسه بعد سنوات عدّة فإنه لا يعطينا نفس النتائج، فليس في وسع الأختبار أن يتيح لنا التنبؤ بالسلوك والشخصية ومن هنا يتحتم على الأختبار أن يتجه إلى الشخص بكليته، أي من حيث هـو وحدة كليـة شاملة على المستـويات: البيـولـوجي، النفسي، الفكري، والإجتماعي، وذلك في سبيل بلوغ قياس الحالة العامة للشخصية.

إن قياس الذكاء ليس كافياً لقياس نتـائج الشخصيـة والسلوك، لإن تعداد عدداً من المهارات والإداءات التي ينجـح الطفـل أو يفتش فيها في لحـظة من لحظات حياته ليست كافية للتنبؤ بشخصيته ولقياس الذكاء عنده.

إن تصنيف الأفراد إلى فئات وإنماط حسب المنهج القياسي هي من العوامل التي لا تستند إلى اسس علمية.

أن دراسة سلوك الطفل وتحليل شخصيته ليست بالمسألة السهلة التي يمكن أن تتم من خلال الملاحظة للباحث، لإن المحلل قد يسقط أحياناً حالته الخاصة على المواقف والحالات مما يبعده عن الدراسة الموضوعية، والأخطر في ذلك

عندما يستند الباحث على خلاصة الآليات الاسقاطية الذاتية ويفسر بنية الشخصية إنطلاقاً من مواقفه الذاتية وتعبيراً عن ملاحظاته الخاصة، أكثر مما هي تعبيراً عن حالة الشخص موضوع الدراسة.

إن تحليل شخصية الطفل هي من المواضيع الدقيقة والمعقدة، لإن الطفل خلال التحليل قد يستجيب بحضور المحلل على نحو من السرعة والإنفعال، بشكل أن المحلل لا ينتبه إلى التغير الذي يحدثه وجوده في استجابات الطفل وردود فعله.

إن التحليل النفسي يحاول أن ينطلق من المفاهيم والفرضيات والنظريات التي رسمها سلفاً عن مفهومه لعالم الطفل، ويسعى إلى تقييم شخصية الطفل تبعاً للتوافق والتعارض عند الطفل مع النظريات في علم النفس التحليلي إن فرويد إنطلق في تحليلة لشخصية الطفل من النظرية الجنسية وعقدة أوديب، إن الشخص قد يكون بعكس ما ينظر إليه التحليل النفسي، أي بمعنى أن الحالات عند الفرد ليست فاعلة في شعوره كما يتخيل أصحاب التحليل النفسي، بل قد تكون رغبات ودوافع الشخص مخالفة تماماً وعلى النقيض من تفسير التحليل النفسي، إن البعض ينتقد اسلوب التحليل النفسي، في دراسة الشخصية والسلوك باعتبار أن التحليل النفسي باعتماده على فرضيات مسبقة وغيبيه فإنها تعطينا صورة وهمية لا تتطابق مع حقيقة الشخص يضاف إلى ذلك العلاقة التفاعلية بين الباحث والطفل.

إن دراسة الطفل من خلال تجميد الطفولة بقوالب من المفاهيم والنظريات في صور عقلية مغلقة على ذاتها، وكأنها بمثابة عالم قائم بذاته ومقطوع عن عالم الكبار، أو دراسة الطفولة من خلال عالم الكبار وآلياته وتقنياته الخاصة، فإن هذا يقودنا إلى تحديد سمات الشخصية لطبيعة جامدة.

إن دراسة الطفولة من خلال مراحل النمو ليست من المحددات القيمة للشخصية، لإن حياة الطفل تتغير تبعاً لمتغيرات وعوامل معقدة ومتشابكة، إن الواقع الذي يعيشه الطفل على مستوى الواقع الداخلي (حاجات رغبات دوافع) أو العالم الخارجي، هو واقع دينامي دائم التغيير والتبديل، من هنا صعوبة الدراسة

من خلال التقطيع والتصنيف إلى ما هو داخلي، خارجي، وعي، لا وعي، جنسي، حسي ـ حركي، وعزل ما هو فسيولوجي عن ما هو نفسي، ما هو فطري وموروث عن ما هو مكتسب، وعزل النضج عن التعلم، وعزل الموقف عند الاستجابة.

إن دراسة الشخصية لا تتحدد كذلك على الشروط الإجتماعية والوسط التي يوجد فيها الكائن، وإنما يتوقف أيضاً على بنية الكائن الخاصة، في المستوى البيولوجي، فالكائن العضوي، يقيم في وسط يلائمه، ومن الممكن أن تكون الخصائص الذاتية للكائن العضوي هي التي تجعله يستقر في هذه الظروف، في حين أن فرداً آخر قد لا يستقر في الظروف ذاتها، يقول لاغاش: «لا يوجد كائن بغير موقف، أو لا يوجد موقف إلا بالنسبة للكائن، بل أن وجود الكائن في موقف بعينه إنما مردّه إلى البنية المميزة للشخصية».

«فالمواقف تشبه الأشخاص»، ومن هنا لا ينبغي النظر إلى نتائج الإختبارات وكأنها صادقة ومطلقة. من هنا يتحتم على الاختبار أن يتجه إلى الشخصية من حيث هي وحدة كلية ضمن إطار الزمان والمكان، فلا يقف الامر عندما هو محيطي عارضي. إن الأختبار ينبغي أن يتجه إلى الشخصية في كليتها، مما يسمح بذلك إلى دراسة التطور الدينامي للشخصية بدلاً من الوقوف على مظاهر الوصف السطحي أو الوصف في صور إحصائية رقمية للوقائع كالنسب المئوية أو معامل الإرتباط، لإن ذلك يغفل التباينات الفردية من حيث موقف الشخص تجاه البيئة والوسط، لإن نفس المثيرات قد تثير مواقف إداركية مختلفة عند الأفراد الذين ليس لهم نفس الحاجات البيولوجية والنفسية والفكرية والإجتماعية، ولا يعيشون نفس الحالات فيما يتعلق بمشكلات الحياة والحاجات والرغبات. من هنا إن دراسة الشخصية تحتم النظر إلى الشخص ضمن وحدته البيولوجية والنفسية والفكرية والإجتماعية والتاريخية والغائية، وإن وحدة الشخص في الموقف، لا يعني الشخص تجاه العالم الخارجي، وإنما يتضمن التجارب الداخلية والتجارب الخارجية.

إن التطور الدينامي للشخصية كنـاتج لتفـاعل مختلف الأجهـزة الداخليـة والخارجية وما ينتج عنها من صراع، لا يمكن فهمها والإحاطة بها إلا من خلال آليات التكيف والتوازن أي بمعنى إزالة التوتـرات واشباع الحـاجات من خـلال اللجوء إلى آليات الدفاع المختلفة، من هنا تبدو أهمية دراسة الشخصية كوحدة تاريخية تتوضح معالمها في ضوء تاريـخ حياة الشخص واتجـاهه إزاء المـاضي والحاضر والمستقبل.

إن شخصية الطفل وسلوكه هي كما رأينا من خلال التحليل لشتى الجوانب المختلفة هي نتاج التعارض والتناقض والتفاعل بين المستويات المختلفة للكائن الحي (بيولوجي، فكري، نفسي، إجتماعي) إن النفسي يوجد ضمن البيـولوجي ويتعارض معه، والفكري يوجد في البيولـوجي والنفسي والإجتماعي ويتعـارض معهم، كذلك الأمر بالنسبة للبيئة الإجتماعية فهي تتعارض مع الفكري والنفسي وتتكون من خلالهم، من هنا كي نفهم شخصية الطفل ونموه خلال المراحل المتعددة للنمو علينا الإحاطة بالجوانب المتعـددة للكائن على المستـويات: البيـولوجي، النفسي، الفكري، الإجتماعي، إن دراسة هذه الجوانب بشكل كلي دينامي شامل متفاعل هي الأساس في دراسة تكوين الشخصية.

إن المذاهب والإتجاهات المختلفة في علم النفس قد كشفت جانبـاً من جوانب الطبيعة الإنسانية والشخصية ولكن لكي نفهم السلوك وإبعـاد الشخصية (النفسي الفكري البيولوجي والأجتماعي) علينا أن نتناول هذه المعطيـات ضمن إطار متداخل ومتفاعل للكشف عن جوانب التقاطع والتعارض بحيث يصعب علينا عزل أي عنصر عن عنصرٍ آخر والكل يعمل في إطار شامل من الدنيامي والتفاعل بين الجوانب المتعددة لكي تعطينا صورة حية عن سلوك الشخص وشخصيته.

القسم الثاني

الشخصية
في الاسلام



الشخصية الاسلامية

لكي نستطيع تحليل الشخصية الإسلامية لا بد من الرجوع إلى هدْي القرآن والسنّة.

إن ما تتعرض له الشعوب الإسلامية حالياً من تفكك على المستوى الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والسياسي، مما يصعب علينا تفسير وفهم الأسباب الحقيقية للتخلف المادي والتكنولوجي إذا لم نأخذ بعين الإعتبار العوامل التي أدت إلى تدهور القيم الإنسانية.

إن العالم العربي والإسلامي لا تعوزه الثروة المالية التي تسمح له أن يتزود بأحدث الوسائل والتقنيات الحديثة، ولكنه بحاجة إلى إعادة بناء الإنسان لإن بدون تنمية الموارد البشرية والإنسانية لا يمكن التحرر من قيود التخلف والتبعية للخارج.

إن الشعوب الإسلامية بما تعانيه من هزائم وخسائر وتصدع وتفكك جعلت البعض يشكك في صلاحية إنسان هذه الأمة للبقاء والتقدم، بحكم جمود شخصيته ورجعية تفكيره وتخلف عقليته الغيبية.

وقد طرح الدكتور «جلال العظم» في كتابه «نقد الفكر الديني» عدة تساؤلات حول الشخصية العربية والإسلامية.

ـ هل يحق لي أن استمر في قبول هذه القناعات الموروثة عندما لا تكون منسجمة مع القناعات التي توصلت إليها، دون أن أخون مبدأ الفكرية، ودون أن أضحي بوحدة وتماسك أفكاري بعضها مع بعض؟.

ـ كيف يكون موقف الإنسان الذي نشاء نشاءة دينية وتقبلها جملة وتفصيلاً، من النظرة الطبيعية للحياة والكون والإنسان؟ من العسير أن نجد بيننا شخصاً يتمتع بشيء من الحس المرهف وبقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية، لم يعان التوتر الذي تنطوي عليه هذه الأسئلة والقلق الذي تثيره، في إحدى مراحل حياته ونموه إن الحالة النفسية والفكرية التي تعبر عنها هذه الأسئلة، اصبحت جزءاً اساسياً من تكويننا، ولكنها تطفو تارة على سطح الوعي فتشعرنا بعنف وجودها، وتارة أخرى تختفي في أعماق نفوسنا لتؤثر بسلوكنا وتفكيرنا بصورة مستمرة ولكن فعَّاله؟

للإجابة على هذه التساؤلات لا بد من طرح الأسئلة التالية:

ـ هل أن الشخصية الإسلامية بطبيعة فكرها الديني غير صالحة للإنسان مع عقلية عصر العلم الحديث؟ أم أن هذه الشخصية قد تعرضت لعمليات تشويه تجعلها غير قادرة على الإنسجام مع النظرة العملية للحياة والكون والإنسان؟.

في سبيل توضيح الرؤية والإجابة على كل هذه الشكوك والتساؤلات من تحليل الشخصية الإسلامية في سياق نموها الفكري والعاطفي والوجداني ورصد موقف هذه الشخصية من الكون والحياة والإنسان، فيصبح من الممكن عندها الحكم عليها بالقدرة أو العجز عن الإنسجام مع المنطق العلمي الحديث المعاصر، والصلاحية أو عدم الصلاحية للبقاء.

إن الشخصية الإسلامية قد طرأ عليها تغييرات ناتجة من ميراث الشعوب التي دخلت الإسلام بعد الفتوح الكبرى، لكن العقيدة الإسلامية وحدت هذه الشعوب بما جعلها تحقق الدور القيادي للحضارة الإسلامية التي اضاءت ظلمات الغرب الأوروبي في القرون الوسطى، والتي بفضلها إنتقلت أوروبا إلى العصر الحديث، وإنتقلت إليها قيادة الحضارة، في حين تخلفت الأمة الإسلامية، وكان سر بقاء هذه الأمة القرآن، الذي حماها من الضياع وأضاء بنوره وعي التخلف الثقافي والأمية التي تفشت، وقادها إلى معارك التحرير الباسلة ضد الإستعمار.

إن التبعية الثقافية للخارج، أدى إلى تعدديه الإنتماء الفكري والوجداني بين

ابناء الجيل الواحد إلى عدة مدارس وإتجاهات، مما جعل الأمة تعاني من ازداوجية الصراع، بين قديم وجديد، بين يمين ويسار بين شرق وغرب.

هذه العوامل أدت إلى اهتزاز نظام المعابير والقيم الإسلامية التي كانت سائدة لتحل محلها مقاييس جديدة مما جعل الشخصية الإسلامية تفقد أبرز سماتها حيث لم تعد تميز بين المحافظة والرجعية، ولا بين الأصالة والجمود، ولا بين النقي الأصيل والطارىء الدخيل، مما جعل غالبية الشعوب العربية والإسلامية تتمزق طوائفاً، وأحزاباً وشيعاً، وتحكمهم أوضاعاً سياسية وإجتماعية واقتصادية متنافرة، وتفرق بينهم عصبيات محلية وإقليمية، طائفية ومذهبية وحزبية، مما أعطى للدول الغربية أن تلقي وزر الهزيمة والتخلف على شخصيتنا التي تعاني من التخلف الفكري والذي يتعارض مع منطق العلم وروح العصر.

هنا لا بد من طرح السؤال الجوهري:

ماذا نعني بالشخصية الإسلامية؟.

للإجابة على هذا السؤال لا بد من الإحتكام إلى أدلة وشواهد من نصوص الكتاب وصحيح السنة.



الفصل الأول

الركائز الأساسية للشخصية الإسلامية

١ ـ العقيدة

أ ـ الإيمان: إن جوهر الإسلام هو الإيمان، الذي يمثله المؤمن عقيدة وسلوكاً، والإيمان منوط بالقلب، وبه تطمئن النفوس:

﴿الذين آمنوا وتطمئِنُّ قُلُوبُهُـم بِذِكرِ الله، إلا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. [الرعد: ٢٨].

﴿ولـكِنَ اللَّهَ حَبَّبَ إليكُمُ الإيمان وزيّنة في قُلُوبَكُم﴾ [الحجرات: ٧].

﴿ربنا لا تُزغ قُلُوبَنَا بَعَدَ إذ هَدَيتَنَا وَهَبْ لنا من لَّدُنك رحمةً إنكَ أنت الوهَّاب﴾ [آل عمران: ٨].

ب ـ التوحيد: وهو جوهر الدين كله، وهو سبحانه يعلم الذين أسلموا ولماً يدخل الإيمان في قلوبهم، ويعلم المنافقين ومرضى القلوب:

﴿ومن الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قُلُوبُهم﴾ [المائدة: ٤١].

﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿وإذا لَقُوا الذين آمنُوا قالُوا آمَنَّا وآذا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نحنُ مستهزئون * الله يستهزِيءُ بهم ويمدُّهُم في طُغيانهم يعمَهُون * أُولئِك الذين اشتروا الضلالة بالهدي فما ربحت تجارَتُهُم وما كانوا مُهتَدين﴾ [البقرة: ١٤ : ١٦].

ج ـ الصلاة: إن الصلاة قياماً بين يدي الخالق يكبح غرور الإنسان ويأخذه بالتواضع وينهاه عن الفحشاء والمنكر.

د ـ الزكاة: الزكاة طواعية في الإسلام، يهدف إلى التعاون على الخير العام، من يأتي الزكاة يشعر بغبطة الإيمان والبذل والعطاء وشكر النعمة، مالا يشعر به الذي يؤدي ضريبة المال مكرها، لو إستطاع أن يتهرب من إدائها لفعل.

هـ ـ الصوم: إن المؤمن يصوم رمضان تقوى ومجاهدة، لا رقيب عليه إلا الله والنفس اللّوامة، والمؤمن هو الذي يقدر لنفسه العذر في الأفطار، ويبادر إلى القضاء بعد زوال العذر، أو الفدية إن لم يستطيع القضاء.

إن الصوم يسمو بالنفس الإنسانية ويطهرها، وليست الغاية منه منع الإنسان عن الطعام والشراب.

و ـ الحج: ويحج إلى المسجد الحرام من يستطيع إليه سبيلاً والمؤمن رقيب على نفسه فيما يستطيع وما لا يستطيع، هدف الحج هو توحيد أبناء الأمة الإسلامية الذين تجمعهم العقيدة الواحدة عند قبلتهم الواحدة، حيث تمحى بينهم الفروق على اختلاف أجناسهم وألوانهم وديارهم سوى عبادة الله وحدة، وهو سبحانه الذي يعلم المؤمنين منهم والمرائين، ولن ينال الله من كل ما نقيم من مناسك الحج غير التقوى:

«لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم». إن الإيمان موكول إلى ضمير الإنسان، أو النفس اللوّامة» بالتعبير القرآني: هي التي تفرض عليه أن يذكر الله في كل أمره، كل مؤمن رقيب على نفسه، خاضع لرقابتها وقد يفلت الإنسان من محاسبة المجتمع ولكن لا يفلت من حساب هذه النفس اللوّامة.

وكل قوانين الشرائع الوضعية عاجزة عن أن تحكم الضمير. وما من رقابة خارجية تغني عن مراقبة النفس التي أرهفها الإيمان،

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال:

«إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرىء ما نوى» (صحيح مسلم).

تقرر عدم الأكراه في الدين، فليس بعد التبليغ والدعوة، إلا أن يترك الإنسان لما يطمئن إليه قلبه، فيحتمل مسؤلية حرية اعتقاده:

﴿قد جاءكُم بصائرُ من ربكُم فمن أبصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومن عَمِيَ فعَليهَا، وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [الإنعام: ١٠٤].

أحياناً تلتبس الغيرة عند المؤمن بالتعصب: الإسلام يبارك الغيرة على الدين والغضب لإنتهاك حرماته. ويلزم المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والقـدوة الصالحة. ﴿ادعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعِظَةِ. الحسنةِ وجادِلْهم بالتي هي أحسنُ، إن ربَّكَ هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿فذكّر إنما أنت مُذكِرّ * لستُ عليهم بمُصيطرٍ﴾ [الغاشية: ٢١: ٢٢].

﴿وكَذَّب به قومُك، وهو الحق، قل لست عليكُم بوكيلٍ﴾. [الإنعام: ٦٦].

يعتبر العلاّمة الفرنسي «جوستاف لوبون» بأن الإسلام يكفيه فخراً بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض، وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض...

وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض... «وساعد وضوح الأسلام وما أمر به من العدل والإحسان على إنتشاره في العالم، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام.. كما نفسر به السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أو مغلوبة»[1].

إن الإنسان في عزّه إيمانه بخالقة وحده، يرفض الذل والضيم والبغي والهوان، ويخشع في الوقت نفسه لخالقة، خشوعاً يكبح جماح غروره ويذكره دائماً بأن «الله أكبر».

---

(١) جوستان لويون: «حضارة العرب» ترجمة عادل زعيتر؛ دار المعارف بالقاهرة، ص ١٥٨٠

﴿وعبادُ الرَّحمنِ الذين يمشُونَ على الأرضِ هَوناً وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهلُونَ قالُوا سلاماً * والذين يَبِيتُونَ لربِّهم سُجَّداً وقياماً * والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذابَ جهنمَ إن عذابهَا كان غُراماً * إنها ساءت مُستقرّاً ومُقاما * والـذين إذا أنفقُوا لم يُسرفوا ولـم يقتُروا وكان بين ذلك قَوَاما * والذين لا يدعون مع الله إلهـاً آخرَ ولا يقتُلُونَ النفسَ التي حرّمَ الله إلا بالحقِ ولا يـزنُونَ * ومن يفعل ذلك يلق إثَاماً * يُضاعف له العذابُ يومَ القيامة ويخلُدُ فيه مُهَانا إلا من تابَ وآمن وعمِلَ عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتِهم حسنات وكان الله غفوراً رحِيماً * ومن تابَ وعمل صالحاً فإنه يتوبُ إلى الله متَاباً * والذين لا يَشهَدُون الزُّور وإذا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كِراماً * والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربّهم لم يَخرّوا عليها صُمّاً وعُميانا * والذين يقُولونَ ربّنا هَب لنا من أزواجِنا وذُرياتِنا قُرَّة أعيُنٍ، وإجعلنا للمتقين إماماً﴾ [الفرقان ٦٣ : ٧٤].

٢ ـ الإسلام والعمل الصالح

كما يأتي النهي عن الشرك، معطوفاً على الأمر بالعمل الصالح:

﴿فمن كان يرجو لِقاء رَبّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرِك بعبادة ربّه أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿إن الله يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتآىء ذي القُربى وينهي عن الفحشاءِ والمُنكرِ، يَعِظُكُم لعلَّكُم تذكَّرونَ﴾ [النحل: ٨٩].

الإسلام والأسرة والتبادل الإجتماعي:

﴿لا تجعل مع الله إلهـاً آخر فتقعُد مذموماً مخذولاً، وقضى ربُّـك ألا تعبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالوالدينِ إحساناً، إمّا يبلُغنَّ عندك الكِبَرَ أحدُهُما أو كلاهُمَا فلا تَقُل لهما أُف ولا تنهرهُمَا وقل لّهما قولاً كريماً * واخفِض لهُما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمةِ وقل رَبِّ أرحمُهما كما ربياني صغيراً * ربُّكُم أعلم بما في نُفُوسِكُم، إن تكونوا صالحينَ فإنه كان للأوّابينَ غفُوراً * وَءآتِ ذا القُربى حَقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السبيلِ، ولا تُبذِّر تبذيراً* إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربّه كَفُورا﴾ [الإسراء: ٢١ ـ ٢٦].

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إنّ قَتلهُم كان خطئاً كبيراً * ولا تَقرَبُوا الزنى إنّهُ كان فاحشةً وساَءَ سبيلاً * ولا تَقْتُلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِ، ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لِوليِّه سُلطاناً فلا يُسرفُ في القتل إنه كان منصُوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلُغَ أشُدَّهُ وأوفُوا بالعهدِ إن العهَدَ كان مسؤُلاً * وَأوفُوا الكيْلَ إذا كِلْتم وزِنُوا بالقِسطاسِ المستقِيمِ ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً * ولا تقفُ ما ليس لك بِهِ عِلم، إنّ السمعَ والبصرَ والفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كان عنه مَسؤُلا * ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلَغَ الجبالَ طُولاً * كُلُّ ذلك كان سَيئُهُ عند ربكَ مكروهاً * ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمةِ، ولا تجعل مع الله إلهاً آخرَ فتلقى في جهنم مِلُوماً مد حوراً﴾ [الإسراء: ٣٠ ـ ٣٨].

الإسلام والقيم الأخلاقية:

في (كتاب الإيمان) من صحيحي البخاري ومسلم، قال نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام:

«بعُثتُ لاتمم مكارم الأخلاق».

لا يزنى الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يغل أحدكم ـ يخون حين يفل وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعدُ).

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يأمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت».

إن الشخصية الإسلامية تتميز بسمات بشرية تفترق بها عند الملائكة الأطهار والشيطاين الأشرار.

﴿وإذا قال ربُّك للملائِكَةِ إني جَاعِلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعَلُ فيها من يُفسد فيها ويسفِكُ الدماءَ ونحنُ نُسبّحُ بحمدِكَ ونُقدّسُ لك، قال إني اعلَمُ ما لا تعلَمونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكانت فتنه إبليس أن ظن قبل طرده من الملكوت، أنه خير من هذا

الآدمي، فاستكبر أن يسجد له، بأمر ربّه وباء باللعنة الأبدية:

﴿ولقد خلقناكُم ثم صورناكُم ثم قُلنا للملائكةِ إسجدوا لآدم فسجدُوا إلا إبليسَ لم يكن من الساجِدينَ * قال ما مَنَعَك ألَّا تَسجُدَ إذ آمرتُكَ قَالَ أنا خَيرٌ منه خَلَقتني من نار وخلقته من طين * قال فَاهبِط مِنها فَما يكوُنُ لَك أن تَتَكَبَّـر فيها فَاخرُج إنَّك من الصاغِرِينَ﴾ [الأعراف ١١: ١٣].

صعوبة الإيمان بالدين:

إن الطبيعة البشـرية، ما جُبلت عليه من استعـداد للخير والشـر، للطاعة والمعصية، للهدي والضلال، فقد حملت أمانة التكليف الصعبة التي اشفقت منها السموات والأرض والجبال، وحملها هذا الأنسان، فظلم نفسه بالعبء الثقيل، عن جهلٍ بفداحة مسؤلية الإختيار وعُسر الحساب:

﴿إنَّا عرضنَا الأمانَةَ على السموات والأرض والجبـالِ فأبين أن يحمِلنَهـا وأشفقن منها وحَمَلَهَا الإنسانُ إنهُ كان ظَلُوماً جهـولاً * لِيُعذِّب اللهُ المنـافِقينَ، والمُنافِقَاتِ والمشركينَ والمشرِكاتِ ويتُوبَ الله على المؤمنينَ والمؤمناتِ، وكان اللهُ غفوراً رحيماً﴾ [الإحزاب: ٧٢، ٧٣].

موقف الدين من الغرائز.

ولقَد عَهِدنا إلى آدَمَ من قَبلُ فَنَسِيَ ولم نَجِد لَهُ عَزماً * وإذ قُلنا للملائِكة اسجُدُوا لادمفَسَجدوا إلا إبليسَ أبِيَ * فقُلنا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌ لكَ ولزوجك فلا يُخرِجَنَّكُما من الجنَّةِ فتَشقَى * إنَّ لكَ ألا تُجوع فيها ولا تَعرَى * وأنَّكَ لا تظمئـوا فيها ولا تضحَي * فَوسَوَسَ إليه الشيطانُ قَالَ يا آدمُ هل أدُلُّكَ على شجرَةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلَى * فأكَلاَ منها فَبَدَت لَهُمَا سَوءَتُهُما وطفِقـا يَخصِفَانِ عَلَيهِمَا مِن وَرَقَ الجنَّـةِ * وعصى آدمُ ربَّـهُ فَغَـوَى * ثم اجتبـاهُ ربُّـه فَتَـابَ عليـه وهَـدَى﴾ [طـه ١١٥: ١٢٢].

الدين وعقدة الذنب وتأنيب الضـمير:

﴿واتلُ عليهِم نَبَاء ابني آدم بالحقِ إذ قرَّبا قُربانا فتُقُبِّلَ من أحدِهِمَا ولم يُتقبل

من الآخر، قال لأقتُلَنَّكَ قال إنّما يَتَقَبَّلُ الله من المُتَقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إليَّ يَدَكَ لتقتُلَني ما أنا بباسط يدي إليكَ لا قتُلَكَ إني أَخَافُ اللهَ ربَّ العالمينَ * إني أُريدُ أن تَبوأَ بإِثِمِي وإثِمِكَ فتكُونَ من أصحابِ النارَ أو ذلكَ جزاءُ الظالمين * فطَوَّعَت له نفسُهُ قتل أخيهِ فَقَتَلَهُ فأصبَح من الخاسرينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبحثُ في الأرضِ لِيُريَهُ كيف يُوارى سوءَةَ أخيه، قال يا ويلتي أعجزتُ أن أكونَ مثل هذا الغُرابِ فأُواري سوءَة أخي، فأصبَح من النادمينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

﴿إنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنَّما أحيا الناسِ جميعاً﴾. [المائدة: ٣٢].

موقف الإسلام من الكفار: ولا تقبل من كافرٍ فدية ولو كانت ملءُ الأرض ذهباً:

﴿إن الذينَ كفروا وماتوا وهم كُفار فلن يُقبـل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو أفتدى به﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿إن الذين كفروا لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومِثلَهُ مَعَهُ لِيَفتَدُوا به من عَذَابِ يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عَذَابٌ أليم﴾ [المائدة: ٣٦].

الإسلام والخطاء غير المتعمد:

﴿وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتُم به، ولكن ما تعمدت قُلُوبُكُم﴾ [الإحزاب: ٥].

﴿لا يؤاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللغوِ في أيْمانِكُمْ ولكن يؤاخِذُكُمْ بما عَقّدتُّم الإيمان﴾ [المائدة: ٨٩].

الندم والتوبة في الإسلام:

الندم والتوبة، كلاهما من أفعال القلوب، فليس النادم بحاجة إلى أن يعترف بذنبه لمخلوق مثله، لعله أحوج منه إلى عفوٍ ومغفرة، بل تصح التوبة بتحقق أركانها الثلاثة:

أن يقلع عن المعصية، ويندم على فعلها، ويعزم على ألا يعدو إليها وذلك

كله معقود على صدق النية، والله سبحانه أعلم بمضمر النوايا وخفايا القلوب وما تكن الصدور، وهو وحده الذي يقبل التوبة من عبادة ويعفو عن السيئات.

﴿إنّما التوبَةُ على اللهِ للذينَ يَعملُونَ السُّوَءَ بِجَهالَةٍ ثم يتوبُونَ من قريب﴾، ﴿وليست التوبةُ للذينَ يعملُونَ السيئاتِ حتى إذا حضر أحَدهُمْ الموت قالَ إني تُبْتُ الآن، ولا الذينَ يمُوتُونَ وهم كُفَّار﴾. [النساء: ١٦، ١٧].

﴿ومن يعمل سُوْءاً أو يَظلِم نَفَسهُ ثُمَّ يستغفِرِ الله يجَدِ اللَّهَ غَفُوراً رحيماً﴾. [النساء: ١١٠].

والذين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَموا أنْفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فاستغفَروا لِذُنُوبِهِم وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا اللهُ ولم يُصرُّوا على ما فَعَلُوا وهُم يعلمْونَ * أُولئِكَ جزاؤهُم مغفُرةٌ من ربِّهِم﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

٣ ـ الإنسان بين المادة والروح:

يعتقد البعض أن الإسلام يريد للمؤمن أن يقهر الطبيعة البشرية فيه، وأن يروض نفسه على التجرد الروحي والزهد فيما تتعلق به فطرة الإنسان من متع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق.

إن الإسلام لا يعترف بعزل الدين عن الحياة، وإبطاله لنظام الرهينة، وإذا كان في رهبان المسيحية من تحملوها مجاهدة وإيماناً ونذروا أنفسهم لخدمة الله فإنها آلت إلى أنماط وطقوس كلّفت من ابتدعوها سلوكاً حرجاً مُرهقاً، فما رعوها حقَّ رعايتها، وضل منهم كثير كانوا فتنة للناس:

﴿وقَفَّينا بعيسى ابنِ مريَمَ وآتيناهُ الإنجيلَ وجعلنا في قُلُوبِ الذين أتَّبَعُوهُ رأفةً ورحمةً وَرَهبانيةً ابتَدَعُوهَا ما كتبناها عَلَيهم إلا ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ فما رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِها فآتينا الذين آمنوا مِنهُم أجرَهُم وَ كثيرٌ منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٧].

ويُثني الإسلام على المتقين من رهبان المسيحية أطيب الثناء لكيلا نأخذهم بضلال الفاسقين:

﴿لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للذين آمنوا اليَهُودَ والذين أشركوا، ولَتجِدَنَّ أقرَبَهم مودَةً للذين آمنوا قالوا إنَّا نصارى، ذلك بأنَّ منهم قَسيسينَ ورُهباناً وأنَّهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسولِ ترى أعيُنَهم تَفيضُ من الدمع مِمَا عَرَفُوا من الحَقِ، يقُولُونَ رَبَّنا آمنَّا فاكتُبْنا مَعَ الشاهِدِينَ * وما لنا لا نُؤمِنُ بالله وما جاءَنا من الحقِّ ونطمعُ أن يُدخِلَنا ربُّنا مع القَوْمِ الصالحينَ﴾. [المائدة: ٨٢ ـ ٣٣].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكُلُونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ ويَصُدُّون عن سبَيلِ اللهِ، والذين يكنِزُونَ الذهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَهَا في سَبيلِ اللهِ فَبشِّرهُم بعذابٍ أليمٍ﴾ [التوبة: ٣٢ : ٣٣].

إن الإسلام أبطل هذه الرهبانية والتفت إلى الحاجات البشرية، فلم يرضى على الرسول وأمته الزهد في زينة الدنيا الحلال، بل أمره أن يبتغي فيما أتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا:

﴿وَابتَغِ فيمَا أتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ، ولا تَنسَ نَصيبَكَ من الدنيَا، وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ﴾ [القصص: ٧٧].

إن القرآن ينبه الإنسان إلى أن متاع الدنيا عرض زائل، كبحاً لغرور نابهاً، وتوجيهاً إلى ما هو خير وأبقى من زاد الإيمان والتقوى والعمل الصالح:

﴿كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ الموتِ، وإنَّما تُوفَّونَ أُجُورَكُم يوم القيامةِ، فمن زُحزِحَ عن النارَ وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد فَازَ، وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغُرورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

اعلَمُوا إنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولهوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بينكُم وتَكَاثُر في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أَعجَبَ الكُفارَ نَباتُهُ ثُم يَهيجُ فتراه مُصْفَراً ثم يكُونُ حُطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شَديدٌ ومغفرَةٌ من اللهِ ورضوانٌ، وما الحياة الدنيا الإمتاعُ الغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

تحليل الطيبات وتحريم الخبائث:

(يا أيها الناس كُلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُوات الشّيطانِ،

إنه لَكُم عَدُوٌ مُبين، إنما يأمُرُكُم، بالسُّوءِ و الفحشَاءِ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبُدُونَ * إنما حَرَّمَ عليكُمُ الميتَةَ والدَّمَ ولَحمَ الخِنزيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله، وَمَا أُهِلَّ به لغيرِ الله، فمن اضطُرَّ غَير باغٍ ولا عادٍ فلا إثْمَ عليه، إن الله غفورٌ رحيمٌ * إن الذين يكتُمُونَ ما أَنزَلَ اللهُ من الكتابِ وَيَشتُرون به ثَمناً قليلاً أُولئِكَ ما يأكُلُونَ في بطونِهم إلا النَّارَ﴾ [البقرة ١٧٢ : ١٧٦].

وفي أواخر عصر المبعث، نزلت بعرفات في حجة الوداع آية البشرى بأعمال الدين وتمام النعمة، فكان من اللافت أن نصت الآية على المحرمات من الخبائث بهذا التفصيل :

﴿حُرِّمت عَليكُمُ الميتَةُ والدَّمُ ولَحمُ الخنزيرِ، وما أُهِلَّ لغير الله به، والمُخنقة والموقُوذَةُ والمُترديةُ والنطيحةُ وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكيْتُم وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وأن تَسْتَقسِمُوا بالأزلام، ذلكُم فِسقٌ، اليوم يَئِس الذين كفروا من دِينِكُم، فلا تخشَوهُم واخشَونِ، اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لكم الإسلام دينا، فَمَن اضطُرَّ في مخمَصَةٍ غَيرَ مُتجانِفٍ، لإثمٍ فإن الله غفورٌ رحيم﴾ [المائدة: ٣].

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والإنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنِبُوهُ لَعلَّكُم تُفلِحُونَ * إنما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينَكُمُ العداوَةَ والبغضَاءَ في الخمرِ والميسِرِ ويَصُدَّكُم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصلاةِ فهل أنتم منتَهوْنَ * وأَطيعُوا الله وأَطِيعُوا الرسُولَ واحذَرُوا فإن توَلَّيتُم فَاعلَمُوا أَنَّما على رَسُولِنا البلاَغُ المُبينُ﴾ [المائدة: ٩٠ـ٩٢].

الإسلام والعناية بالمظهر الخارجي :

يعتقد البعض أن العناية بالمظهر لباساً وزينة، يجافي شخصية المسلم، ولكن بالعودة إلى الكتاب والسنة نلاحظ أن ما يجافي الشخصية هو الترف والسرف

والتبـرج والخيلاء، فإذا أتقاها المؤمن، فلا حرج عليـه في أن يعنى بمظهـره ويأخذ زينته تجملاً وتهذيباً، لا عن شهرة وخيلاء، بل أن هذه الزينة معروفة عند الخروج إلى المسجد، ونستأنس بهذه الآية في فهم حديث يسار بن عطاء، قال:

«كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده، وأن يخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ؛ اليس هذا خيراً من أن يأتي أحدُكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟.

وفي الأحاديث أنهى عن الشرب والأكل من آنية من ذهب أو فضة، وسائر مظاهر الترف والسرف والخيلاء، عن أم المؤمنين «أم سلمى» قالت: قال رسول الله ﷺ:

(من شرب في إناء من ذهب أو فضة، فإنما يجرجر في بطنه ناراً في جهنم).

وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: «يعتمد أحدُكم إلى جمرةٍ من نار فيجعلها في يده». على أن لبس الحرير أبيح للرجال لضرورة صحيّة كحَكّةٍ في الجلد يؤذيها خشن الثياب، وتخضع هذه الإباحة لمبدأ: الضرورات تبيح المحظورات.

﴿فمن اضُطرً غير باغٍ ولا عادٍ فلا أثم عليه﴾.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«البس ما شئت، ما اخطاءك شرفٌ ومخيلة».

«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

«لا يدخل الجنة من في قلبه ذرّة من كبر».

الإسلام والمال والبنون:

إن الإسلام لم يقلل من قيمة المال ونفعة ولكن المؤمن لا يُغرى بالمال ولا يلقى إليه بالاً.. إن المال كما قال القرآن من زينة الحياة الدنيا، والله يمـن على عبادة بما رزقهم من مالٍ وبنين، ولكن الإسلام يحذر الإنسان من فتنة المال، كيلا

يضل ويشقى، من فتنة المال إنه مدعاة إلى بخل وترف وتكاثر، وذريعة غرور وفجور ومعصية وكفر.

وقد حذر المرسلون منذ القديم من لعنته، وحاولوا تحرير البشرية من اغلال الوثنية المادية، فمن عصر ما قبل الطوفان:

﴿قال نُوحَ رَبِّ إنَّهم عَصَوني واتبعُوا مَن لم يزِدْهُ ما لُهُ وَولَدُه إلا خَسَاراً﴾ [نوح: ٢١].

واستهزأ قومُ مدين برسول الله إليهم:

﴿قالوا يا شَعيبُ أَصَلاتكَ تَأمُرُكَ. أن نتُركَ ما يعبُدُ آباؤُنا. أو أن تَفعَل في أموالِنا ما نشاءُ، إنكَ لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾ [هود: ٨٧].

﴿وما أرسلنا في قرية من نذيرٍ إلا قال مُترَفوُهَا، إنَّا بما أُرسِلتُم به كافرُونَ * وقالوا نحنُ أكثرَ أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعذَّبينَ﴾ سباء: ٣٤ ـ ٣٥].

موقف الإسلام من المال هو أن تفرق فيه بين الحلال والحرام.

والأصل في العقيدة الإسلامية، أن المال ـ مال الله ـ هدفه أن يحقق وظيفته الإجتماعية التي وجّه إليها الإسلام، في الخير والنفع العام.

﴿آمنوا بالله ورسُولِهِ وأنفقُوا مِمَّا جَعَلكُم مُستخلفينَ، فالذين آمنوا مِنكُم وأنفقُوا لهم أجرٌ كبير﴾. [الحديد: ٧].

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهِكُم أموالُكُم ولا أولادُكُم عن ذِكرِ الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسِرونَ﴾. [المنافقون: ٩].

ويحث الإسلام على نفق المال فيما أحلّ الله لنا من طيبات الرزق، وفيما فُرِض علينا من تكافل وتراحم، والاستثمار في وجوه المنفعة العامة، والبذل في سبيل الله للحق والخير، من غير منٍّ ولا أذى، فيضاعفه الله ويبارك لنا فيه:

﴿ومثلُ الذين ينُفقُون أموالَهُم في سبيلِ اللهِ كَمَثلِ حَبَّةٍ أنبَتَت سَبعَ سَنَابِل

في كُلِ سُنْبلَةَ مائَـةَ حبةٍ، اللهِ يُضـاعفُ لمن يشاء، واللهِ واسـعٌ عليم * الذين يُنفقُونَ أموالَهُم في سبيل اللهِ ثم لا يُتبِعُونَ ما أَنفقُوا مَنّاً ولا أذى لهم أجرُهُم عندَ رَبِهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

واحلَّ الله البيع والتجارة، وحرّم الربا وأكل أموال الناس بالباطل والإدلاء إلى الحكام بالإثم تزلفاً وتواطئاً وأكل أموال اليتامى ظلماً وبغياً:

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومونَ إلا كما يقُومُ الـذي يتخبَّطُهُ الشيـطانُ من المِسِّ، ذلك بأنـهم قالُوا إنما البيعُ مثلُ الرِبا، وأَحَلَّ الله البيعَ وحرّم الربا، فمن جاءَه موعِظةٌ من رَبِّه فانتهى فَلَه ما سلَفَ وَأَمْرُهُ إلى اللهِ، ومن عَادَ فَأُولئِكَ أَصحابُ النارِ هُم فيها خَالدونَ * يمْحُق اللهُ الربا ويُربى الصدقاتِ، والله لا يُحِب كُلَّ كفَّارٍ أثيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكُم بالباطل وَتُدْلوا بها إلى الحكام، لِتأكُلُوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ١٨٨].

﴿إن الـذين يأكلون أمـوال اليتامى ظُلمـاً إنما يـأكُلُونَ في بُـطُونِهم نـاراً وسيَصْلَونَ سعيراً﴾ [النساء: ١٠].

ويحذر الإسلام من جمع المال وعدم إنفاقه في سبيل الخير العام، كالذي يكثره ويكدسه ويحبسه عن الإنفاق في الخير والإستثمار في المنفعة العامة، لإنه بذلك يرتهن إلى وثنية عبودية المال:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقُونَهَا في سبيل الله فَبشّرِهُم بعذابٍ أَليم * يوم يُحمَى عليها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهم وظهوُرُهُم هذا ما كنزتُم لانُفسِكُم فِذُوقُوا ما كُنتُم تكنـزوه﴾. [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

على أن الأسلام لم يترك مسألة المال للأفراد يتصرف فيه كل منهم على قدر ما تطوع به نفسه ويُـرضي إيمانـه، بل فـرض الزكـاة قاعـدة من قواعـد الإسلام الخمس، وأوجب الجهاد بالمال والنفس، تكليفاً شرعياً. وضُبطت حدودُ الله في الفيء والصدقات، ومصارف بيت المال العام. وفي النفقة والصداقة والمواريث

والهبَة والوصية. والدَّين، لكيلا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم).

موقف الإسلام من الهدية: .

الهدية التي أباح الإسلام قبولها، تلك التي تؤدي إلى التواصل والمودة، وحرَّمها على الحكام إذا التبست بالرشوة، أو التواطؤ، يُدلي بها بعض الناس إلى الحكام، ليغضوا أبصارهم عما يُستباح من حرمات وما يؤكل من أموال الناس بالباطل:

(ولا تأكلوا أموالكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون).

موقف الإسلام من العبادة والعمل.

إن الإسلام لا يريد للمسلم العزلة وأن يستغرق في خلوة التعبد. من شعائر العبادات في الإسلام ما لا يؤدي الإجماعة: كصلاة الجمعة وصلاة العيدين، وفريضة الحج، والجهاد بمختلف انواعه.

إن الإسلام يحث على السعي والعمل وأن لا يمضي معظم وقته ليلاً في التعبد والتجهد والتلاوة، ويقدّر أن بين الناس من هم مرض، وساعين إلى الرزق ومجاهدين في سبيل الله:

﴿فـأقرءوا مـا تيَسَّرَ من القـرآنِ، عَلِمَ أَن سيكُونُ مِنكُم مـرضَ وآخرون يَضرِبونَ في الأرضِ يَبتَغُونَ من فَضلِ الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ وأقرضَوُا قرضاً حسناً، وما تُقدموا لإنفُسِكُم من خَيرٍ تَجدُوهُ عِنْدَ اللهِ هو خيراً وأعظَمَ أجراً، واستغْفِرُوا الله إن الله غَفُورٌ رحيم﴾. [المزمل: ٢٠].

إن مفهوم الجهاد في الإسلام لا يعني فقط الذهاب إلى المعركة، إن الجهاد يتسع مفهومه ليشمل الجهاد في سبيل الحق والعدل والخير، أن الذي يحسن معاملة والدية ويسعى لمساعدة الأرامل والمساكين واليتامى كالمجاهد في سبيل الله.

﴿ولتكن منكم أُمةٌ يدعُونَ إلى الخيرِ ويـأمُرُونَ بـالمعروفِ وينَهـونَ عن المُنكرِ، وأُولئِكَ هُمُ المُفلحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن الإسلام يحرّم السكوت على منكر، لإن الساكت عن حقٍ شيطان أخرس.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامِينَ بالقِسطِ شُهداءَ لله ولو على أنفُسِكُم أو الوالدينِ والأقربِينَ. . ﴾ [النساء: ١٣٥].

الإسلام بين العقل والدين:

إن الإسلام يعتبر أنه من الخطاء وضع الدين مقابل العقل والإيمان مقام العلم وكأنهما نقيضان، إذ هما عنصران جوهريان في الإنسان، يتلازمان ولا يتناقضان:

إن العقل، إذا عطّل بالجهل والغُفلة والعمي، مُسخت بشرية الآدمي فهبط إلى دونية الدواب:

إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، إن الحواس كأدوات للإدراك، لا ينظر إليها الإسلام، من حيث هي اجهزة حسية فقط، بل هي وسائل للوعي والتمييز والتبصر، إن الخلل العضوي الذي يعطل الوظيفة العضوية، . لا يطمس الطبيعة الإنسانية للإنسان، حتى لو أن الإنسان كان قد وُلد أعمي أو أخرس وأصم.

فالعمى عمي البصيرة، والبكم سكوت على منكر وكتمان لكلمة الخير، والصم صدٌّ عن دعاء الحق والهدي:

﴿لهم قلوبٌ لا يفقهـوُن بها ولهم أعينٌ لا يُبصـرُون بها ولهم آذان لا يسمعُونَ بها أولئِك كالإنعامِ بل هُم أَضَـلُّ، أُولئك هُمُ الغـافلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن المـرض العُضال والـداء الخبيث في الإسـلام ليس العلّة في أعضـاء الجسم، بل هو فساد القلب بالكفر والنفاق والزيف والشهوة والقسوة والضغينة:

﴿ومن الناسِ من يقوُلُ آمنا باللهِ واليومِ الآخرِ وما هم بمؤمنينَ * يُخادِعُونَ اللّهَ والذين آمنُوا وما يَخدعُونَ إلا انفُسَهُم وما يشعرُونَ * في قُلوبِهم مرضٌ فزادَهُم

اللّهُ مرضاً ولَهُم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون﴾ [البقرة ٨ ـ ١٠].

إن الموت في نظرة الإسلام ليس فقط الموت الطبيعي الذي هو تعطل الحياة في الجسم، لكن أيضاً الأحياء، موتى القلوب والضمائر، وهذا هو الموت الملعون.

إن الذي يحمى الإنسان من هذا الداء العضال، إنما هو العقل، لإن العقل مناط الوعي والرشد والبصر والتميز والإدراك. إن الإيمان يرتبط بالعقل في العقيدة الإسلامية إرتباطاً وثيقاً، إن الإسلام يتجه إلى العقل في تأييد الدين وترسيخ الأيمان.

﴿وتلك الأمثالُ نضرِبُهَا للناسِ وما يَعقِلُها إلا العالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

إن في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ التي تجري في البحرِ بما يَنفَعُ الناسَ وما أَنزَلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبَثَّ فيها من كلّ دابَّةٍ وتصريفِ الرياح والسَّحابِ المُسَخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقومٍ يعقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿اللهُ الذي رَفَعَ السمواتِ بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهاَ ثُمَّ استوى على العرش وسَخَّر الشمس والقمرَ كُل يجري لأجل مُسمى، وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وانهاراً، ومن كلِّ الثمرات جَعَلَ فيها زوجين اثنين يُغشِى الليلَ والنهارَ، إن في ذلك لآيات لِقومٍ يَتَفكَّرونَ * وفي الأرض قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوان وغيرُ صنوان يُسقى بماءٍ واحد ونُفضِّل بعضَهَا على بعضٍ في الأكُلِ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقِلُونَ﴾ [الرعد ٢ : ٤].

يُخرجُ الحيَّ من الميتِ ويخُرجُ الميتَ من الحيِّ، ويُحيِى الأرضَ بعد موتها، وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خَلَقَكُم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشِرُونَ * ومن آياتِه أن خَلَقَ لكُم من انُفسكُم أزواجاً لتسكُنُوا إليها وجعل بينكُم مودلاً ورحمةً، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون * ومن آياته خلق السمواتِ

والأرضِ واختلافُ ألسِنَتِكُم وألوانِكُم، إن في ذلك لأيات للعالمينَ * ومن آياته مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتِغاؤكُمُ من فَضلِه، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعُونَ * ومن آياتهِ يُرِيكُم البرقَ خوفاً وطمعاً وَيُنزِّل من السماءِ ماءً فيُحي به الأرضَ بعد موتِها، إن في ذلك لأياتٍ لقومٍ يعقلُونَ﴾ [الروم: ١٩ - ٢٥].

موقف الإسلام من الأجل والروح.

سئل نبي الله عليه الصلاة والسلام عن الساعة، وأنى له أن يعلم غيبها وقد استأثر الله بعلمها:

﴿يسألُونَكَ عن الساعةِ أيّانَ مُرسَاهَا * فِيمَ أنتَ مِن ذِكراهاَ * إلى ربّك مُنتهاها * إنما أنتَ مُنذِرٌ من يَخشَاهَا * كأنهم يومَ يَرونَهَا لم يَلبَثُوا إلا عَشِيةً أو ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

وسأله احبار يهود عن الروح ما هي، فما أجاب بأكثر مما تلقى من كلمات ربه:

﴿ويسألُونَكَ عنِ الروح، قُلِ الرُّوحُ من أمرِ رَبي وما أُوتِيتُم من العِلمِ إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

موقف الإسلام من العلم.

إن الإسلام يشجع العلم على كشف أسرار الكون ومجاهله، فالإسلام يبارك أن تحقق آية الله فيما سخر لنا: ما في السموات وما في الأرض جميعاً.

كتب جوستاف لوبون يقول: «والإسلام من أكثر الديانات ملازمة لاكتشاف العلم ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح.

فالعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد ومدرسة فيها إذا كانت المدينة كبيرة، كانوا يأسسون فيها الجامعات والمكتبات والمختبرات والمراصد وكل ما يساعد على البحث العلمي، فكان للعرب في أسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة،

ستمائة الف كتاب، لها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس.

موقف الإسلام من العلم، يكفي وحده لتصحيح الفكرة الجامدة عن جمود الشخصية الإسلامية ومعاندتها للتجديد والتطور، والإنسان يحمل تبعته في تغيير الأوضاع الفاسدة:

(إن الله لا يُغيّر ما يقوم حتى يُغير واما بأنفُسهم) إن الخطاء يحدث، حين يتصور البعض أن التجديد والتحديث يعني هدم القديم كله، وأن التطور يمكن أن يبدأ من فراغ، مع الجهل بتجارب الماضي، وقد تطورت العقائد والعبارات مع تطور البشرية فتتابعت الرسالات الدينية والأصل واحد، كل رسالة منها تقدم إلى البشرية ما تحتاج إليه في مرحلة من مراحل نموها المطرد وقد ختمت رسالات الدين الواحد، بالأسلام الذي جاء مصدقاً لها، إنه الرسالة الخاتمة للإديان، الصالحة لهداية الحياة على امتداد الزمان والمكان:

﴿وقد فصَّلَ لكُم ما حَرَّمَ عَليكُم إلا ما اضطُررتُم إليه، وإن كثيراً لَّيُضِلُّونَ بأَهوائِهِم بغير عِلم، إن رَبَّكَ هو أعلمُ بالمُعتَدينَ﴾. [الإنعام: ١١٩].

٥ ـ موقف الإسلام من التمرد والعصيان على الرسل والأنبياء.

على طول التاريخ للبشرية، كانت الرجعية تشد الأجيال إلى ما وجدت عليه الآباء من قديم.

ومن قديم الزمان، من عصر ما بعد الطوفان، صكتّ سمع الدنيا كلمة عاد لنبيهم «هود» إذ دعاهم إلى عبادة الله وحده:

﴿قال الملأُ الذين كفرُوا من قَومِه إنَّا لَنَراكَ في سَفَاهةٍ وإنَّا لنَظُنُّكَ من الكاذبينَ * قالَ يا قوم ليس بي من سَفَاهَةٌ ولكن رسُولٌ من ربِ العالمينَ * أوَ عَجِبتُم أن جاءَكُم ذِكرٌ من رَبِكُم على رَجُلٍ مِنكُم ينذركم، وإذكُرُوا إذ جَعَلكُم خُلَفَاءَ من بعد قوم نُوحٍ وزادَكُم في الخَلقِ بسطةً فاذكروالآلاءَ الله لعلَّكُم تُفلِحُونَ * قالُوا أَجئتَنَا لِنَعبُدَ اللهَ وحدهُ ونَذَرَ ما كان يعبُدُ آباؤُنَا فأتِنا بما تعِدنا إن كُنتَ مِن الصادقينَ﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٧٠].

كذلك نرى قول ثمود لنبيهم «صالح» إذ دعاهم إلى عبادة الله وحده:

﴿قالوا يا صالحُ قد كُنتَ فينا مرجُوا قَبل هذا أَتَنهانا أن نَعبدُ ما يَعبُدُ آباؤُنَا وإنَّنا لفي شكٍ مما تدعو لنا إليه مُريبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وسمعها إبراهيم:

﴿إذ قال لأبيه وقومِهِ ما هذه التماثيلُ التي أنتم بها عاكفونَ * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كُنتُم أنت وآباؤُكُم في ضلالٍ مبين * قالُوا أجِئتنا بالحقِ أم أنتَ من اللاعبين﴾ (الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٥].

وإلى مدين أرسل «شعيب» فردوة سافرين مستهزئين:

﴿قالوا يا شعيب أصلاتُكَ تأمُرُكَ أن نتُركَ ما يَعبُدُ آباؤنا أو أن نفعَلَ في اموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليمُ الرشيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وسمعها «موسى» حين جاء بآيات ربه بيّنات:

﴿وقالوا ما هذا إلا سحرٌ مِفتَرى وما سمِعنَا بهذا في آبائِنا الأولينَ * وقال مُوسى ربي اعَلمُ بمن جَاء بالهُدَى من عِندِهِ وَمَن تكُونُ له عاقِبةُ الدارِ إنه لا يَفلِحُ الظالِمُونَ﴾ [القصص ٣٦ ـ ٣٧].

موقف الإسلام من الفرد والجماعة:

إن الإسلام الغى الحواجز غير الطبيعية، بين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان، وهو في عنايته بالإنسان فرداً، إنما ينظر فيه إلى إجتماعيته التي لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها، كما لا يُتصور كيان إجتمناعي بغير أفراد.

إن الإسلام ينظر إلى سلوك الفرد في الجماعة: تآلفاً وترابطاً ووحدة، وجهاداً في سبيل الحق ودعوة إلى الخير وتواصياً بالمعروف وتناهياً عن المنكر، وتعاوناً على البر والتقوى. لا على الإثم والعدوان.

﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرَّقُوا، واذكُرُوا نِعمتَ اللهِ عليكُم إذ كُنتُم أعداء فَألَّفَ بين قُلُوبِكُم فأصبحتُم بنعمتِهِ إخواناً، وكُنتم على شفا حُفرةٍ من النار، فأنقذكُم منها، كذلك يُبينُ اللهُ لكُم آياتِه لَعَلَّكُم تُهتَدُونَ * ولتَكُن مِنكُمُ أمةٌ

يـدعـونَ إلى الخيـرِ يـأمـرونَ بـالمعـروفِ وينَهـونَ عن المنكـرِ، وأولئـكَ هم المُفلِحُونَ * ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا من بعد ماجَاءَهُمُ البيِّنـاتُ، وأُولئِكَ لهم عَذَابٌ عظيم﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٤].

والإسلام في حرصه على وحدة الأمة، يشتد في لعنة النفاق وينفي أهله عن الجماعة وقاية لها من دائه الخبيث وسُمّة المدمر:

﴿ومَن النـاسِ من يقـولُ آمنَـا بـاللهِ وبـاليـومِ الآخـرِ ومـا هُم بمُؤمنينَ * يُخادعونَ اللَه والذينَ آمنُوا وما يخَدَعُونَ إلا أَنفُسَهُم وما يَشعُرُونَ * في قُلُوبِهِم مرضٌ فَزَادهُمُ اللهُ مَرَضاً ولهم عذابٌ أاليمٌ بما كانوا يكذِبُونَ * وإذا قِيلَ لَهُم لا تُفسِدُوا في الأرضِ قالوا إنما نحنُ مصلحون * إلا إنَّهم هم المُفسِدونَ ولكن لا يشعُرُونَ * وإذا قِيلَ لهم آمنُوا كما آمنَ النـاسُ قالـوا أنُؤمِنُ كما آمنَ السفهاءُ، ألا إنُهم هُمُ السَّفَهَاءُ ولكن لا يَعلَمُونَ * وإذا لَـقُوا الذين آمنوا قالُوا آمنَّا وإذا خَلَّوا إلى شياطينِهم قالوا إنَّا معكُم إنما نحنُ مُستهزِئونَ * اللهُ يستهزِيءُ بِهِم ويمدُهم في طُغيانِهم يَعْمَهـون * أُولئكَ الذين اشترُوا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارَتُهم وما كانوا مُهتَدينَ﴾. [البقرة: ٨: ١٦].

إن الإسلام يأمر الإنسان بالعدل والإحسان والبر وصلة الرحم وأداء الأمانات إلى أهلها والوفاء بالعهد والصدق والتواضع، وينهاه عن العقوق والجـور والبغي والفجور وقطع الأرحام.

﴿إن اللَه يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتَايءِ ذى القُربَى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي، ليعِظُكُم لعلَكُم تذَّكُرونَ * وأَوفُـوا بعهدِ اللهِ إذا عـاهدتم ولا تنقُضُـوا الإيمانَ بعـد توكيدهـا وقَـد جعلتُمُ اللَه عليكُم كفيلاً، إن الله يعلمُ مـا تفعلونَ﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩١].

﴿إن اللهَ يأمُرُكم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلِهَا وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحمكُمُوا بالعدلِ إن اللهَ نِعِماً يَعِظُكُم به، إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ [النساء: ٥٨].

﴿ولا تجعل مع اللهِ إلهاً آخرَ فتقعُدَ مذمُوماً مخذُولاً * وقضى ربُّك ألا تعبُدُوا إلا إياهُ وبالوالدينِ إحساناً، إمَّا يبلُغنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدُهُمَا أو كِلاهُما فلا تقُلْ لهُمَا أُفٍّ ولا تنهرْهُمَا وقُل لهما قولاً كريماً * واخفِض لهُما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمةِ وقُل ربِّ ارحمْهما كما ربَّياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٢].

﴿ولا تقربُوا الزِنى إنَّه كان فاحشةً وساء سبيلاً * ولا تقتُلُوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحقِ ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليِّهِ سُلطاناً فلا يُسرف في القتلِ إنه كان منصوراً * ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلُغَ أشُدَّهُ، وأوفُوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿إنه من قتلَ نفساً بغيرِ نَفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً، ومن أحْياها فكأنما أحيَا الناسَ جميعاً﴾ [المائدة: ٣١].

﴿ومن الناس من يُعجبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدُّنيا ويشهدُ اللَّهُ على ما في قلبِهِ وهو ألدُّ الخِصام * وإذا تولَّى سَعَى في الأرضِ لِيُفسدَ فيها ويُهلِكَ الحَرثَ والنسلَ، والله لا يُحبُّ الفَسَادَ * وإذا قيل له إتّقِ اللَّه أخذتهُ العِزَّةَ بالإثمِ فَحَسبُهُ جهنَّمُ، وَلَبِئسَ المِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿يا أيُّها الناسُ إنا خَلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجَعلناكُم شُعُوباً وقبائِلَ لِتَعارَفُوا، إن أكرَمكُم عِندَ اللهِ أتقاكم، إن اللهَ عليمٌ خبيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فأما الزَّبَـدُ فيذَهبُ جُفَاءً، وأمَّا ما ينفعُ الناسَ فَيَمكُثُ في الأرضِ، كذلك يضرب اللهُ الأمثال﴾ [الرعد: ١٦].

الفصل الثاني

الاسلام والدوافع للسلوك

الدوافع هي القوى المحركة التي تبعث النشاط في الكـائن الحي وتوجـه السلوك نحو هدف معين.

ويصنف علماء النفس المحدثون الدوافع إلى:

١ ـ **الدوافع الفسيولوجية**: وهي الدوافع التي تقوم بتوحية سلوك الفرد إلى الأهداف التي تشبع الحاجات الفسيولوجية.

ـ **الدوافع النفسية**: وهي الدوافـع التي تكتسب بـالتعليم أثنـاء التنشئـة الإجتماعية للفرد.

وقد أشار الإسلام إلى الدوافع الفسيولوجية الهامة:

أ ـ **دوافع حفظ الذات**: لقد أشار الإسلام إلى أهم الدوافع الفسيولوجية التي تقوم بحفظ الذات وبقاء الفرد مثل الجوع، والعـطش، والتعب، والحرارة والبرودة، والألم، والتنفس.

هدف الدوافع هو دفع الفرد إلى القيام بالنشاط اللازم لإعادة العضوية إلى حالة من التوازن.

﴿وخلق كُلّ شيءٍ فقدَّره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢].

﴿فقلنـا يا آدم إن هـذا عدوٌ لـكَ ولزوجكَم فـلا يُخـرِجَنَّكُمـا من الجنَّـةِ فَتَشقَى * إنَّ لَـكَ ألاّ تجـوعَ فيهـا ولا تَعـرَى * وأنَّـكَ لا تـظمـُوا فيهـا ولا تَضحى * فوسوسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدُلُّكَ على شجرةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يبلىَ﴾ [طه ١١٧ ـ ١٢٠].

ففي هذه الآيات إشارة إلى ثلاثة دوافع هامة من دوافع حفظ الذات وهي دوافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة، كما نشير أيضاً إلى دافع حب البقاء وحب التملك، وقد كان دافع حب البقاء ودافع التملك مدخل الشيطان إلى نفس آدم فوسوس له.

كذلك فقد أشار الإسلام إلى تأثير الخوف والجوع على حياة الإنسان.

﴿ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ، ونقصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبشّرِ الصابرينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ويشير الإسلام إلى أهمية إشباع دافع الجوع في حياة الإنسان.

﴿وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مُطمئِنةً يأتِيها رزقُها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنعُمِ اللهِ فأذاقها اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنَعُون﴾ [النحل: ١١٢].

ودافع التنفس من الدوافع الفسيولوجية الضروية للحياة وقد أشار الإسلام إلى أهمية التنفس في حياة الإنسان: فالإنسان يشعر بخوف شديد وإذا ما أحاط به خطر يهدده بالغرق، وقد أشار الإسلام إلى حالة الذعر التي تصيب الإنسان إذا كان في الفلك في عرض البحر وهبت عليه عاصفة شديدة، وأحاط به الموج من كل مكان، وشعر بخطر الموت غرقاً.

﴿هو الذي يُسَيِّرُكُم في البرِ والبحرِ حتى إذا كُنتُم في الفُلكِ وَجَرينَ بِهِم بريحٍ طيبةٍ وفَرِحُوا بها جَاءَتها ريحٌ عاصفٌ وجاءَهُمُ الموجُ من كُل مكانٍ وظنُوا أنَّهُم أُحيطَ بِهِم دعَوُا اللهَ مَخلصينَ له الدينَ لَئِن أنجيتَنَا من هذه لنكُونَنَّ من الشاكرينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ب ـ **دوافع بقاء النوع**: من الدوافع الفطرية الأساسية التي تدفع الإنسان إلى القيام بالسلوك الضروري لحفظ الذات وبقاء النوع هما الدافع الجنسي ودافع الأمومة.

الدافع الجنسي: الدافع الجنس يقوم بوظيفة هامة هي التناسل لبقاء النوع، وعن طريق الدافع الجنسي تتكون الأسرة، ومن الأسر تتكون المجتمعات والشعوب، فتعمر الأرض، وتتعارف الشعوب، وتزدهر الحضارة، وتتقدم العلوم والصناعات.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكُم شُعُوباً وقبائِلَ لتعارفُوا إن أكرمَكُم عند اللهِ اتقاكُم إن اللَّه عليمٌ خبير﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ومن آياتِه أن خلقَ لكُم من أنفُسِكُم أزواجاً لِتسكُنُوا إليها وجَعَلَ بينَكُم مودةً ورَحمةً إن في ذلك لإياتٍ لقومٍ يتفكرونَ﴾ [الروم: ٢١].

دافع الأمومة: من الدوافع الفطرية في طبيعة تكوين الأم للقيام برسالتها الهامة في الإنجاب لبقاء النوع. فهي تتحمل مشاق الحمل والولادة، وتقوم بإرضاع الطفل ورعايته حتى ينمو ويصبح قادراً على العناية بنفسه.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كُرهاً ووضعتهُ كُرهاً وحملُهُ وفِصالُهُ ثلاثونَ شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿ووصينا الإنسانَ بوالديه حَمَلتُه أُمُّهُ وَهناً على وهـنٍ وفِصالُهُ في عامينِ أن أشكرُ لي ولوالديكَ إلى المصيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

٢ - الدوافع النفسية: يعتبر معظم علماء النفس إلى أن الدوافع النفسية هي في الأغلب مكتسبة على أساس الدوافع الفسيولوجية، أي إنها ناتجة عن تفاعل الدوافع الفسيولوجية مع خبرات الفرد وعوامل التنشئة الإجتماعية، وقد ذهب بعض علماء النفس مثل اريك فروم، إلى القول بإن بعض الدوافع النفسية والتي يسميها فروم الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الإنتما، والحاجة إلى السمو، والحاجة إلى هوية، هي حاجات فطرية أساسية في طبيعة الإنسان، وهي ليست مكتسبة من المجتمع، أما ماسلو فيقول بنوعين من الدوافع، أو الحاجات: حاجات أساسية،

---

(١) فصاله: أي فطامه.

وحاجات روحية، الحاجات الأساسية تشمل الجوع والعطش، والجنس، والأمن، وغير ذلك من الدوافع • وتشمل الحاجات الروحية الحاجات المرتبطة بالناحية الروحية في الإنسان مثل العدل، والخير، والجمال، والنظام والإتحاد، ويرى ماسلو أن حاجات الإنسان الروحية حاجات فطرية يتوقف على اشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضوجه.

١ ـ **دافع التملك**: وقد أشار الإسلام إلى دافع التملك:

﴿وتحَبُّونَ المَالَ حُبّاً جَماً﴾ [الفجر: ٢٠].

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦].

٢ ـ **دافع العدوان**: فقد ذكر الإسلام إلى دافع العدوان أثناء ذكره لقصة آدم وحواءَ وإغواء الشيطان لهما لأخراجهما من الجنة﴾.

﴿قال اهبطا فيها جميعاً بعضُكُم لبعضٍ عدوٌ﴾ [طه: ١٢٣].

٣ ـ **دافع التنافس**:

لقد حث الإسلام الناس على التنافس في تقوى الله، وعمل الخير، والتمسك بالقيم الإنسانية العليا، واشباع المنهج الرباني في الحياة سواء في علاقتهم بالله سبحانه وتعالى أو في علاقاتهم الأسرية، أو في علاقاتهم مع المجتمع:

﴿إن الأبرارَ لَفي نعيمٍ * على الأرائِكَ يَنظُرُونَ * تعرِفُ في وُجُوْهِهِم نَضْرةَ النَعِيمِ * يِسقَونَ من رحيقٍ مختومٍ، خِتَامُهُ مِسكٌ وفي ذلك فليتنافَسِ المتَنافسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٦].

٤ ـ **دافع التدين**: يبين الإسلام إن دافع التدين هو دافع فطري عند الإنسان:

﴿فأقم وجهَكَ للدينِ حنيفاً فِطْرَت الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ ذلك الدينُ القيمُ ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن العوامل التي تساعد على إيقاظ وبعث دافع التدين في الإنسان ما يحيط به في بعض الحالات من أخطار تهدد حياته، وتسد أمامه جميع سبل النجاة، فلا يجد منها مهرباً إلا الإلتجاء إلى الله:

﴿قل من يُنجيكُم من ظُلُماتِ البرِ والبحرِ تَدعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفيةً لئِن أَنجاَنا من هذه لَنَكُونَنَّ من الشاكرينَ﴾ [الإنعام: ٦٣].

الدوافع اللاشعورية:

وقد أشار الإسلام إلى التعبير اللاشعوري عن طريق فلتأت اللسان عما يجيش في النفس من دوافع يحاول الإنسان كتمانها وإخفاءها:

﴿أم حَسِبَ الذين في قلوبهم مرضٍ أن لا يُخرج الله أَضغانَهُم * ولو نشاءُ لأَرَيناكَهُم فَلَعَرَفْتَهُم بسيماهُم وَلَتَعرِفَنَّهم في لَحنِ القـولِ واللهُ يعلمُ أعمالَكُم﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

فقد تعرض الإسلام للناحية اللاشعوية من سلوك الإنسان قبل دراسة فرويد مؤسس نظرية التحليل النفسي لها بأربعة عشر قرناً من الزمان.

الصراع بين الدوافع.

أن التعارض بين الدوافع يؤدي بالسلوك إلى التردد والحيرة، والعجـز عن إتخاذ القرار، وتعرف هذه الحالة بـالصراع النفسي، وقـد صور الإسـلام حالـة الصراع النفسي التي يعانيها بعض الأفراد الذين يقفون من الإيمان موقف تـردد وريبة، حيث يعجزون عن إتخاذ قرار نهائي في هذا الأمر.

﴿إنما يستئذِنُكَ الذين لا يُومنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ وارتابت قُلُوبُهم فَهُم في ريبيهِم يَتَرَدَّدُون﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿إن المنافقينَ يُخادعونَ اللهَ وهو خادِعُهُم وإذا قَامُوا إلى الصلاة قـامُوا كُسالى يُرَآءُون الناسَ ولا يذكرون الله إلا قليلاً*مُذبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يُضلِلِ اللهُ فلَن تَجِد له سبيلاً﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣].

٣ ـ السيطرة على الدوافع:

إن الإسلام يدعو إلى إشباع الدوافع التي يتـوقف على إشباعهـا استمرار الحياة والنوع ولكن يدعو إلى إشباعها في الحـدود التي بينها الشـرع من حيث السيطرة على الدوافع والتحكم فيها، دون إسـراف أو تجـاوز لهذه الحدود وذلك لمصلحة الفرد والجماعة.

إن الإسـلام لا يدعـو إلى كبت الدوافـع الفطريـة ولكن يدعـو إلى تنظيم إشباعها، والتحكم فيها، بحيث يصبح الفرد هو المسيطر على دوافعه، والموجه لها.

﴿يـا أيها النـاس كُلُـوا مما في الأرض حـلالاً طيباً ولا تتبعـوا خـطوات الشيطان، إنه لكم عدوٌ مبين﴾ [البقرة: ١٦٨].

﴿وإن خفتم ألا تُقسِطُوا في اليتامى فانكحِوا ما طابَ لكُم من النّساءِ مَثْنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ فإن خفتُم ألا تَعدِلُوا فواحـدةً أو ما ملكت أيمَـانُكُم ذلك أدنى ألا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

إن الإسلام يدعو إلى اشباع الدوافع الفطرية عن طريق الحلال المسموح به شرعاً وعدم الأسراف في اشباعها.

وقد نظم الإسلام للإنسان طريقة إشباع الدافع الجنسي بـأن خلق الذكـر والأنثى، وجعـل من حياتهمـا معاً في الأسـرة وسيلة لإشباع الـدافع الجنتسي، ولتحقيق الأمن والطمأنينة لهما بما تتضمن الحياة الأسرية للإنسان من محبة ومودة وتعاون وإيثار.

﴿ومن آياته أن خلق لكم من انفُسِكُم أزواجاً لتسكُنُوا إليها وجعل بينَكُم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآيات لقومٍ يتفكّرُون﴾ [الروم: ٢١].

أما إذا لم تسمح ظروف الإنسان بالـزواج، فعليه أن يستعفف وأن يسيطر على دافعه الجنسي ويقمعه حتى تسمح له الظروف بالزواج.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغنِيَهُمُ اللهَ من فضلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وقد حرص الإسلام على أن يعيش الشباب المسلم في مجتمع يساعده على السيطرة على دافعه الجنسي، ولا يعرضهم إلى ما من شأنه أن يثير هذا الدافع ويهيجه، لذلك طالب الإسلام المسلمين بغض النظر كما طالب النساء بأخفاء زينتهن ومحاسنهن الخلقية التي قد نفتن الرجال كالشعر والعنق والصدر.

﴿قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهِم ويحفظُوا فُرُجُهم ذلك أزكَى لهم إن اللَه خبيرٌ بما يصنعوُنَ * وقل للمؤمنات يغضُضن من أبصارِهِنَّ ويحفظنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يَبدينَ زينَتَهُنَّ إلا ما ظهرَ منها وليضرِبنَ بخمرُهِنَّ على جيـوبِهنَّ ولا يُبدِينِ زينتُهِنَّ إلا لبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتهنَّ أو أبنـاءِهِنَّ أو أبناءِ بُعُـولَتِهِنَّ أو إخوانِهِنَّ أو بنى أخوانِهِنَّ أو بني إخـواتهِنَّ أو نِساءِهِنَّ أو مـا ملَكَت ايمانُهُنَّ أو التابعين غيرِ أُوْلِى إلا ربهِ من الرجالِ أو الطفلِ الذين لم يظهرُوا على عورات النِساءِ ولا يِضرِبنَ بأرجُلِهنَّ لِتُعلَمَ ما يُخفين من زينتهنَّ وتُوبُوا إلى اللهِ جميعاً أيها المؤمنون لعلّكُم تُفلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣٣].

ونهى الإسلام عن الخلوة بين الرجل والمرأة لإن فيها منزلقاً إلى إثارة الدافع الجنسي، كما وجه الإسلام الناس إلى ضرورة التنبيه على الخدم والأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ بعدم الدخول دون استئذان على أماكن تواجد الرجال والنساء في ثلاثة أوقات من اليوم هي: قبل صلاة الفجر ووقت القيلولة في الظهر، وبعد صلاة العشاء، عند الإستعداد للنوم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لَيْستَئِذِنكُم الذين مَلَكَت إيمـانُكُم والذين لم يَبلُغُـوا الحُلُمَ منكُم ثَلاَثَ مراتٍ من قَبلِ صلاةِ الفجرِ وحين تَضَعُونَ ثيابَكُم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاءِ ثلاث عـورات لكم ليس عليكُم ولا عليهم جُناحُ بَعدَهُنَّ طوّافُونَ عليكُم بعضُكُم عَلى بعضٍ كـذلك يبينُ اللهُ لـكُمُ الآيـاتِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ [النور: ٥٨ : ٥٩].

ففي هذه الأوقات الثلاثة المذكور يتحرر الإنسان عادة من ملابسه التي يقابل بها الناس عادة، ويرتدي ملابس النوم والراحة مما يمكن أن يظهر من عورات الجسم ما لا ينبغي أن يراه الناس. والحكمة من تحذير دخول الخدم والأطفال في هذه الأوقات إنما للوقاية من إطلاعهم على عورات الرجال والنساء مما يثير الدافع الجنسي للخدم. وأحتمال إطلاع الأطفال على عورات آبائهم وامهاتهم وعلى بعض نواحي المباشرة الجنسية بينهم، مما قد يترك الآثار السيئة على نفسية الطفل.

٤ ـ إنحراف الدوافع:

إذا فشل الإنسان في ضبط دوافعه والتحكم فيها، فأسرف في إشباعها وانغمس في لذاتها، انحرفت الدوافع عن أهدافها الحقيقية، ومن أهم الدوافع الفسيولوجية المعرضة للإنحراف الدافع الجنسي، وقد ذكر الإسلام نوعاً شائعاً من الإنحراف الجنسي وهو الجنسية المثلية التي مارسها قوم لوط.

﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكُم بها من أحدٍ من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ [الأعراف ٨٠ ـ ٨١].

﴿أتأتون الذُكران من العالمين * وتَذَرُون ما خَلَقَ لكُم رَبُّكُم من أزواجِكُم بل أنْتم قومٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء ١٦٥ ـ ١٦٦].

ومن الإنحراف الشائع من الدوافع النفسية هو الحب الشديد للمال حيث أن بعض الناس يجعلون تملك المال هدفاً في ذاته فالإسراف في الدوافع يؤدي إلى الإنحراف، إن الإسلام يدعو إلى الإعتدال في إشباع الدوافع وعدم الإسراف في إشباعها وقاية للإنسان من الإنحراف، فخير الأمور الوسط:

﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُرُوا وكان بين ذلك قَوَاماً﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿ولا تجعل يَدَكَ مغلُولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبسُطَها كُـلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُومـاً محسُوراً﴾ [الإسراء: ٢٩].

٥ ـ دوافع الإنفعالات في الإسلام

إن الإنفعال يقوم بيتوجيه السلوك مثل الدافع، فأنفعال الخوف يدفع الإنسان إلى الهرب من الخطر، وإنفعال الغضب يدفعه إلى الدفاع عن النفس، وقد يدفعه إلى العدوان، وإنفعال الحب يدفعه إلى التقرب من موضوع حبه.

وقد أشار الإسلام في وصفٍ دقيق لكثير من الإنفعالات التي يشعر بها الإنسان مثل:

الخوف، الغضب، الحب، الفرح، الكره، الغيرة، الحسد، الندم، الخجل.

الخوف: إن دافع الخوف يقي الإنسان من الأخطار التي تهدده في حياته الدنيوية، والأهم أيضاً إنه يدفع المؤمن إلى إتقاء عذاب الله في الحياة الآخرة، فالخوف من عقاب الله يدفع المؤمن إلى تجنب الوقوع في المعاصي.

﴿يا أيها الناس إتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهلُ كل مُرضعةٍ عما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حَمَلَها وترى الناس سكارى وما هم سكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

﴿فإذا جاءتِ الصَّاخَّة * يومَ يَفِرُّ المرءُ من أَخيهِ * وأُمِّهِ وأبيه * وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ * لكل امرىءٍ منهُم يومئذٍ شأن يغنيهِ﴾ [عبس: ٣٣، ٣٧].

وتصاحب إنفعال الخوف تغيرات كثيرة تحدث في الوظائف الفسيولوجية، وفي ملامح الوجه، ونبرات الصوت، وهيئة البدن ومن أنواع الخوف الشائعة بين الناس، الخوف من الله، والخوف من الموت، والخوف من الفقر.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عَذَابَ يومٍ عظيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

والخوف من الموت شائع بين الناس عامة لم يسلم منه حتى نبي الله موسى

عليه السلام، فقد خاف أن يقتله فرعون كما ذكر القرآن على لسان موسى عليه السلام:

﴿ولهم عَلَيَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

﴿قال ربِّ إني قَتَلتُ مِنهم نفساً فأخاف أن يقتلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

والخوف من الفقر شائع بين الناس، وأي خطر يمكن أن يهدده في رزقه يثير فيه الخوف والفزع، وكان العرب قبل الإسلام يقتلون أولادهم خشية الفقر. فناهم الإسلام عن ذلك، واخبرهم بأن رزقهم ورزق أولادهم بيد الله.

﴿ولا تقتُلُوا أولاَدَكم من إملاقٍ نحن نَرزُقُكم وإياهُم﴾ [الإنعام: ١٥١].

إن الإيمان بالله يقضي على الخوف من الفقر.

﴿وفي السماء يرزُقُكم ماتُو عَدوُن﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨].

الغضب: الغضب إنفعال هام يساعد الإنسان على حفظ ذاته مما يمكنه من الدفاع عن النفس أو التغلب على العوائق التي تعوق تحقيق أهدافه الهامة، وقد نوّة القرآن باستخدام الشدّة النابعة من الغضب في سبيل الله وفي سبيل نشر دعوته، فقال في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين:

﴿محمد رسول الله والذين معه، أشِدّاء على الكفار ورَحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿يا أيها الذين آمنُوا قَاتِلوا الذين يلُونَكُم من الكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فيكُم غِلظَةً واعلموا أَن اللهَ مع المتقينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وحينما يتملك إنفعال الغضب الإنسان فتعطل قدرته على التفكير السليم، وقد تصدر عنه بعض الأفعال أو الأقوال العدوانية التي قد يندم عليها فيما بعد حينما يهدأ غضبه، وتتضح من ذلك الحكمة في توصية الله تعالى للناس بالتحكم في إنفعال الغضب وكظم الغيظ، سوف نرى ذلك عن كلامنا عن السيطرة على الأنفعالات.

الحب: يظهر الحب في حياة الإنسان في صور مختلفة، فقد يحب الإنسان ذاته، ويحب الناس ويحب زوجته وأولاده، ويحب المال، ويحب الله والرسول، ونجد في الإسلام ذكراً لهذه الأنواع المختلفة من الحب.

حب الذات: ترتبط حب الذات بدافع حفظ الذات إن الإنسان يحب كل ما يحقق له الخير والأمن والسعادة، ويكره كل ما يجلب له الأذى والألم والضرر وقد عبر القرآن عن هذا الحب الفطري في الإنسان لذاته:

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسَّني السُّوء﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿لا يَسْئَمُ الإنسانُ من دُعاءِ الخيرِ وإن مَسَّةُ الشرُّ فيؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

حب الناس: إن الايمان في الإسلام يوازن بين حب الإنسان لنفسه وحبه للناس مما يحقق مصلحة الفرد والجماعة.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نِعمت الله عليكم إذا كنتم اعداء فألّف بين قُلُوبِكُمن فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿هو الذي أيدّك بنصرة وبالمؤمنين * وألف بين قُلُوبهم ولو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قُلُوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

الحب الجنسي: يرتبط الحب بالدافع الجنسي إرتباطاً وثيقاً، فهو الذي يعمل على استمرار التآلف والإنسجام والتعاون بين الزوجين، وهو أمر ضروري لإستمرار الحياة الأسرية.

﴿زُيّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهَواتِ من النساءِ﴾ [آل عمران: ١٤].

إن الإسلام يدعو إلى السيطرة على هذا الحب والتحكم فيه وذلك عن طريق إشباعه بالطريق المشروع وهو الزواج.

الحب الأبوي: يظهر دافع الأبوة واضحاً في حب الآباء لإبنائهم، فهو مصدر

متعة وسرور لهم، ومصدر قوة وجاه، وعامل هام في استمرار دور الأب في الحياة وفي بقاء ذكراه بعد موته، يتضح ذلك من دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يهبه غلاماً يرثه ويرث آل يعقوب.

﴿قال ربِّ إني وَهَنَ العَظمُ مِنّي واشْتَعَلَ الرأسُ شيباً ولم أكُن بِدُعائِكَ ربِ شقياً * وإني خفتُ المولى من وَرآءِي وكانت امرأتي عاقراً فَهَب لي مِن لَدُنكَ وَلياً * يَرِثُني وَيَرِثُ من آل يعقُوبَ واجعلهُ ربِّ رَضِياً﴾ [مريم ٤ - ٦].

نلاحظ أن حب النبيين جاء في القرآن مقروناً بحب المال في كثير من الآيات.

﴿المال والبنون زينة الحياة والدنيا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿ويُمدِدكُم بأموالٍ وَبَنينَ وَيَجعل لكُم جنّاتٍ ويجعل لكُم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [نوح: ١٢].

حب الله: إن ذروة الحب عند الإنسان حسب الإسلام، هو حب الله سبحانه وتعالى، وشوقة الشديد إلى التقرب منه، لافي صلواته وتسبيحاته ودعواته فقط، ولكن في كل عمل يقوم به، وفي كل سلوك يصدر عنه.

﴿قل إن كنتم تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعوني يُحبِبْكُمُ الله ويغفر لكم ذُنوبكُم والله غفورٌ رحيم﴾ [آل عمران: ٣١].

حب الرسول: ويأتي بعد حب الله تعالى في ذروة السمو والنقاء والروحانية حب الرسول ﷺ.

والمؤمن الصادق الإيمان يتخذ من الرسول عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى الذي يقتدي به في اخلاقه، ويحذو حذوه في سلوكه.

﴿لقد كان لَكُم في رسول الله أُسوةٌ حَسَنةٌ لِمنَ كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

✓ **الفرح**: يذكر القرآن نوعين من الفرح، نذكر فرح الكفار بمتاع الحياة الدنيا.

﴿وفرِحُوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وذكر أيضاً فرح المؤمنين بما أُنزل إليهم من آيات القرآن الذي يهديهم إلى الحق، والذي فيه شفاء لهم وهدى ورحمة.

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعِظةٌ من ربكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾ [يونس: ٥٧ : ٥٨].

الكره: الكره إنفعال مضاد لإنفعال الحب وقد أشار القرآن إلى ما قد يحدث أحياناً بين الأزواج من كراهية، ودعانا إلى محاولة التغلب عليها حتى يمكن للحياة الزوجية أن تستمر.

﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كَرِهتُوهُنَّ فعسى أن تكرهُوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩].

الغيرة: أن الغيرة إنفعال يشعر به الإنسان إذا شعر إن الشخص المحبوب يوجه انتباهه أو حبه إلى شخص آخر غيره، ومن أنواع الغيرة الشائعة ما يحدث بين الأخوة إذا ما شعر أحدهم أن والديه أو أحدهما يحب أحد أخوته أكثر منه، وقد وصف القرآن الغيرة بين الأخوة فيما رواه عن غيرة اخوة يوسف عليه السلام منه بسبب حب أبيهم يعقوب عليه السلام له ولأخيه الأصغر وتفضيلة لهما عليه.

﴿إذ قالوا ليوسف واخوه أَحَبُّ إلى ابينامنّا ونحن عُصبة وإن أبانا لفي ضلال مبين * أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخْلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [يوسف: ٨، ٩].

إن الغيرة غالباً ما تتحول إلى شعور بالكره والحقد والرغبة في ايذاء الشخص الذي يثير الغيرة.

الحسد: إن الحسد إنفعال يشعر فيه الإنسان أن شخصاً آخر يمتلك شيئاً يتمنى هو أن يكون لديه هذا الشيء، وأول حسد حدث في الأرض هو حسد قابيل

لأخيه هابيل حينما تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، مما دفع قابيل إلى قتل أخيه:

﴿واتل عليهم نباء بني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقُبّل من أحدِهما ولم يُتقَبّل من الآخر قال لإقتُلَنّكَ قال إنما يتقبّل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧].

وقد يحدث الحسد بين الأخوة، ولذلك كان تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام من أن يقص رؤياه على آخوته خوفاً من جسدهم له، مما قد يدفعهم إلى ايذائه:

﴿قال يا بنّي لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾ [يوسف: ٥].

وقد وصف الإسلام حسد اليهود والمشركين للنبي عليه الصلاة والسلام على ما خصه الله به من فضل النبوة، وحسدهم للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان والهداية:

﴿ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يُردُّنَكم كفاراً حسداً من عند أنفُسِهم من بعد ما تبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٩].

والحسد مثل الغيرة، يثير الحقد والكراهية ويدفع إلى تمني وقوع الأذى للشخص المحسود، وقد طلب الله تعالى منا أن نستعيذ من شر الحاسدين.

﴿... ومن شر حاسدٍ إذا حسد﴾ [الفلق: ٥].

الحزن: يحدث الحزن غالباً إذا فقد الإنسان شخصاً عزيزاً، أو شيئاً ذا قيمة كبيرة، أو فشل في تحقيق أمرٍ ما، ويشعر الآباء والأمهات عادة بالحزن إذا ما غاب ابناؤهم عنهم، أو إذا مالحق بهم أذى أو اصابهم مكروه وقد أشار القرآن إلى حزن أم موسى عليه السلام حين ابتعد ابنها عنها بعد أن وضعته في صندوق وألقت به في النهر.

﴿فرددناه إلى أمّه كي تقرَّ عينها ولا تحزن﴾ [القصص: ١٣].

ووصف القرآن حزن يعقوب من فقد ابنه يوسف عليهما السلام ووصف الإسلام أيضاً حالة الحزن التي اصابت المؤمنين الفقراء الذين جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة يطلبون الخروج معه للجهاد ويشير الإسلام أن الإيمان بالله وتقواه والعمل الصالح وقاية من الخوف والحزن.

﴿قُلنا إهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مِن هُدى فمن يتبع هُدٰى فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿يا بني آدم إما يأتينكُم رُسُل منكم يقصُّون عليكم أياتي فمن أتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [الأعراف: ٣٥].

النَدم: حالة من الإنفعال تنشاء عن شعور الإنسان بالذنب ولومة لنفسه على ما فعل، وتمنية لو إنه لم يفعل ذلك. وتقابل النفس اللوامة ما نسمية بالضمير، ويسميه التحليل النفسي، «بالأنا الأعلى».

ويصف القرآن ما سيحدث يوم القيامة من ندم بعض الكفار لعدم إيمانهم بالله، وتصديهم لرسوله عليه السلام.

﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني إتخذت مع الرسول سبيلاً * يا وليتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾. [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨]

٦ ـ السيطرة على الإنفعالات:

إن الإسلام يدعو الناس ويوجههم إلى التحكم في إنفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد نفسية وصحية وفكرية لم يتوصل العلم إلى معرفة علمية دقيقة لها إلا في العصر الحديث،

السيطرة على الخوف من الموت: إن الإسلام يبين للإنسان أن الحياة الدنيا فانية، وأن نعيمها زائل وأن الحياة الآخرة هي الحياة الخالدة، وأن الموت ليس إلا مرحلة تنقل الكائن من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية الخالدة، لذلك فإن المؤمن لا يخاف من الموت.

﴿ما الحياة الـدنيا إلا لعب ولهـو وللدار الآخرة خيـرٌ للذين يتقون افـلا تعقلون﴾ [الإنعام : ٣٢].

﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾[غافر: ٣٩].

الإيمـان بالحيـاة الآخرة جعلت المسلمين الأوائـل يقاتلون في سبيـل الله بشجاعة وإقدام غير هيا بين من الموت، وكانوا يتمنون الشهادة في سبيل الله والفوز بنعيم الجنة.

ولا تحسبنّى الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩].

السيطرة على الخوف من الفقر:

إن الإسلام يوصي الإنسان بعدم الخوف من الفقر، فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى.

﴿إن الله هو الرّزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عبادة ويقدر له، إن الله بكل شيء عليم﴾ [العنكبوت: ٦٢].

السيطرة على الغضب: لقد أوصى الإسلام الإنسان بـالتحكم في إنفعال الغضب لإنه يعطل التفكير، ويثير لدى الكائن إستعداداً وتهيؤاً للإعتداء البدني على من يثير غضبه.

﴿أدفع بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينهُ عداوةٌ كأنّـه وليٌ حميمٌ﴾. [فصلت: ٣٤].

﴿والذين يجتنبون كبائر الألم والفواحش فإذا ما غضبوا هو يغفرون﴾.

السيطرة على الحب: لقد أوصى الإسلام بالتحكم في حبنا لأهلنا من آباء وأزواج وأولاد، وفي حبنا لإصدقائنا وعشيرتنا، ووطننا وأموالنا وممتلكاتنا حتى لا ينسيينا كل ذلك حبنا لله، ويلهي الكائن عن الطاعة والجهاد في سبيله.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجِكُم وأولادِكُم عَدُواً لكم فاحذَرُوهُم وإن تعفُوا وتَصفَحُوا وتَغفِروا فإنَّ اللَه غفورٌ رحيمٌ * إنما أموالُكُم وأولادكُمُ فتنةٌ واللهُ عندَهُ أجرٌ عظيمٌ﴾. [التغابن: ١٤ ـ ١٥].

الفصل الثالث

الإدراك الحسي في الإسلام

يتم إدراكنا للعالم الخارجي بالحواس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق والحواس الجلدية. كما يتم عن طريق الإحساس الداخلي إدراكنا لما يحدث من مشاعر وأحاسيس ناتجة من الإختلال في الإتزان العضوي والكيميائي كالجوع والعطش مما يدفع الكائن الحي للقيام بالسلوك الملائم لإعادة التوازن وإزالة التوتر.

إن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بوظيفة آلية يتميز بها عن سائر المخلوقات الأخرى، ألا وهي العقل، غير أن قدرة العقل الإنساني معرض للخطأ. لذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل إلى الناس وأنزل الكتب المقدسة لكي يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكّيكم ويُعلّمكم الكتاب والحكمة، ويُعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [البقرة: ١٥١.]

لذلك يصبح من الضروري أن يتلقى الإنسان المعرفة من الله سبحانه وتعالى لكي ينظم حياته على الأرض مما يكفل له تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. ويتلقى الإنسان هذه المعرفة من الله تعالى عن طريق الرسل والأنبياء، أو عن طريق الإلهام والفيض الإلهي الذي يخص الله به بعض أوليائه.

١ ـ مفهوم الحواس في الإسلام.

يولد الطفل لا يعلم شيئاً، ثم لا يلبث أن تبدأ حواسه في إداء وظائفها. فهو

يتأثر بما يقع عليه من مؤثرات خارجية محدثة فيه إحساسات مختلفة هي الأساس الذي يتكون منه فيما بعد إدراكه ومعرفته بالعالم الخارجي. وقد أشار الإسلام إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكُرون﴾ [النحل: ٧٨]

٢ ـ الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس:

إن الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس مثل الإستشفاف وهو رؤية الأشياء أو الأحداث البعيدة الخارجة عن مجال حاسة الأبصار أو التخاطر وهو إدراك خواطر وأفكار شخص آخر يكون أيضاً في الغالب في مكان بعيد، والإستهتاف وهو سماع نداء أو حديث من مكان بعيد خارج عن مجال حاسة السمع. إن تجارب العلماء على هذه الظواهر لم تمدنا حتى الآن بفهم واضح لكيفية حدوثها. وقد ذكر القرآن مثالاً لهذا النوع من الإدراك الحسي غير العادي حدث ليعقوب عليه السلام حينما شم ريح ابنه يوسف عليه السلام حينما تحركت القافلة التي تحمل قميصه من أرض مصر بعيداً عن المكان الذي يوجد فيه يعقوب عليه السلام بمسيرة عدة أيام.

﴿إذهبوا بقميص هذا فألقوه على وجه أبي يأتي بصيرا﴾ [يوسف: ٩٢]

ومن معجزات عيسى عليه السلام أنه كان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم من طعام، وما يدخرون فيها من أشياء.

﴿وأُنبِئُكُم بما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرونَ في بُيُوتِكُم﴾ [آل عمران: ٤٩]

تأثير الدوافع والقيم في الإنتباه والإدراك الحسي. تؤثر دوافع الفرد وقيمه في انتباهه وإدراكه، ويذكر الإسلام كيف أن الإيمان يجعل المؤمن في حالة تهيؤ وإنتباه إلى الإستماع إلى آيات القرآن فيدركها إدراكاً واعياً، بينما هذه الآيات نفسها لا تحدث لدى المشركين نفس التأثير بسبب الشرك وعدم الإيمان بالله مما عطل حواسهم عن إداء وظيفتها.

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم بكم في الظلمات﴾ [الإنعام: ٣٩]

﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهُم وأعمى أبصارهم﴾ [محمد: ٢٣]

وبينت دراسات التحليل النفس أن الأنسان يميل إلى عدم إدراك الأشياء التي تقلقه وتزعجه، والأمور التي تتعارض مع رغباته وأهوائه.

أخطاء التفكير:

إن التفكير معرض للخطأ. فقد يعترض التفكير بعض العوائق فتحرفه عن طريقه السوي، وتحول بينه وبين الوصول إلى الحقيقة. مما يجعله غير قادر على التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر، مما يفقد الإنسان تفكيره ويصبح كالحيوان الذي أضل السبيل:

﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ [النحل: ١٠٨]

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة: ٧].

إن ابتعاد الإنسان عن التفكير السليم يدفعه إلى التحيز الإنفعالي والعاطفي مما يؤدي إليه من الإنحراف، فيضل سبيله ويعجز عن التمييز بين الهدى والضلال.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضِلَّك عن سبيل الله﴾ ص ٢٦.

﴿فلاتتّبعوا الهَوَى أن تَعدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

الفصل الرابع

طرائق التعلم في الإسلام

يكتسب الإنسان العلم: أو المعرفة من مصدرين رئيسين: مصدر إلهي ومصدر بشري. وهذان النوعان من العلم متكاملان. ويرجعان أساساً إلى الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان، وأمدّه بأجهزة وأدوات للإدراك واكتساب العلم. ونعني بالعلم الصادر من مصدر بشري ذلك النوع من العلم الذي يتعلمه الإنسان من خبراته الشخصية في الحياة، ومن مجهوده الخاص في الإستطلاع والملاحظة ومحاولة حل ما يجابهه من مشكلات عن طريق المحاولة والخطأ. أو عن طريق التربية والتعليم من والديه ومن المؤسسات التعليمية، أو عن طريق البحث العلمي[١].

١ ـ تعلم اللغة

إن للغة أهمية كبرى في حياة الإنسان. حيث تمكنه من التقدم المستمر في تعلمه وتفكيره. فقد كان أول شيء علمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو أسماء جميع الأشياء:

﴿وعلّم آدم الأسماء كُلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلّما أنباءهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني

---

(١) عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية في الإسلام. المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي لجمهورية مصر العربية، ١٩٧٧، ص. ٩٤.

أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تَبدون وما كنتم تكتُمُون﴾ [البقرة ٣١ - ٣٣]

وللتنويه بأهمية تعلم اللغة في حياة الإنسان فإن أول سورة نزلت من القرآن الكريم كانت تحث على القراءة.

﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* إقرأ وربُّك الأكرم* الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

٢ ـ التعلم بالتقليد

إن الإنسان يتعلم كثيراً من عاداته وسلوكه عن طريق التقليد. وقد ذكر القرآن مثالاً يبين كيف يتعلم الإنسان عن طريق التقليد، وذلك حينما قتل قابيل أخاه هابيل ولم يعرف كيف يتصرف في جثة أخيه، فبعث الله تعالى له غراباً ينبش في الأرض ليدفن غراباً ميتاً. فتعلم منه قابيل كيف يوازي جثة أخيه.

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليُرِيَهُ كيف يواري سَوْءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سَوْءَة أخي فأصبح من النادمين﴾. [المائدة: ٣١]

ولما كان الإنسان يميل بطبيعته إلى التقليد، فإن للقدوة الحسنة أهمية كبيرة في التربية والتعلم. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم. كانوا يتعلمون منه حسن السوك. ومكارم الأخلاق وآداب التعامل:

٣ ـ الإنتباه

إن للإنتباه أهمية في استيعاب المعلومات وقد نوه القرآن بأهمية الإنتباه وذلك في قوله:

﴿وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له، وأنصتُوا لعلّكم ترحمون﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وتبتدىء بعض سور القـرآن بحروف مثـل (آلمّ، آلر، آلممصّ، آلَمَـرَ. كَهيَعَصَ، طسَمَ. وقد ذكر المفسرون أن المراد منها إثارة إنتباه المشركين للإستماع إلى القرآن. فقد كان المشركون قد تواصوا بعـدم الإستماع إلى القـرآن. وكان الإبتداء بهذه الحروف يفتح لاستماعها إسماع المشركين، حتى إذا استمعوا تلي عليهم القرآن المؤلف من هذه الحروف.

وممـا يثير الإنتبـاه أيضاً استخـدام القسم فاتحـة لبعض السـور المكيـة: «والصافات»، والذاريات، والطور، والنجم، والسماء ذات البروج،

والسماءِ والطارق، والفجر والعصر.

٤ ـ التعلم بالمشاركة:

إن تعلم المهارت الحركيـة يقتضي أن يقوم المتعلم بـاداء هذه المهـارت بالفعل. وأن يتدرب عليها حتى يتقنها. وقد ورد الإيمان في كثيراً من آيات القرآن مصحوباً بالعمل الصالح.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحـات أن لهم جنات تجـري من تحتها الأنهار﴾ [البقرة: ٢٥]

﴿وَعَـد الله الذين آمنـوا وعملوا الصالحـات لهم مغفـرة وأجـر عـظيم﴾ [المائدة: ٩]

٥ ـ توزيع التعلم:

بينت الدراسات التي قام بها علماء النفس أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة يتخللها فترات راحة يساعد على سرعة التعلم وتثبيته في الذاكرة. وقد طبق هذا المبدأ في القرآن، إذ أنه نزل على فترات متباعدة في مدة طويلة من الزمن قدرها ثلاث وعشرون سنة. وذلك حتى يستطيع الناس أن يتعلموه ويستوعبوا معانيه، وعلى فهمه وحفظه.

﴿وقراءَناً فَرَقْنَاهُ لِتَقرَأَهُ على الناسِ على مُكثٍ ونَزَّلناهُ تنزيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

التدرج في تعديل السلوك:

إن تعديل السلوك يحتاج إلى إرادة قوية وجهد كبير، وتدريب طويل، لم يكن المسلون في أول عهدهم بالإسلام مستعدين للتخلص من العـادات السيئة المستعصية كالنهي عن الخمر والربا، ولكن بعد أن رسخ الايمان في قلوبهـم، كان الإيمان دافعاً قوياً إلى الطاعة التامة لله والرسول. فحيمنا نزلت آيات تحريم الخمر امتنع المسلمون جميعاً عن شربه، وقاموا بسكب كل ما ليديهم منـه في شوارع المدينة.

أما الأسلوب الثاني الذي استخدمه القرآن في علاج المسلمين من عاداتهم السيئة فقد كان التهيئة المتدرجة للتخلص من هذه العادات. وقد اتّبع القرآن هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر. فقد عمد القرآن هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر. فقد عمد القرآن في أول الأمر إلى تنفير المسلمين من شرب الخمر، وتكريههم لها، دون أن يقوم بتحريمها تحريماً تاماً، ثم تـدرج بهم إذ التحريم التام.

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع لللناس وإثمهما اكبر من نفعهما﴾ [البقر: ٢١٩]

﴿يـا أيها الـذين آمنوا لا تقـربوا الصـلاة وأنتم سكارى حتى تعلمـوا ما تقولون﴾ [النساء: ٤٣]

إن الامتناع النهائي عن تعاطي الخمر تم بعد تدريب المسلمين وتهيئتهم نفسياً للامتناع نهائي عن تعاطي الخمر.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسـر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلَّكُم تُفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويُصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم مُنتهون﴾ [المائد: ٩٠ ـ ٩١]

وقد اتبع القرآن هذا الأسلوب ذاته في علاج الربا الذي كان متفشيـاً بين العرب في الجاهلية.

الفصل الخامس

تكوين الإنسان

لكي نفهم شخصية الإنسان فهماً واضحاً، علينا أن نفهم جميع العوامل المحددة للشخصية، سواء كانت مادية أو روحية.

لقد أخبرنا القرآن كيف خلق الله تعالى الإنسان من مادة وروح. فبعد أن مرَّ التراب بعدة عوامل من التكوين: من تراب إلى طين إلى سمأٍ مسنون، إلى صلصال كالفخار، نفخ الله تعالى فيه من روحه فخُلق آدم عليه السلام.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من صماءٍ مسنون * فإذا شويته ونفخت فيه من روحي فقفوا له ساجدين﴾. الحجر: ٢٨، ٢٩]

لا توجد الروح والمادة في الإنسان منفصلتين أو مستقلتين إحداهما عن الأخرى، وإنما هما ممتزجتان معاً في وحدة متكاملة متناسقة، وتتكون من هذا المزيج المتكامل المتناسق ذات الإنسان وشخصيته.

وقد يحدث بين هذين الجانبين من شخصية الإنسان صراع فتجذبه أحياناً حاجاته وشهواته البدنية، وتجذبه أحياناً أخرى حاجاته وأشواقه الروحية. ويشعر الإنسان بالصراع في نفسه بين هذين الجانبين من شخصيته. ويشير القرآن إلى حالة الصراع النفسي بي الجانبين المادي والروحي في الإنسان بقوله:

﴿فأما من طغى وَءَاثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى﴾. [النازعات: ٣٧ - ٤١]

لقد أمدّ الله الإنسان بجميع الإمكانات اللازمة لحل هذا الصراع، بأن وهبه العقل وحرية الإرادة.

﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾. [الإنسان: ٣]

﴿وقد جَاءكُم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها﴾. [الأنعام: ١٠٤]

﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]

﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربُّك بظالم للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦]

لقد ميز الإسلام ثلاثة أقسام للنفس وهي النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان جاء فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية ميز فيها ثلاثة أقسام للنفس وهي: (الهو والأنا والأنا الأعلى. الهو يشبه إلى حد ما مفهوم النفس الأمارة بالسوء).

«والأنا الأعلى» يشبه إلى حد ما مفهوم «النفس اللوامة» والأنا يشبه إلى حدّ ما حالة «النفس المطمئنة» التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية.

١ ـ أنماط الشخصية في القرآن.

إن القرآن يصنف الناس على أساس العقيدة الإسلامية إلى ثلاثة أنماط هي: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون.

ولكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة سماته الرئيسية في تكوين شخصية الإنسان.

١ ـ المؤمنون: وصف القرآن سلوك المؤمنين في كثير من مجالات حياتهم: في عقيدتهم، وعبادتهم، وأخلاقهم، وعلاقاتهم مع غيرهم من الناس، وفي

علاقاتهم الأسرية، وفي حبهم لطلب المعرفة، وفي حياتهم العملية وسعيهم في طلب الرزق، وفي سماتهم البدنية.

أ ـ سمات تتعلق بالعقيدة:

الإيمان بالله، وبرسله، وكتبه، وملائكته، واليوم الآخر، والبعث والحساب، والجنة والنار، والغيب، والقدر.

ب ـ سمات تتعلق بالعباد:

عبادة الله، أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وتقوى الله، وذكره دائماً، واستغفاره والتوكل عليه، وقراءة القرآن.

ج ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية:

معاملة الناس بالحسنى، الكرم والإحسان، التعاون، التماسك والاتحاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، العفو، الإيثار.

د ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية:

الإحسان بالوالدين وبذي القربى، حسن المعاشرة بين الأزواج رعاية الأسرة والإنفاق عليها.

هـ ـ سمات خلقية: الصبر، الحلم، الصدق، العدل، الأمانة، الوفاء بعهد الله وعهد الناس، العفة، التواضع، القوة في الحق وفي سبيل الله، عزة النفس، قوة الإرادة، التحكم في أهواء النفس وشهواتها.

و ـ سمات إنفعالية وعاطفية:

حب الله الخوف من عذاب الله، حب الناس وحب الخير لهم، كظم الغيظ والتحكم في إنفعال الغضب، عدم الإعتداء على الغير وعدم إيذائهم عدم حسد الغير، عدم العجب بالنفس، الرحمة، لوم النفس والشعور بالندم في حالة إرتكاب ذنب ما.

ز ـ سمات عقلية ومعرفية :

التفكير في الكون وخلق الله طلب المعرفة والعلم ، عدم إتباع الظن وتحري الحقيقة، حرية الفكر والعقيدة.

ح ـ سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية :

الأخلاق في العمل وإتقانه، السعي بنشاط وجد في سبيل كسب المرزق.

ط ـ سمات بدنية : القوة، الصحة، النظافة، الطهارة، إن هذه السمات ليست مستقلة بعضها عن بعض في شخصية المؤمن، بل إنها تتفاعل فيما بينها وتتكامل، وتشترك جميعها في توجيه سلوك المؤمن في جميع مجالات حياته.

٢ ـ الكافرون : يمكن تلخيص سمات الكافرين التي وردت في القرآن فيما يلي :

أ ـ سمات تتعلق بالعقيدة : عدم الإيمان بالتوحيد، وبالرسل، وباليوم الآخر، والعبث والحساب.

ب ـ سمات تتعلق بالعبادات : يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

ج ـ سمات تتعلق بالحياة الإجتماعية :

الظلم، عدوانيون في تصرفاتهم نحو المؤمنين فهم يسخرون منهم ويعتدون عليهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف.

د ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية :

يقطعون صلة الرحم.

ه ـ سمات خلقية : نقض العهد، الفجور واتباع الأهواء والشهوات، الغرور والتكبر.

و ـ سمات إنفعالية وعاطفية : كراهيتهم للمؤمنين وحقدهم عليهم، وحسدهم لهم على ما أنعم الله عليهم.

ز ـ سمات عقلية ومعرفية: جمود التفكير والعجز عن الفهم والتعقل. الختم والطبع على قلوبهم. التقليد الأعمى لمعتقدات وتقاليد الآباء، خداع النفس.

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ [البقرة: ٧].

إن غياب سمات المؤمن لدى الكافر، يفقده توازن شخصيته. فينحرف نحو إشباع الشهوات والملذات البدنية والدنيوية.

٣ ـ المنافقون:

المنافقون هم فئة من الناس ضعاف الشخصية ومترددون لم يستطيعوا أن يتخذوا موقفاً صريحاً من الإيمان. وقد ذكر القرآن سماتهم المميزة لهم. وتوعدهم بأشد العذاب.

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

٢ ـ الآليات الدفاعية للسلوك:

الآليات الدفاعية هي عبارة عن عمليات عقلية يلجأ إليها الإنسان لوقاية نفسه من الشعور بالقلق الذي يمكن أن ينتابه إذا ما أدرك دوافعه الحقيقية الكامنة في نفسه، والتي يحاول إخفاءها بالالتجاء إلى هذه الآليات. وقد أشار القرآن إلى ثلاثة أنواع من الآليات النفسية والحيل العقلية كان المنافقون يقومون بها وهي: الإسقاط، التبرير، وتكوين ردّة الفعل.

١ ـ الإسقاط: الإسقاط حيلة عقلية يقوم بها الفرد بإسقاط حالته النفسية ودوافعه وعيوبه وأخطائه على الغير فيدركها فيهم بدلاً من أن يدركها في نفسه. وقد صور القرآن ذلك أصدق تصوير في وصف المنافقين الذين يحسبون أن كل صيحة يسمعونها تصدر عن المسلمين موجهة ضدهم.

﴿وإذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُم وإن يَقولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هم العدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلهُمْ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

٢ - التبرير: حيلة عقلية دفاعية يحاول بها الإنسان تبرير دوافعه وأفعاله غير المقبولة بأن يعطي لها تفسيراً يكون مقبولاً. وقد وصف القرآن التبرير الذي يقوم به المنافقون بقوله:

﴿وإذا قيل لهم لا تُفسدُوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون* إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

٣ - إن الحيل العقلية سلوك يقوم به الإنسان بطريقة لا شعورية.

٣ - تكوين ردّ الفعل: تكوين ردّ الفعل حيلة عقلية دفاعية يتخذ فيها الفرد سلوكاً يكون مضاداً لسلوك آخر يريد إخفاءه. فالفرد مثلاً، قد يبدي كثيراً من المجاملة والأدب والإهتمام في معاملة شخص معين كوسيلة دفاعية يخفي بها كرهه وشعوره العدائي نحوه.

﴿ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا وَيُشهدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام* وإذا تولّى سعى في الأرض ليُفسِدَ فيها ويُهلِك الحرث والنسل والله لا يُحب الفساد﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥]

٣ - الفروق الفردية في القرآن:

توجد فروق كثيرة بين الناس في إستعداداتهم وقدراتهم البدنية والنفسية والعقلية. ترجع هذه الفروق إلى تفاعل كل من العوامل الوراثية والبيئة. وقد أشار القرآن إلى الفروق بين الناس في كثير من المواضيع.

﴿وهو الذي جعلَكُم خَلاَئِفَ الأرض ورَفَع بعضَكُم فوق بعض درجاتٍ لِيبلُوَكُم في مَاءَاتَاكُم﴾ [الأنعام: ١٦٥].

﴿أهم يقسمُون رَحْمَتَ رَبِّكَ نحنُ قَسَمنَا بينهُم معيشَتَهُم لِيتخذَ بعضَهُمُ بعضاً سُخرِياً﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿ومن آياته خلقُ السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢].

﴿إنظر كيف فضلنا بعضَهُم على بعضٍ﴾ [الإسراء: ٢١].

من الواضح في هذه الآيات إشارة إلى وجود الفروق الفردية بين الناس. كما أن هذه الفروق ترجع إلى كل من العوامل الوراثية والبيئة.

كذلك توجد فروق بين الناس في القدرات الفعلية والذكاء. وذلك في قوله تعالى:

﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كُلِّ أعلمٍ عليم﴾ [يوسف: ٧٦].

وبما أن الناس مختلفون في إستعدادتهم وقدراتهم وفي ظروفهم الإجتماعية والثقافية وخبراتهم الشخصية فإن ذلك يؤدي إلى وجود إختلافات كثيرة في سلوكهم.

﴿قُل كلٌّ يعمل على شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

واختلاف الناس في الإستعدادات والقدرات البدنية والعقلية يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف قدرتهم على العمل والكسب.

﴿لا يُكلف الله نفساً إلا وُسْعَها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾

٤ ـ نمو الإنسان في القرآن:

يهتم علم النفس بدراسة المراحل المختلفة التي تم بها عملية نمو الطفل، والخصائص العامة التي تميز هذه المراحل، والعوامل المختلفة التي تؤثر فيها. مما يجعلنا أكثر فهماً، لشخصية الطفل. وأكثر قدرة على توجيهه وتربيته.

١ ـ النمو قبل الميلاد: لقد أشار القرآن الكريم إلى مراحل نمو الجنين منذ بداية الحمل حتى وقت الميلاد ومن ذلك في الآيات التالية:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلاَلَةٍ من طين* ثم جعلناه نُطفة في قرارٍ مَكينٍ*

ثم خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المُضغَة عظاماً فكسونَا العظام لحماً ثم أنشأناه خَلقاً آخر فَتَبَارك الله أحسنُ الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم من مضغةٍ مخلقــةٍ لنُبيّن لكم ونقِّر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثم نُخرجُكم طفلاً ثم لِتبلُغوا أشُدُّكم ومنكم من يُتوفّى ومنكُم من يُردَّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعـد عِلم شيئاً﴾ [الحج: ٥].

﴿يَخْلُقُكُمْ في بطون أمّهاتِكم خلقاً بعد خلقٍ في ظلمات ثلاث﴾ [الزمر: ٦].

يشير القرآن في هذه الآيات إلى مراحل نمو الجنين في الرحم منذ بداية الحمل. حينما تقوم إحدى الخلايا المنوية للأب بتخصيب بويضة الأم الناضجة مكونة بذلك ما يسمى بالبذرة وهي ما عبر عنه القرآن «بالنطفة» ثم تبدأ البويضة المخصبة في التكاثر بطريقة الإنقسام. ويزداد عدد خلاياهـا، وتكون في ذلـك الوقت ما يشير إليه القرآن «بالعلقة».

ثم تنتقـل البـويضـة المخصبـة من المبيض فتتجهـه إلى الـرحم وتلتصق بجداره، وتبدأ الأغشية الجنينية في التكوين. وتتلقى البويضة المخصبة الغذاء من دم الأم بالحبل السري. وهنا تصبح العلقة مضغة. وتمتد هـذه الفترة من حيـاة الجنين من نهاية الأسبوع الثاني إلى نهاية الشهر الثاني حيث تبدأ المرحلة التي يطلق عليها علماء الأجنة مرحلة الجنين. ومرحلة الجنين مرحلة نمو سريع. يزداد فيها حجم الجنين بسرعة. وتتغير نسب أعضائه حتى يصل الجنين إلى تمام نموه في نهاية الحمل.

ويحاط الجنين وهو في الرحم بغشاء يسمى «الكيس الأمنيوني» مملؤ بسائل ملحي يقوم بعدة وظائف هامـة للجنين من بينها وقـايته من الهـزات العنيفة من تأثيرات الجاذبية وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله:

﴿ألم نخلُقكُم من ماءٍ مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم*

فقدرنا فنِعْمَ القادرون﴾ [المرسلات: ٢١ - ٢٣].

ويذهب المفسرون إلى أن الظلمات الثلاث التي ذكرها القرآن في سورة الزمر وإنما تشير إلى ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

النمو بعد الميلاد.

يولد الطفل ضعيفاً بحاجة إلى من يرعاه ويهتم به حتى ينمو يكبر. ويمر الطفل بعدة مراحل. مرحلة الطفولة، مرحلة البلوغ والمراهقة. مرحلة الشباب، مرحلة العجز والكهولة، ولكل من هذه المراحل سماتها المميـزة على المستوى النفسي والفكري والجسدي وقد أشار القرآن إلى مراحل النمو التي يمر بها الإنسان بعد الميلاد من الطفولة إلى الشيخوخة بقوله:

﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدَّكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يُتوفّى من قبل ولِتَبلُغُوا أجلاً مُسمّى ولعلّكم تعقِلون﴾ [غافر: ٦٧].

﴿الله الذي خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعدِ ضعفٍ قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً يخلُقُ ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم: ٥٤].

وقد أشار القرآن إلى حالة الإضطراب السلوكي والعقلي الذي ينتاب بعض الأفراد في مرحلة الشيخوخة.

﴿والله خلقكم ثم يتوفّاكُم ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكن لا يَعْلَم بعد علمٍ شيئاً إن الله عليمٌ قدير﴾ [النحل: ٧٠].

﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم* ثم رددناه أسفل سافلين* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ [التين: ٢ - ٤].

الفصل السادس

الجوانب الأدبية والأخلاقية للشخصية اسلامية

تتميز الشخصية الإسلامية بسمات وخصائص روحية، وفكرية وأخلاقية لا تخضع للمقاييس المادية، وهذه الصفات تعتبر أساسية في تقدم ورقي الأمم. أهم هذه الصفات: الصدق، الأمانة، الاخلاص، زيارة الأهل، التفاهم بالتي هي أحسن، حب الله والرسول والأهل.

الصدق:

إن الصدق حسب الإسلام ميزة أساسية لرقي وتطور الأمم والشعوب، القرآن الكريم يشجع الناس على التمسك بالصدق بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ [التوبة: ١١٩].

الأمانة:

إنها تؤدي إلى الاستقامة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله يأمركُمُ أن تُؤَدوا الأمانات إلى أهلِها وإذ حكمتُم بين الناسِ أن تحكمُوا بالعدل**﴾ [النساء: ٥٨].

رفض النميمة:

الشخصية الإسلامية تنبذ النميمة، يقول الله تعالى: ﴿**ولا يغتَب بعضُكم بعضاً أيحُبُ أحدكُم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً فكرهتموه**﴾ [الحجرات: ١٢].

الإخلاص وعدم الرياء:

يقول الرسول ﷺ: «الناس هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون في خطر عظيم».

وقال ﷺ: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرةٍ من رياء».

التفاهم بالتي هي أحسن:

إن الإسلام يدعو إلى حلّ المشكلات وسوء التفاهم بين الأصدقاء بالتي هي أحسن، يقول تعالى: ﴿ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ادفع بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم﴾ [فصلت: ٣٤].

تبادل الزيارات:

لإزالة الجفاء والتوتر يدعو الإسلام المسلمين إلى تبادل الزيارات فيما بينهم لأنها توثق علاقات التآلف والتعاون والاتصال فيما بينهم.

التشجيع على الزواج:

الزواج حسب الإسلام يمنع الانحراف الخلقي ويصون الإنسان من الانزلاق إلى الرذيلة ويساعد على الاستقرار النفسي والاجتماعي.

من أقوال الرسول ﷺ:

«أكثر أهل النار من العذاب»
«عزاب أمتي أشرارها»

«ما بني في الإسلام بناء أحب عند الله من الزواج» والحديث الشريف يقول:

«تناكحوا تكاثروا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة». الإسلام لا يدعو إلى كثرة النسل لمجرد الكثرة، لكن الكثرة مع توفير الحاجات الضرورية من صلاح وتقوى وفهم وعلم. أما الذي لا تسمح له ظروفه بالزواج فعليه بالاستعفاف، لأن الذي لا يتمتع بالسمات البيولوجية والنفسية والفكرية والاقتصادية الملائمة للزواج، فإن زواجه يصبح غير مستحسن وعباءً إجماعياً واقتصادياً.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وليستعففِ الذينَ لا يجدُونَ نِكاحاً حتى يُغنِيَهمُ اللّهُ من فضلهِ﴾ [النور: ٣٣].

إن مسؤولية تأمين مصاريف الزواج هو من واجبات الرجل، والرجل هو الذي يدير شؤون المرأة.

يقول تعالى: **﴿الرجالُ قوامونَ على النساءِ بِما فضَّل اللَّهُ بعضَهُم على بعض وبما أنفقوا من أموالِهِم﴾** [النساء: ٣٤].

أرقى أنواع الحب في الإسلام هو حب الله والرسول: يقول تعالى: **﴿قُل إن كُنتُم تُحِبُونَ الله، فاتَّبِعوني يُحبِبكُم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم﴾** [آل عمران: ٣١].

حب الرسول:

﴿وأنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].

يقول تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حَسَنَةٌ لِمن كان يرجوا اللَّهَ واليومَ الآخرَ وذكر الله كثيراً﴾** [الأحزاب: ٢١].

حب الأهل:

يقول الرسول ﷺ: «أحب العباد إلى الله عزّ وجل أحسنهم صنيعاً إلى اسرته».

حب الناس:

يقول تعالى: **﴿واعتصِمُوا بِحبلِ الله جميعاً ولا تَفَرقوا واذكُروا نِعمتَ الله عليكم إذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بين قُلُوبِكم فأصبَحتُم بنعمتهِ إخوانا﴾** [آل عمران: ١٠٣].

الكراهية:

أما الكراهية فتكون باتجاه:

ـ المنافقين: يقول تعالى: **﴿إن المُنافِقينَ في الدَّركِ الأسفلِ من النار ولن تجدَ لهُم نصيراً﴾** [النساء: ١٤٥].

﴿بشِّر المنافِقِينَ بأنَ لَهم عذاباً أليماً، الذين يتَّخِذونَ الكافرينَ أولياء من

دون المؤمِنينَ أيبتغُون عندهُم العِزة فإن العِزّة لله جميعاً﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

كراهية الكذب والبخل:

المسلم يكره الكذب والغيبة والخيانة والبخل والتكبر والظلم. الكذب في الإسلام أساس كل رذيلة، حذر الإسلام منه.

يقول تعالى: **﴿إنما يفتَرِى الكذِبَ الذين لا يُؤمِنون﴾** [النحل: ١٠٥].

من أقوال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار».

كذلك البخل فإنه من رذائل الصفات.

يقول تعالى: **﴿الذينَ يَبخلون ويأمُرُنَ الناسَ بالبُخلِ ويكتُمُونَ ما أتاهُمُ اللّهُ من فضلهِ﴾** [النساء: ٣٧].

وقوله تعالى: **﴿ولا يحسَبَنَّ الذين يبخلُون بما أتاهُم اللّهَ من فضلِهِ هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سَيُطَوَّقُونَ ما بخِلوا به يومَ القيامةِ﴾** [آل عمران: :١٨].

يقول رسول الله ﷺ: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم».

كذلك فقد حذر الإسلام من الغرور والتكبر لأنه دلالة على الجهل.

يقول الله تعالى: **﴿فادخُلُوا أبوابَ جهنَم خالدين فيها فَلبِئسَ مثوى المتكبرين﴾**.

﴿وَيلٌ لِكُلِ أفَّاكٍ أثيم يَسمَعُ آياتِ اللّهِ تُتلى عليهِ ثم يُصرُ مُستكبراً كأن لم يسمَعَها فَبَشِرهُ بِعذَابٍ أليم﴾.

الشعور بالندم:

أما بالنسبة للشعور بالندم، فإن الإنسان يندم عندما يقوم بعمل يتنافى مع القيم والمعايير الأخلاقية والدينية، ولوم الإنسان لنفسه وندمه على ما فعل من العوامل الهامة في تقويم شخصية الإنسان، ودفعه إلى تجنب الأفعال وارتكاب الذنوب.

النفس اللوّامة تقابل الأنا الأعلى بمفهوم التحليل النفسي، النفس اللوّامة لها أهميتها في توجيه سلوك الإنسان بما يتناسب مع القيم والمعايير الاجتماعية والدينية.

يقول تعالى: ﴿لا أُقسِمُ بيوم القيامَة، ولا أُقسِمُ بالنَّفسِ اللوَّامةِ﴾ [القيامة: ١ - ٢].

الخوف، الغضب، القلق:

أما بالنسبة لانفعال الغضب، فأن القرآن يوصي الإنسان بالتحكم بالغضب، والنظر إلى موضوع الغضب بروية وحكمة والموعظة الحسنة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وسارِعُوا إلى مَغفِرةٍ من رَبِكُم وجَنَّةٍ عَرضُها السمواتُ والأرضُ أُعدَّت للمُتَقين الذين يُنفِقونَ في السَّراءِ والضَّراءِ والكاظِمينَ الغيظ والعافِينَ عن الناسِ واللَّهُ يُحِبُ المحسنين﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

بالنسبة لقلق الموت، فقد اعتبر الإسلام أن الخوف من الموت لا يؤخر أجلاً ولا يغيّر ما كتبه الله على الإنسان. الإنسان سوف يلاقى حتفه في الوقت المقرر كما أراده الله.

يقول تعالى: ﴿ولَن يُؤخِر اللَّهُ نفساً إذا جَاءَ أجَلُها﴾ [المنافقون: ١١].

كُلُ نفسٍ ذَائِقَةُ الموتَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿أينَمَا تَكُونُوا يُدرِكُمُ الموتُ ولو كُنتُم في بُروج مُشَيّدةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

إن الإنسان الصادق الإيمان لا يخاف الموت، لأن الموت بنظر المؤمن ليس إلا مرحلة تنقله من الحياة الفانية إلى الحياة الخالدة والنعيم الذي وعد الله به عباده الصالحين، بقوله تعالى: ﴿يَا قوم إنمَا هذِه الحياةُ الدُنيا متاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هي دَارُ القَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

أما بالنسبة لانفعال الخوف، فقد أكد الإسلام أن المؤمن لا يخاف إلا من الله سبحانه وتعالى.

يقول تعالى: ﴿فلا تَخَافُوهُم وخَافُونِ إن كُنتم مؤمنينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

يقول تعالى: ﴿لِيَعلَمَ اللَّهُ من يَخَافُهُ بالغيبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

إن المؤمن يسيطر على انفعال الخوف بذكر الله وتسبيحه والاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن الكريم، لأن هذا السلوك يؤدي إلى السيطرة على إنفعال الخوف والقلق، والشعور بالأمن والاستقرار.

يقول تعالى: ﴿وقال رَبُّكُم ادعُوَنِي أستَجِب لَكُم﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبادي عَني فإني قريبٌ أُجِيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن المؤمن حسب الإسلام يخاف من ارتكاب المعصية أو اقتراف الذنوب. لأن الوقوع في ارتكاب المحارم يؤدي إلى العقاب في الدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿قُل إني أخَافُ إذا عَصَيتُ ربي عَذَابَ يَومٍ عَظيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

﴿إنَّا نَخَافُ مِن رَبِنا يوماً عَبُوساً قمطريراً﴾ [الإنسان: ١٠].

إن خوف الإنسان من عذاب الآخرة، يؤدي به إلى الابتعاد عن السلوك الذي يتعارض مع المفاهيم الدينية، وطلب الغفران والتوبة.

يقول تعالى: ﴿فَمَن تاب مِن بَعدِ ظُلمهِ وأَصلَحَ فإنَ الله يتوبُ عليهِ إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

﴿وَإني لَغفَّارٌ لِمن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ثم إهتدى﴾ [طه: ٨٢].

الجهاد في سبيل الله:

أما بالنسبة لموضوع الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، نرى أن المؤمن يتمنى الشهادة في سبيل الله.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا المؤمِنُونَ الذينَ آمنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثم لم يرتابُوا وَجَاهدُوا بأموالِهم وأنفسِهِم في سَبِيلِ اللّهِ أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿الذينَ آمنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبيلِ اللّهِ بأموالِهِم وأنفُسِهِم أعظَمُ درجةً عِند اللّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الفَائِزونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

الممارسات الدينية:

الصوم، الصلاة، الزكاة، الحج.

أما على صعيد الممارسات الدينية فإنها صلة الاتصال للإنسان بخالقه وخالق الكون كله، إن الإنسان عندما يقف خاشعاً متضرعاً أمام الله، فإنه يشعر بطاقة زوحية تبعث فيه شعوراً بالصفاء الروحي، وحالة من الاستقرار النفسي.

أما الصوم، فيعلم الإنسان الصبر وقوة الإرادة وتحمل المشاق، ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائها وشهواتها.

أما بالنسبة لفريضتي الخمس والزكاة، فيؤديها الإنسان المقتدر، وفريضة الذكاء حق أو دين في أعناق الأغنياؤ للفقراء.

يقول تعالى: ﴿وَفِي أَقوالِهِم حقٌ للسَّائِلِ والمحرومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

﴿خُذ من أموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِرُهُمُ وتُزكِيهِم بها...﴾ [التوبة: ١٠٣].

أما بالنسبة للحج فله فوائد نفسية واجتماعية، فهو زيارة المسلم لبيت الله الحرام. مما يجعل المؤمن يشعر بالأمن والطمأنينة.

إن الحج تدريب للإنسان على التحكم بشهواته، والابتعاد عن ما نهى الله عنه. كما يعتبر الحج أكبر مؤتمر إسلامي من مختلف الشعوب الإسلامية،

بمختلف فئاتهم وأجناسهم يتساوون في هذا المكان المقدس على موعد واحد وأرض واحدة. يعبدون الله ويتضرعون إليه ويتآلفون ويتعارفون ويقيمون علاقات المودّة والصداقة والأخوة فيما بينهم . .

﴿الحجُّ أشهُرٌ معلومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهنَ الحَجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ في الحج وما تفعَلُوا من خيرٍ يَعلَمْه اللَّهُ وتزوّدوا فَإنَ خَيرَ الزَّادِ التَّقوى واتَّقُونِ يا أُولي الألبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الخلاصة

ينطلق الإسلام في تكوينه للشخصية الإسلامية من الإطار الـديني العام، باعتبار أن الدين هو الإطار الشامل لكل أنظمة الحياة. فكل سلوك أو دافع حين يعالجه الإسلام فإنه يمزج بين الدافع وبين الدين، يصوغ الدافع والسلوك في إطار من الصلة الدينية للإنسان بخالقه وآخرته.

هذا الإطار الإسلامي للشخصية وما يتضمنه من دوافع وحاجات وغايات. يهدف إلى ضمان تحقيق المصالح للفرد والمصالح الإجتماعية، هذه الدوافع الفردية والإجتماعية لا يمكن أن تشبع حياة الفرد والجماعة واستمرارية الحياة الإجتماعية إلا من خلال الدين.

يمكن تصنيف دوافع الإنسان في حياته المعيشية إلى فئتين:

١ ـ دوافع ترتبط بالبيئة الخارجيةوما تقدمه للإنسان بوصفه كائناً له مجموعة من الحاجات: بيولوجية، إجتماعية، اقتصادية، فكرية.

الإنسان غير قادر على اشباع هذه الحاجات خارج إطار النظام الإجتماعي، الذي يربط الفرد بوصفه كائناً اجتماعياً بعلاقات مع الآخرين.

الإسـلام حاول أن يـوفق بين الدوافـع الفرديـة ـ الذاتيـة وبين المصـالـح الإجتماعية، ما تجدر الإشارة إليه أن الدوافع الفردية تلتقي بالدوافع الإجتماعية، لإن المجتمع الإنساني يندفع دائماً في سبيل توفير المصالح العامة من الدوافع الذاتية للأفراد، باعتبار أن الدوافع الذاتية للأفراد تحقق النفع الشخصي للأفراد جميعاً.

هكذا فإن الإسلام ينظر إلى الشخصية الإسلامية كتركيب: عضوي، نفسي، فكري، إجتماعي، روحي.

٩- الدوافع الإجتماعية، تتطلب من الإنسان المسلم أن يدرك التنظيم الإجتماعي الذي ينتمي إليه، بحيث يدرك الجوانب التي يرغب في إصلاحها، من هنا فإن الدافع النفسي يسعى إلى ايجاد ذلك التنظيم الإجتماعي الذي يتلاءم مع حاجات الإنسان ودوافعه الذاتية ولا يتعارض مع مصالح الجماعة العامة، كون أن معرفة الإنسان محدودة، ناقصة، غير تامة، يصبح من الضروري إيجاد النظام الإجتماعي الذي يتفق مع العقيدة الإسلامية، كون أن الأنبياء والرسل قادرين عن طريق الوحي على تحديد المصالح الحقيقية للإنسان في حياته الإجتماعية وكشفها للناس.

المهم ليس فقط معرفة وإدراك المصالح الإجتماعية الملائمه للإنسان، بل المشكلة الأساسية هي: كيف يندفع الإنسان إلى تحقيق وتنظيم المجتمع بما يتلاءم مع المصالح الإجتماعية باعتبار أن المصلحة الإجتماعية تتعارض في غالبية الأحيان مع الدافع الذاتي للفرد، لأن المصلحة الإجتماعية تتناقض مع المصالح الخاصة للأفراد، إن السلوك الذي يندفع في تحقيق حاجات وغايات ذاتية يختلف عن الدافع الذي ينطلق لتحقيق المصلحة الإجتماعية العامة.

إن الدين الإسلامي يجد الحل من خلال التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح الإجتماعية العامة، هنا تبدو أهمية الدين على صعيد الإنسانية، الدين هو الطاقة الروحية التي تستطيع أن تعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في حياته الأرضية آملاً في النعيم الدائم، ويستطيع الدين أن يدفع الإنسان إلى التضحية بوجوده عن إيمان بأن هذا الوجود المحدود الذي يضحي به الفرد ليس إلا تمهيداً لوجود خالد وحياة دائمة، بذلك فإن الدين يستطيع أن يخلق في تفكير الإنسان المسلم نظرة جديدة اتجاه مصالحه ودوافعه الذاتية. وفي القرآن الكريم نجد تأكيدات على هذا المعنى.

﴿ومن عمل عملاً صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾.

﴿ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

هذه الآيات يقدمها الدين الإسلامي في نصوص القرآن ليربط بين الدوافع الذاتية وسبل الخير في الحياة، ويطور من مصلحة الفرد بأن يجعله يدرك، أن مصالحه الخاصة والمصالح العامة للإنسانية التي يحددها الإسلام مترابطتان.

المشكلة الأساسية كما نعلم خلال تفاعل الفرد مع الآخرين هي مشكلة التناقض بين الدوافع الذاتية والمصلحة العامة للمجتمع.

القرآن الكريم أوجد الحل لهذه المشكلة بكل وضوح في قوله تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم: ٣٠].

الإسلام يزود الشخصية الإسلامية بعدة مفاهيم عن الدين والحياة. المشكلة الأساسية في حياة الإنسان نابعة من الفطرة، لأنها مشكلة الدوافع الذاتية، وفطرة التدين لدى الكائن الإنساني تزود الإنسان في نفس الوقت بالعلاج لأن الدين وحده قادر على التوفيق بين الدوافع الذاتية مع الصالح الإجتماعية العامة، باعتبار أن الإسلام يهدف إلى تغير الواقع وليس فقط تفسيره، إنه يهدف إلى إيجاد المجتمع الإنساني الذي يتوافق مع التشريع الإسلامي، حيث يطبق فيه المذهب الإسلامي تطبيقاً كاملاً.

إن العنصر الروحي والفكري أو بكلمة أخرى المزاج النفسي العام للمجتمع الإسلامي ذو أثر كبير في مجرى الحياة الإجتماعية. الإسلام وفق بين الدوافع الذاتية والمصلحة الإجتماعية العامة من خلال العدالة الإجتماعية. التي جعلها

عدالة إنسانية شـاملة، وأقامهـا على ركنين قويين: الضميـر البشري من داخـل النفس، والتشريع القانوني من محيط المجتمع.

إن القرآن الكريم، في معالجته لأمراض المجتمع، فإنه لا يأخذها بالعنف والمفاجأة، بل يسير فيها إلى الإصلاح على مراحل مترتبة متصاعدة، حتى يصل بها إلى الغاية المنشودة.

كان هذا هو منهجه في شأن المال والبنون والزواج والخمر.

نجد في القرآن الكريم آيات تنظر إلى المال على أنه ابتلاء وفتنة **﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾** كما أن هناك آيات تعتبره نعمة وفضلاً. **﴿ويمددكم بأموال وبنين. . . المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾**.

الدين يدعو إلى تهذيب الطبيعة الإنسـانية، فـالمال وسيلة، لـذلك حـرّم الإسلام الربا، واكتناز المال وقد أنذر القرآن من يكنزون الأموال ويحبسونها بقوله تعالى: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضـة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشـرهم بعذاب أليم﴾** وأشار الإسلام إلى أن من أسباب الخراب الإجتماعي وجود المترفين في الامه وإليه يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا﴾** إن أول ما نكتشفه من أسرار التشريع الإسلامي هي بواعثه الأدبية والخلقية.

المراجع باللغة العربية

علي زيعور : مذاهب علم النفس ـ دار الأندلس ١٩٨٠ .

فرويد : مقدمة في التحليل النفسي ـ دار المعارف ١٩٧٠ .

فرويد : ثلاث مقالات في نظرية الجنسية ـ دار المعارف ١٩٦٣ .

فرويد : حياتي والتحليل النفسي ـ دار المعارف ١٩٧٢ .

فرويد : ما فوق مبدأ اللذة ـ دار المعارف ١٩٦٦ .

إسماعيل محمد عماد الدين : المنهج العلمي وتفسير السلوك ـ دار النهضة ١٩٦٢ .

حامد عبد السلام زهران : علم نفس النحو ـ دار العوده ١٩٨١ .

عاقل فاخر : علم النفس ـ دار العلم للملايين ١٩٦٦ .

سمير نوف : التحليل النفسي للولد ـ دار النشر الجامعية .

سعيد الحفار : البيولوجيا ومصير الإنسان عدد ٨٣ ـ عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣ .

أوتو كلينبرغ : علم النفس الإجتماعي ـ دار الحياة ١٩٦٧ .

لازاروس : الشخصية ـ دار الشروق ١٩٨١ .

كاظم ولي آغا علم النفس الفسيولوجي ـ در الآفاق ١٩٨١ .

إبراهيم عبد الستار : الإنسان وعلم النفس عدد ٨٦ ـ عالم المعرفة الكويت .

أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجي ـ دار المعارف ١٩٧٠ .

سامي الدروبي : الموجز في علم النفس ـ دمشق ١٩٥٤ .

محمد جوهري : الأنتروبولوجيا ـ دار المعارف ١٩٨٠ .

ارجايل، ميشيل : علم النفس ومشكلات الحياة الاجتماعية ـ القاهرة ١٩٧٤ .
رالف ليتون : دراسة الإنسان ـ صيد ١٩٦٥ .
أبراهيم عبد الستار آفاق جديدة في دراسة الإبداع ـ الكويت ١٩٧٩ .
إبراهيم عبد الستار : أصالة التفكير ـ الأنجلو ١٩٨٠ .
مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني ـ القاهرة ١٩٥٩ .
أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ـ المكتبة العصرية ١٩٧٠ .
علي زيعور، مريم سليم : حقول علم النفس ـ دار الطليعة ١٩٨٥ .

مراجع إسلامية :

محمد نجاتي القرآن وعلم النفس ـ دار الشروق ١٩٨٠
طه حسين الفتنة الكبرى ـ دار المعارف. مصر.
أبي النصر الحسين الملكية في الإسلام لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٥٢ .
محمد باقر الصدر اقتصادياً دار التعارف ـ ١٩٧٩ .

المراجع باللغة الفرنسية

PIERRE NAVILLE: «La psychologie du Comportement» Gallimant, PARIS.

GUILLAUME (P): La Psychologie de la forme» Flammarion, PARIS 1942.

PIAGET (J): Les mécanismes perspectifs, P.U.F., PARIS 1961.

MICHEL FOUCAULT: Histoire de la folie Gallimard, PARIS 1972.

HANRY PIERRE: L'Information - éducation sexuelle, PARIS 1974.

MELANIE KLEIN: L'Analyse des jeunes enfants.

FREUD: Cinq lecons sur la Psychanalyse, P.U.F 1966.

MELANIE KLEIN: Essais de Psychanalyse Payot, PARIS 1980.

PIAGET: Psychologie et pédagogie, PARIS 1969.

PIAGET: La naissance de l'intelligence chez lenfant, PARIS 1963.

PIAGET: La formation de Symbole PARIS 1954.

PIAGET: six etudes de psychologie PARIS 1967.

PIAGET: Mes ideés, PARIS 1973.

JEAN STOETZEL: La Psychologie Sociale, PARIS 1978.

المراجع باللغة الإنكليزية

ERIKSON, E.H: Children and Society. N.Y Norton 1963.

KALLMAN: Heredity in health and mental disorder. N.Y. 1953.

DOBZ HANSKY: Changing man Science 1955.

Skeels. H.M.: Some Low a studies of the mental growth of Children, 39 Year Book, Part II. 1940

DAVIS: Social class and Colour differences in Childrearing, Americain Sociology review 11.

BAUMRIND DIANA and BLACK, A.E.: Sociolization Practices associated with dimensions of

Competence Boys and Girls, Children Development, 38 (N 2) 1967.

KARDINER, A.: The Individual and his Society. N.y 1939.

BETTELHEIM, B.: The Informed Heart, N.Y. 1960.

KAREN HORNEY: Neurotic Personality of our times, N.Y. 1937.

FROMM. E.: Escape From Freedom. N.Y. 1941.

ZANDEN, J.W.: Social Psychology. N.Y. 1977.

ASCH, S.E.: Opinions and Social Pressures, N.Y. 1955.

DEMPSEY, O.: Psychology and you, N.Y. Scott, 1978.

ZINBARDO, P.G.: Psychology and imprisonment, Society 1972.

FREEDMAN, J.L.: Psychological Perspectives of Population, N.Y. 1973.

SHORR, A.C.: Slumus and Insecurity, WASHINTON 1963.

المحتويات

الباب الثالث

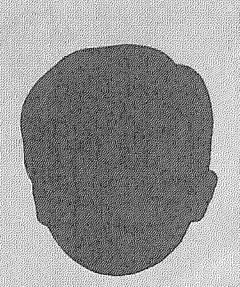
الباب الرابع :

القسم الثاني

مطابع يوسف بيضون

بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٣٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣





الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي